دمشق وعيدها الفضي

الدكتورة نجاح العطار
وزيرة الثقافة

أيها الاخوة
أيها الأبناء

«أمس كان باكرا، وغدا يفوت الأوان، اليوم!» هكذا التاريخ، كالقدر، يضرب في الوقت المناسب ضربته الحاسمة، فاصلا، كما النهر العظيم، بين ضفة وضفة، بين ماكان، وبين ماسوف يكون، والا ضاعت الفرصة الى الأبد. غير أن التاريخ يحتاج الى رجله، قائده، صانعه، كي ينطق باسمه، في صيحة مدوية، يتردد صداها في أربع جهات الوطن، أن هبوا أيها الثوار، أيها البناة، ياصانعي المستقبل الوضاء، ويا هادمي جدار الخطأ الماضي، لأننا، في الضربة الحاسمة، نكون أو لا نكون، وفي هذه الضربة الحاسمة كنا، يوم

كـان فـجـر السـادس عـشـر من تشـرين الثـاني ١٩٧٠ ، وكنا في المصححين للمسار ، كي يستقيم لنا المسار ، وقد استقام ، وكي تكون الثورة داخل الثورة ، وقد كانت ، وبعدها تبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وانبلج صبح الحركة التصحيحية ، بقيادة رجل التصحيح ، رجل التاريخ ، رجل الدولة ، رجل الثورة ، الرئيس حافظ الأسد ، الذي ، في ذلك الفجر ، أشعل نجمةً في سماء سورية ، لاتزال ساطعة ، ومع الأيام ، والأعوام ، تزداد سطوعا ، لأن زيتها من الشجرة المباركة ، شجرة الزيتون ، التي في يُمْنَاهُ غصنها والسلام العادل ، وفي يسراه بندقيتها والتحرير ، وقد عرفنا هذا التحرير ، شهدناه ، أكبرناه ، حين خضناه في السادس من تشرين الأول ١٩٧٣ ، فكان تاريخا لتاريخ ، وثورة تحريرية أكملت الثورة التصحيحية ، من عناقهما ، على اسم الحق ، وفي هديه ، هذا العيد الفضي الذي نحتفل به هذه الأيام ، ونحتفل معه بمعانيه الرائعة ، ومنها الاستقرار طويلا طويلا كان ، بعد اضطراب مديدا مديدا كان ، بين الفاصلة والفاصلة من زمنه ، انقلاب يستجر انقلابا ، ونحن ومعنا الوطن والشعب ، نتخبط في ظلماته ، بانتظار الضوء يلوح مشعلا ، في كف قائد منتظر ، سبقت مجيئه الاشارة لهذا المجيء ، وتقدمت ركبه أماثر هذا الركب ، كما الهدهد في البحث عن الماء ، تقدم موكب أسلافنا الذين نهضوا للفتح ، وللنصر ، فكانوا في الحكماء ، وفي العظماء ، وفي الشجعان ، ومن حكمتهم وعظمتهم وشجاعتهم ، قبس الذي أدركوا حكمتهم ، والذين ساروا مسيرتهم ، في شجاعتهم والتقى ، في صلابتهم والحلم ، في ايمانهم والورع ،

لأنهم، بذلك، أوفوا الكيل، وأفاؤوا النعمى، ونشروا العدل، وخلفوا وراءهم كل غاشية كانت تلم بشعبهم وهم أبناؤه، أو تلم بوطنهم وهم سياجه، أو تجبه صبوتهم الى الكرامة وهم أعزته، أو هاجرة تلفح خضرته وهم نبت هذه الأرض، في زرعها والضرع، في حصادها والعطاء، في سقياها والري، في غمامها يستمطر غماما، رحمة من الله وبركة تشملنا عاما بعد عام بعد عام.

«أمس كان باكرا، وغدا يفوت الأوان، اليوم!» واليوم هو عيد الحركة التصحيحية الخامس والعشرون، وعيد القائد الذي حدد اليوم، لا قبله ولا بعده، وفيه، قبل فوات الأوان، حسم الموقف، فانتقلت سورية نقلتها الكبرى، دون أن تسفك نقطة دم واحدة، لأن صانع هذا اليوم، كان حريصا، حرصه على نور العين، أن تكون النقلة، بكل سعتها، عظمتها، مداها، أثرها، تأثيرها، نقلة بيضاء، تصان فيها الأرواح عزيزة، ويفتدى فيها الدم غاليا، ويتم كل شيء بصورة طبيعية، مثل طلوع الشمس شروقا، وتواريها غروبا، فهو، القائد الأسد، كان يعرف أن شعبه معه، لأنه ابن هذا الشعب، ويثق بهذا الشعب، ثقته بالله وبالنصر، إنقاذاً لوَطَنٍ مكبل، وجماهير محاصرة، واقتصاد مترنح، وقوة تنقصها المنعة، ودور تاريخي لسورية، افتقدته سورية، بعد أن سادت لأعوام خلت، عزلة بين القيادة العاجزة، وقواعدها المعزولة، داخليا وعربيا ودوليا، ولا بد من عمل ما، يجترح معجزة الانقاذ، فيهدم، بضربة واحدة، جدار هذه العزلة، بين القيادة وقواعدها، بين الجماهير وقادتها، بين الوطن ومحيطه العربي، بين ما هو اقليمي، كريه، بغيض، وبين محيطه

الخارجي الذي افتقد، في الملمات، دور سورية، وتقاليدها الكفاحية، نضال سورية ومجدها التاريخي، حضور سورية وأثرها، وكذلك خطرها، في اتخاذ أيما قرار، سواء في التضامن ضد العدو، أو في تحرير الارادة العربية من أسر هذا العدو.

هكذا، قبل ربع قرن، أمسينا على ضير، وأفقنا على خير، وتبدلت الحال، كأنما في وثبة، شرفها في تحققها، وقد تحققت، وحققت، على مدى الأعوام الطوال، كل شيء في حياتنا. من انهاء العزلة الى احياء الألفة، من التباعد الى التقارب، من الحصار الى فك الحصار، من انعدام المؤسسات الدستورية الى قيام المؤسسات الدستورية، من غربة هذا الحزب عن ذاك، الى اجتماع الأحزاب في جبهة وطنية تقدمية، من الفرقة بين صفٍّ وصفٍّ الى رص الصفوف، من اغتراب المواطنين عن قيادتهم الى اللقاء بها والالتفاف حولها، من القطع بين سورية ومحيطها العربي الى الوصل بينها وبين هذا المحيط، لأن العروبة هي الأصل ونحن منها الفرع، والوحدة هي الهدف، بنا تكبر، وبها نكبر، حين المنطلق أصبح وحدويا، وطنيا، قوميا، تقدميا، انسانيا، عالميا، لنا فيه حضور، ورأي، وقرار، وتبادل متكافئ على أساس من الاحترام المتبادل والمتكافئ.

هكذا تقدم الفارس المكلل بغار التصحيح، ليكون بطل حرب التحرير، حاملا كتابه في يمينه: بيان الحركة التصحيحية الأول، الذي ماكان، على الورق، غمغمة أو جمجمة، بل عهدا صريحا، واضحا، مشرقا، حلل الماضي فأحسن التحليل، وخطط للحاضر فأوفى الخطط، ووعد للمستقبل فأنجز الوعود، وفي وسع أي منا،

في مكتبه أو بيته ، في مدينته أو قريته ، في حضره وباديته ، أن ينظر في بيان الحركة التصحيحية الأول نظرة نقدية ، تمحيصية ، تحليلية ، واعية ، مستوعبة ، ثقافياً اجتماعيا ، وسياسيا ، وقانونيا ، ودفاعيا ، وأن يدل ، بعد هذا السبر ، بعد هذا التدقيق ، على نقطة واحدة في هذا البيان ، لم تكتب ذاتها على خضرة الواقع ، أو على بند في البيان لم يكن بيانا متحققا ، أو عهدا مقطوعا لم يعرف حقه في الوفاء ، وعندئذ يكون الالتفات الى وراء وقودا دافعا الى الأمام ، ويكون الميزان قسطا وقسطاساً ، منه الحكم العدل ، ومنه الضمير الحيّ ، في غير محاباة ولا مداجاة ، لأننا ، في هذا العيد ، وفي هذه الوقفة الجماهيرية ، نلتقي بكم لقاء المحبة ، ولقاء المصارحة ، وفي كليهما لنا ولكم نفع على السواء ، ومن هذا المنطلق يتخذ العيد الفضي صفة البيدر ومنه الغلال ، وصفة الزارع وحصاده شهادته ، وصفة الكتاب الذي في اليمين ، وبين دفتيه سجل من المآثر ، من الانجازات ، من الحسنات التي لا ندعيها كاملة ، فالكمال يقتل الطموح ، ونحن في الطامحين ، ولا نريدها جحودا ، فالجحود يغتال الأمل ، ونحن في المؤملين غدا زاهيا ، وفجرا نيرا ، وسلاما عادلا ، شاملا ، قلنا قولنا فيه ، وحددنا مواقفنا منه ، ثم لا فرط ولا تفريط ، ولا رهبة في جبه العاديات ان كانت ، أو تضعضع أمام التهديدات ان جاءت ، فالتجلد من شيمنا الغاليات ، ومن فعالنا الباقيات ، ثم جبهة قائدنا والشمس ، يبلغها ارتفاعا ، ونبلغها معه اقتدارا ، ولأن العظيم ممتحن ، كما المؤمن ممتحن ، فقد امتحن قائدنا ، رئيسنا ، امتحانا بعد امتحان بعد امتحان ، وخرج ظافرا من كل امتحان ، في برديه عزيمة لا تلين ، وفي

عينيه نظرة لا تخيب، وفي صدره قلب يذوب حنانا لدمعة طفل، ويتفولذ أمام نصل معتد، مهما حاول، أو ناور، هذا المعتدي، ومهما تفنن في نزاله والقتال، وفي مباحثاته وحواراته والأضاليل، لأن الذي وضع رجله في نقع الشهادة أو النصر، هو هو الذي سيحقق النصر بنفسه، وبنا، ومعنا، وفي فيء رايته خفاقة كانت، وخفاقة تبقى، نسير ونظل نسير، ويكفي أن نقول حافظ الأسد، كي يتردد الصدى رجعا مدويا في سمع الدنيا كلها.

وتلتاح دمشق شوقا دائما، الى وضاحة جبين دائمة، عرفتها فعرفت العزة معها، واذا كانت دمشق تأنف، في تاريخها كله، أن تبدي ما لا تضمر، فانها الآن، في مهرجانها الفضي، تبدي ما تضمر، وتتطلع الى مزيد ومزيد من الابداء، زينة هي الحلية، وكلاماً هو الصدق، نريده كذلك، ونصر على أن يكون كذلك، ويأباه فارس دمشق وقائدها اذا لم يكن كذلك، ففي الكلمة الحقة يستعلن الحق، وفي الكلمة الباطلة يستخفي الباطل، وحافظ الأسد خير من ميز الحق من الباطل، وأفضل من راز الأصدقاء فاصطفاهم، ومن راز الأعداء فجفاهم.

اليك، اذن، ياقائد الأمة، دمشق التي بايعتها على المحبة، وبايعتك على الوفاء، اليك دمشق الطالعة من أعماق التاريخ، تأتيك هاتفة، هازجة، مصفقة، مهللة، لأنك، مرة أخرى، أدخلتها التاريخ تاريخك أنت، مجدك أنت، عنفوانك أنت، وأنت، وهذا الجمع يعرف، من التاريخ غرة، وحجة، وعلامة، وبشارة، فاسلم لها، لتسلم لك، واسلم لوطنك، لشعبك، لأمتك، لعهدك الذي

كان بك مزدهرا، وكنت عنه مسئولا، قسما منه الوفاء، وبنيانا منه الشموخ، وسياجا للقوة منها الاعتداد، وعليها، بعد الله، الاتكال، لأنها من صنع يمينك، قلما وسيفا، لفظة وفتكة، حكمة وشجاعة، صبرا ومصابرة، الى أن تروض، بقوة شكيمتك، ما لا يروض، في عزمك والوثوب على الأذى، كما عودتنا دائما وفي ربع قرن من التصحيح، وكما نتوقع منك دائما وفي ربع قرن آخر، تبقى فيه معافى، وأنت المعافى، وتبقى فيه ملاذا، وأنت الملاذ، وتبقى الظافر قولا وفعلا، ولو كره الحاسدون، والحاقدون، وكل من يعشيه ضوء النهار، لأنه اعتاد ظلمة الليل.

ياقائد دمشق، هذه هي دمشقك، دمشقنا، دمشق العروبة، تناديك فأصغ الى ندائها، وتعاهدك وهي صادقة في عهدها، يكفيها فخرا أنها معك، وبك، تتقدم، عارفة أنك تسمع نداءها، وتلبي أمانيها، وتقود مسيرتها، وهي، دمشق، كما تعلم، دهر من الدهر، يرقى خلودها الى ما لا نعلم من الأزمان، ويبقى خلودا الى ما لا نعلم من الأيام، ويكفيها زهوا أن لها سبعة من الأبواب، وأنها فتحت لك، واستقبلتك، بأبوابها السبعة، لأن ذلك بك وحدك يليق، وسيظل بك يليق، وبتاريخك يليق، وكذلك بكفاحك والمكرمات.

الفلسفة العربية والخطوط الحمر

يوسف فجر رسلان

كانت العامة -ومافتئت- تعظم الفقهاء، وتبوئهم أرفع المراتب الاجتماعية، وتوكل إليهم الإشراف على شؤون دينها وعباداتهافي التوجيه والإرشاد. وتحديد الأطر الاجتماعية والعلاقات الأسرية وممارسة الطقوس المختلفة. مع أنها كانت عندهم. أو عند معظمهم وأبرزهم، متهمة بملكاتها العقلية. مطلوبةً «لضرب ظهورها» إذا ماسولت لها نفسها أن تسأل «أهل المعرفة» في القضايا الفقهية العميقة.

(*) يوسف فجر رسلان: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الفلسفية والاجتماعية، ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

وما من ناظر متدبر في القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة يجهل أن الله تعالى يأمر أهل المعرفة بتفقيه جمهور المسلمين في جميع شؤون دينهم أرضية كانت أو سماوية، وعليه، فإن لوم العامة وتقريعها. بل وضرب ظهورها إذا ما اجترأت على المسائل الفقهية، إنما هو سلوك ينافي الشرع.

وليس يهمنا في هذا البحث أن نتعقب -بالتحديد- ما إذا كانت العامة تفهم المسائل الفقهية أو لا تفهمها، فهي تفهمها بدون ريب، وإنما يهمنا ويشغلنا أن نتعقب العوامل التي عسَّرت على الفكر العربي تفتحه وانطلاقه دهرا طويلا، وما تزال ارتكاساتها ممتدة إلى الخلفية النفسية العامة لأمتنا العربية، متشعبة متجذرة على هذا النحو أو ذاك في جميع مللها ونحلها. إنها لكارثة. وأي كارثة؟! أن تجد في تاريخنا المعاصر مساحات بشرية واسعة من أمتنا تترك النظر في الأمور الرفيعة (لأهل المعرفة) وحسب، لأنه لا تنهض الأمة بغير فكر يشرئب إلى المسائل الرفيعة.

نريد من ذلك أن دفع الجماهير العربية نحو اهتمامات الحياة اليومية وحسب، وردعها عن النظر في المسائل الفلسفية المجردة، والفقهية في صدرها، قد أخمد الجذوة الوقادة في الذهن العربي حتى انعدم وجود فلاسفة عرب في القرون المتأخرة، وما عاد يوجد في رحاب السلاطين والخلفاء والأمراء وصولا إلى الجمهوريات غير الأئمة وحجج الإسلام وشيوخ الإسلام والفقهاء وأرباب الشعائر، تنبيك عن كثرتهم وهيمنتهم تلك الأرتال الزاحفة إلى المناسبات والولائم الدينية. -وما من مدقق يجهل أن الزمان الذي ظهر فيه خصوم الفكر العربي هو اللب من عصر الانحطاط ومن المفارقات العجيبة- أو لعله من ردة الفعل في عبقرية الفكر العربي -أن تنجب الأمة في الحقبة ذاتها عباقرتها في الفلسفة والفكر الانتقادي، حتى كان في تاريخنا ثبتان متوازيان: ثبت الفلاسفة العظام، وثبت «أهل المعرفة والفقهاء» الكرام.

ومن المفارقات العجيبة أيضا أن أوربا التي كان (فقهاؤها) يفرقونها في

الجهل كانت تتشوّف إلى المعرفة والنور تنهلهما -علما وفلسفة- من عبقرية الفلاسفة وعلماء الكلام والعلماء العرب. فيما كانت جماهير الديار العربية مدعوة دائما إلى التبعية المطلقة لفقهاء متشددين، يغلقون دون عقولها منافذ النور (بدواعي) الحرص على الدين وعلى الإيمان النقي بتحويط قلوبها والتَّحْويق عليها من أن تمسها علوم اليونان، أو تلوثها فلسفتهم، والأهم في ذلك من أن تلوثها آراء (الزنادقة والمناطقة) العرب.

في تلك الحقبة كانت المعادلة مقلوبة، كنا كصاحب كرم خصيب عامر بأشهى وأطيب الثمار، لكن حرم عليه تذوقه، فيما أبيحت تخومه وثغوره لكل خاطب راغب... حاطب.

والغرب يعرف -والمنصفون فيه قلائل- أن الحاضرات العربية الأندلسية والمغربية كانت محجة أبنائه وعلمائه، منها يقبسون الهداية لعالم مظلم، ومن مناهلها يمتحون عصارة العقل العربي لسطحات فكرية جرداء تبيع سندات التمليك في الجنة، ويعرف أيضا -وقلما يعترف- أن الحاضرات المشرقية كانت بؤر النور في التأليف والترجمة.

أجل، كانت هذه وتلك مراكز إشعاع معرفي ينعكس خصبها الفكري على أوربا، فيما يلاقي الفلاسفة العرب في ديارهم النكران والتضييق والملاحقة والموت.

كانت كفاية العربي، عند المتزمتين من (الفقهاء) المسلمين والنصارى، خطيب يمتلك أدوات عصره. كاللحن حينا، والسجع حينا، والتدرج في الصوت، والهيئة مابين الشدة والإنتفاج. وانتفاخ الحلق والأوداج، إلى الهدأة والسكون، وسبل الرموش ودمج الجفون. والوعيد بشر المنون، ثم إلى الصمت بعبوس ونكد، كأن البحر على أشجانه رقد، أو على أوصابه انجمد. أو كأن الخطيب في زعل وحرد، أو كأنه في ترح، أو في طريقه إلى الهلاك، والدين مسرة وفرح.

ومابمثل هذا يرسخ الإيمان، وتطمئن القلوب «التي في الصدور».

وكان الخطيب عامر البنيان، ساحر البيان، لايخلو من سلاطة في اللسان: تراه (من عزة الإيمان) يشتد كالعقبان، تَسخَل البُغاث والسُّخلان، ثم يسترخي كالساهد النعسان، والعامة حينا تروج وتموج، كأنها في سوح يأجوج ومأجوج. وحينا يهدأ النقع. ويخرس الجمع، يخنقه النشيج والدمع، حتى إذا صار الخطيب إلى الغيبوبة، تحول إلى ولي شنيع، مزار رفيع منيع مريع. أجل، بمثل هذا المسلك الراسخ المنقول، سلموا العامة إلى الخبل والذهول، وأحيانا إلى تعطيل الذم والعقول.

لعلنا أوصلنا إلى القارئ من خلال هذه اللوحة المسجوعة صورتين واضحتين: صورةً سلوكية لكل داعية إلى جمود الفكر العربي يخطب العامة من على منابر العبادة. وصورةً نفسية انفعالية لكل عامة مبهورة مسحورة مسلوبة اللب، وقد تعمدناها لهذا المقام لأنها الأوجز الأبلغ الأرسخ. ونحن لانعني بهذه وتلك جذور القدماء «ورواسبهم النفسية» في خلفية اللاشعور الجمعي لأمتنا، أو أننا لانعنيها وحسب، وإنما نريد ماتولد على سَمْتها ونهجها ولادة عصرية معاصرة.

يعتمد نهج الفقهاء المتشددين على مخاطبة العامة بلغة العاطفة الدينية لابلغة العقل. والعقل -في كل مسألة، وفي كل زمان ومكان- هو الأولى بالخطاب، لأنه الأجدر بكشف الحجاب وبلوغ الصواب، والعامة هي القاعدة البشرية لكل أمة، هي الحامل لجميع طاقاتها وإمكاناتها وملكاتها، إنها الرصيد المفتوح الذي تستمد منه إبداعاتها الفكرية والعلمية والفنية، ومن ههنا، من هذه العامة المنبوذة عند بعض الفقهاء. يصدر العباقرة والأبطال «والقديسيون» (تسمية برغسون لكل عبقري يحطم «الأخلاق المغلقة» وينشئ «الأخلاق المتفتحة») لقد عطل أدعياء الفقه الملكات العاقلة في هذه القاعدة البشرية، وأغلقوا رصيدها، فحرموا الأمة من تطور فكرها وفلسفتها الإنتقادية دهرا طويلا.

فمن أجل استمالة العامة. وامتلاك أفئدتها، وقيادتها في أي اتجاه،

كانوا يدربونها على الطاعة، ويشيعون فيها أنها عاجزة عن إدراك المسائل الفقهية، وأنها، بالتالي، تحتاج «إلى التقوى ومحبة الله والغناء فيه وعبادته بالإستسلام» ولاتحتاج إلى البحث في معرفته معرفة عقلية. وكأن العامة لم تكن بحاجة إلى عقل أو إلى عقل يمحص حقائق الدين ويستجلي عطاءات الأسياد المجانية، ليكون الإيمان أوثق، ولتكون الطاعة لمن يستحق. لقد كانوا يرون أن بلوغ اليقين في المسائل الفقهية غير ميسور لغير «أهل المعرفة» أما جمهور المسلمين فيكفيهم القلب، وعليهم، إذن، أن يسدوا منافذ العقل، ويفتحوا نوافذ القلب، وليحاذروا من أن يشرعوا المنافذ والنوافذ على بعضها بعضا، وليحاذروا من أن يدخلوا كواشف العقل إلى رحاب خالقه، لأن هذا سيكون «خطرا عليهم في الدين والدنيا، وخطرا على السلطان، وعلى أولي الأمر».

ولعمري، أو بعمري، إن الأخيرة هي بيت القصيد، لأن أمثال هؤلاء الفقهاء كانوا دائما حلفاء لكل سلطان جائر. إذن، فقد كانت العامة، ومازال، لاستمرار النهج التجهيلي، متهمة بملكاتها العاقلة، علما أن إحصاء عشوائيا بسيطا يبين أن معظم العباقرة إنما انبثقوا من عامة الشعب، أي شعب، فلايكون اتهامهم إياها بالعجز والقصور عن إدراك المسائل الفقهية إلا تعسفا وإستعلاء وبعدا عن الشرع.

ميلاد الفلسفة العربية

لم يكن للعرب قبل الإسلام فلسفة بالمعنى الحقيقي للمصطلح، وقد ظل الأمر كذلك حتى القرن الثالث الهجري، حيث أنجبت الأمة أول فيلسوف عربي «اشتغل بالفلسفة كنظام كلي، وهضم قدرا صالحا من الفلسفة، واستحق أن يلقب فيلسوفا في الإسلام» ذلك الفيلسوف هو الكندي (مختلف بميلاده ووفاته، يرجحون الوفاة بين ٢٥٢-٢٦٠هـ) (فُقِد معظم مؤلفاته، فتأمل دور الفقهاء المتشددين). وفي رأينا أن ذلك الميلاد السعيد للفلسفة العربية ماكان ليتم لولا أن تتوفر له ظروف مواتية، يأتي في

مقدمتها أن فيلسوفنا صرف معظم حياته في القرن الثالث الهجري، وفي زمان ازدهار المعتزلة على الخصوص. حتى أنه عاصر المأمون والمعتصم بالله (محمد بن هارون الرشيد، الخليفة العباسي الثاني عشر) وقد صوب للأخير ترجمة كتاب (أُثُولوجيا) من اليونانية إلى العربية. تضيف إلى ذلك تمكنه من اللغة الإغريقية ممايسر له الإطلاع على الفلسفة والعلوم اليونانية بعامة، والتبحر بالمشكلات الفلسفية على الخصوص. وقد كان لمكتبته المسماة «بالكندية» شهرة ذائعة.

وقد يكون لمنبته الملوكي ولغناه وتقلب أسرته في المناصب المهمة عند الخلفاء العباسيين دور في حصانته من ملاحقة المتشددين له في حياته. لكنهم لاحقوا مؤلفاته فيمابعد.

لهذه الأسباب مجتمعة لم يتمكن (الفقهاء) من خنق أول جنين للفلسفة العربية، حتى إذا تمرد المولود العبقري على المتحجرين، ولم يفتنه المال والجاه عن مباهج الفلسفة ومتع العقل، راح يحارب تزمتهم. ويكشف بالاستدلال المنطقي أنهم هم المبعدون عن الدين والمخالفون للشرع، ويكتب إلى الخلفاء في ذلك بشدة وصراحة فاتحا الطريق لمن جاء بعده من الفلاسفة العرب.

الفلسفة وعلم الكلام

كان علم الكلام سباقا إلى الظهور على الفلسفة العربية، أو أنه كان التمهيد الضروري لميلادها. فعلم الكلام يتناول المسائل المتفرقة التي كان يثيرها الداخلون في الإسلام من ديانات ومذاهب مختلفة. أما الفلسفة فتنظر فيها من خلال نظام كلي، فمن الطبيعي أن ينشأ علم الكلام أولا، لأن المسائل المتفرقة كانت تطرح يوما بيوم. حتى إذا صارت ركاما من المسائل المتباينة على مدى قرنين من الزمان، وتبعا لاختلاف فرقها، كان لابد من ميلاد الفلسفة.

فلقد حطم الإسلام كل الأطر الإجتماعية والإعتقادية المناقضة

لرسالته لافي الفرق والقبائل والبنى الإجتماعية التي صادفها في شبه الجزيرة العربية والديار الشامية وحسب، بل وفي كل الديار والأقوام التي وصلت إليها الفتوحات المتعاقبة. فصار الوعاءَ الذي عليه أن يتسع لأُطرٍ ومعتقدات مخالفة ومختلفة يدرسها ويتفحصها ويرد عليها وعلى حامليها رغم دخولهم الدين الجديد. وكان لبعضها تراث مكتوب منتشر، لكنه قابل بشكل مفتوح للوضع والإضافة والحذف والتزوير تبعا لتغير الأحوال وذم الرجال. فمامن أحد يجهل كم عانى المسلمون والمسيحيون معا -ومازالوا يعانون- من «الإسرائيليات».

في حديثه عن نشوء علم الكلام يقول أحمد أمين:

«إن كثيرا ممن دخلوا الإسلام كانوا من ديانات مختلفة يهودية ونصرانية ومانوية وزرادشتية وبراهمة وصابئة ودهريين، وكانوا قد نشؤوا على تعاليم هذه الديانات، وكان منهم علماء، فلما اطمأنت نفوسهم.. أخذوا يفكرون في تعاليم دينهم القديم... ويثيرون مسائل يلبسونها لباس الإسلام»(١)

- وفي نقلة أخرى يقترب علم الكلام من الفلسفة بصورة أوضح. من حيث تحريض الفكر العربي آنذاك على توليد (أدواتها العقلية) كالجدل والنظر والتفكير والتأمل:

«وماكان يتسنى (للمعتزلة والفرق الأولى الأخرى) الرد على هؤلاء إلا بعد الإطلاع على أقوالهم وأدلتهم. فدفعهم ذلك إلى الإحاطة بالفرق الأجنبية وأقوالها وحججها.. ولاشك أن الجدل يستدعي النظر والتفكير.. والتأمل»(٢)

ثم مالبث علماء الكلام أن شهروا سلاح الفلسفة تحديدا بلا خوف أو استحياء، ولامناص لهم، ولالخصومهم الفقهاء، من ذلك أبدا: يقول أحمد أمين:

«وسبب ثالث (لنشوء علم الكلام) نتج من السبب الثاني، وهو أن

حاجة المتكلمين إلى الفلسفة لوقوفهم أمام خصومهم يجادلونهم بمثل حججهم، اضطرتهم إلى أن يقرؤوا الفلسفة اليونانية. وينتفعوا بالمنطق واللاهوت اليونانيين، فنرى «النَّظّام» يقرأ أرسطوا ويرد عليه، وأبا الهُذَيل العلاف كذلك. ونرى كثيرا من المعتزلة يتكلمون في الطفرة والتوالد والجوهر والعرض والجوهر الفرد، ونحو ذلك من المسائل التي تعد من صميم الفلسفة اليونانية وتدخل في بحوث المتكلمين»(٣)

إذن، كانت تلك فاتحة التفلسف العربي بعامة لا بالمسائل الدينية أو الفقهية وحسب. أو أنها كانت مخاض الفلسفة العربية الإنتقادية التي نتعقبها ونكشف معوقاتها. على أننا لانكتفي بتعليل أحمد أمين لنشوء الفلسفة العربية، فقد ربطها (بالنص الصريح) بعامل الحاجة إلى الرد على الخصوم، ولم يذكر غيره، ونحن نرى أن الفكر العربي كان سيأخذ طريقه إليها سواء أوُجدت تلك الحاجة أم لم توجد، مع إقرارنا بأهميتها وثمة أمر لابد من إيضاحه لماله من خطورة في تقويض رأي للفقهاء المتشددين دعاة التزمت يؤسسون عليه رفضهم القياس العقلي وأخذهم بالقياس الفقهي وحسب، هذا الأمر هو أن الدارسين يعتبرون علماء الكلام كالمتخصصين بمسائل الفقه، وقد رأيت أنهم حتى في (تخصصهم هذا) ماكانوا يقابلون خصومهم بغير الطرائق والمسائل الفلسفية، فإذا عرفت أن علماء الكلام قد بدؤوا بدفع حجج الفرق المخالفة منذ «صدر الإسلام» أدركت أن مخاض الفلسفة العربية النقدية قد بدأ مع ظهور الإسلام، وإن لم يكن بالصورة الواضحة التي راحت تتطور يوما بيوم. مسألة بمسألة.

وهذا يقوض رأي دعاة الجمود والتحجر الذي أشرنا إليه. فهم يبنون رأيهم في رفض القياس العقلي على زعم أنه لم يكن موجودا في صدر الإسلام، وعلى أن مالم يكن موجودا زمان المسلمين الأوائل لايجوز الأخذ به، لأنه بدعة. وقد فنَّد ابن رشد هذا المزعم، فرد الحجة بالحجة المماثلة معتمدا طريقتهم وحجتهم ولغتهم.

ويؤكد أحمد أمين تداخل المسائل الكلامية مع المسائل الفلسفية «فمن قال: إن علم الكلام علم إسلامي بحت لم يتأثر أيّ أثر بفلسفة اليونان وسائر الأديان فقد أخطأ.. ومن قال: إنه وليد الفلسفة اليونانية وحدها فقد أخطأ.. فالحق أنه مزيج منهما» (٤). وقد جاء في أسباب تسميته بعلم الكلام «أنه العلم الذي يبحث في العقائد بالأدلة العقلية... ولأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف في العصور الأولى مسألةُ كلام الله وخلق القرآن، فسمي العلم كله بأهم مسألة فيه.. أو لأنهم تكلموا حيث كان السلف يسكت عما تكلموا فيه، أو لأنه في طرق استدلاله على أصول الدين أشبهُ بالمنطق في تبيينه مسالكَ الحجة في الفلسفة» (٥).

«فالأدلة العقلية» «وطرق الاستدلال» «والمنطق» «ومسالك الحجة في الفلسفة» -وهي جميعا مصطلحات تراثية كان الأسلاف يتداولونها لهذا المقام- تبرهن بشكل قاطع على تفلسف العرب منذ «العصور الأولى» وعلى أن ذلك التفلسف لم يكن بدعة كما توهم المتشددون، وأكثر من ذلك فإن تلك الأدلة العقلية الإستدلالية المنطقية الفلسفية كانت تتناول أهم مسائل «القياس الفقهي» وأعلاها. وهي مسألة كلام الله وخلق القرآن. مما يؤكد أن القياسين العقلي والفقهي كانا توأمين متلازمين في الحضور وفي المسائل التي طرحها رجال ذلك الزمان. وعليه فنحن نحكم -بعد هذا الإستدلال- بأن مخاض الفلسفة العربية قد بدأ مع بداية الإسلام. وبأن الفكر العربي الإنتقادي لم يكن لينتظر الفرج على يد الفلسفة اليونانية حتى يبدأ تفتحه، ويباشر انطلاقه في التأمل والتدبر بمسائل الأرض والسماء. هذا مع اعترافنا بالدور المهم الذي لعبته الفلسفة اليونانية في تحريض الفكر العربي وحفزه على الإبداع، فنحن من أوائل الأمم التي تعترف بفضل الشعوب الأخرى. وتؤمن بعائدية الخير الأخلاقي والتطور المعرفي والنفع المادي من تواصل الحضارات والثقافات الأصيلة وتلاقحها.

استدلالات قرآنية

إذن، فقد شك الفقهاء المتشددون بصلاحية القياس العقلي، وبالتالي بصلاحية العقل العربي للوصول إلى معرفة الله والمسائل الفقهية الأخرى، ليجعلوا القلب وحده طريقا لهذه المعرفة، وبعضهم لم يكن مبرأً من أغراض أخرى مرجعها التحالف مع أولي الأمر.

فلماذا أقاموا من العقل والقلب مملكتين منغلقتين دون بعضهما بعضا في نفس مؤمنة واحدة؟ وهل مثل هذه الإزدواجية حقيقية وواقعية في نفس المؤمن؟ ومتى كان العقل يناقض القلب في توجهه إلى «محبة الله والفناء فيه»؟ بل متى كان العقل يناقض القلب في إقدامه على أي أمر طيب؟ مثل هذه الإزدواجية لاتوجد في فطرة سليمة. أما غير السليمة فقل بها وبأغراضها ماتشاء والواقع أنه لايناقض «الإيمان بالقلب» غير عقل مضطرب، ولايرفض «الإيمان بالعقل» غير قلب تتعاوره الوساوس.

وعليه فإن هداية العامة وترشيدها بطريق العقل إلى معرفة الله. ومعرفة عقيدتها فقهاً وعبادة، واجب وفريضة على «أهل المعرفة» امتثالا لقوله تعالى:

١ - «أفمن كان على بينة من ربه كمن زيّن له سوء عمله واتّبعُوا أهواءهم -محمد١٤». فالمقابلة واضحة بين البينة من جهة (ومرجعيتُها الطبيعة العاقلة) والأهواء من جهة ثانية (ومرجعيتُها الحياة الانفعالية بعامة وموضعها القلب) وسواء أكانت الأهواء رفيعة أو وضيعة فإن لها مآلا واحدا هو القلب، وعلم النفس اليوم ينظر إليها جميعا - الرفيعة والوضيعة- على أنها في مرتبة أدنى من ملكات الطبيعة العاقلة.

وعلى العموم فإن الطبيعة العاقلة السوية لاتتعارض أبدا مع العواطف والأهواء النبيلة.

٢-وكذلك قوله تعالى: «وماكنا معذّبين حتى نبعث رسولا -الإسراء-١٥». أجل، وماأرسل الله الرسل والأنبياء إلا ليخاطبوا عباده

بلغة العقل، حتى يكونوا قادرين على التمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، وأولُ الحق وأعلاه معرفته تعالى معرفة عقلية راسخة بمقدار مايتيسر للمرء من نقاوة البصيرة وصفاء السريرة، وهل تظنون أن الفقهاء المتشددين يجهلون أن هذا الخطاب الإلهي موجه لكل البشر لا «لأهل المعرفة» وحسب؟

٣-وقوله تعالى: «ليهلَك من هلَكَ عن بينة ويحيي من حيَّ عن بينة -الأنفال- ٤٢». فالبينة، والبيان، والإمام المبين. والكتاب المبين، والهدى والنور.. الخ هذا البحر من الخطاب الإلهي هو كله من متعلقات الطبيعة العاقلة، وهو موجه إلى الإنسان بعامة لاإلى خاصة محددة كأهل المعرفة والفقهاء والعلماء، وهؤلاء يعلمون ولايجهلون - أن الله لم يحرم العامة من نعمة التفكير إذ ألبسهم ثوب البشر. بل أوجب عليهم استخدام العقل في جميع المسائل الفقهية أيضا. فمن حق العامة. مثلما هو من واجبها، أن تبحث وتفكر وتتفقه. ومن غير الحق حرمانها من ذلك بدعوى الشك في قدراتها العاقلة.

٤- وقال تعالى: «ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فمابلغت رسالته- المائدة٦٧» فهل يكون البلاغ والتبليغ بغير خطاب عقلي؟ أيكلف الله رسوله بمهمة مستحيلة؟ لو كان تعالى يحكم بعجز البشر -وجلهم عامة- عن فهم خطابه لما كلفهم وكلف الأنبياء والرسل بهذه الرسالة (الصعبة أو المستحيلة) كما يزعم المتزمتون.

هذا، وفي الآية تنبيه موجه إلى محمد صلى الله عليه وسلم. فأين موضع هؤلاء من الأنبياء؟ وأين هم من صاحب رسالة الإسلام؟! إن أمرهم -قديما وحديثا- لعجيب حقا.

لابد من المثال

حتى لايظل الكلام عن الفقهاء المتشددين مرسلا لابد من تقديم مثال: إنه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (١٠٥٩-١١١١)، وما اخترناه إلا لأنه

كان الفقيه الأكثر تشددا وتعسيرا على الفكر العربي. (وهذا جانب من وظيفة البحث) ولأن تأثيره مايزال ماثلاً في أيامنا، وإلا فنحن لانهوى التعرض للفقهاء.

وعلى العموم، فقد اخترنا مصدرا أو مرجعا لااعتراض عليه ولاطعن فيه، وليس مثله في العرب من هو جدير بهذا المقام من البحث. إنه الفيلسوف العربي السوري الدمشقي الدكتور عادل العوا، من تخرج عليه أجيال وأجيال من المفكرين العرب المعاصرين. وقد أهملنا جميع المصادر الأخرى حتى مؤلفات الغزالي. فلنترك الكلام للدكتور عادل:

«أطلق الغزالي بخورا ساحرا يدعو إلى إيمان خال من التعقيد، مجرد من التخمينات والافتراضات، إيمان استسلام وعبادة وفناء في الله ومحبته (مقدمات لهجر العقل) وقد استحوذ تأثيره الساحر على عقول الطبقات المسلمة كافة. ولاسيما الوسطى، ولايزال هذا التأثير مستمرا إلى اليوم يرتدي حللا مختلفة، وكأنه يلازم «الرأي العام المسلم»، ويود أن يلجمه عن إرهاف فكره» (٦) انتهى.

تلاحظ أن هذا الاتجاه من منهجه مكرس للعامة من أجل إلجامها وتعطيل وعيها والسيطرة عليها، وبذلك يتحول المجتمع العربي المسلم إلى مجتمع طائعين للحكام أيا كانوا، مريدين للفقهاء أيا كانوا، ومن هنا كان تعطيل الفلسفة العربية الإنتقادية.

والواقع أن ارتكاسات فقه (الإمام) كانت واقعة على العرب بكل إرثها الثقيل، وأن الباحثين مايزالون يخشون التعرض له والتحرش به، نعني أن (مفعوله) السحري مايزال ساريا في (شرايين وأوردة) الفكر العربي مكرِّساً. عطالته وجموده حتى في الشَّفَق الأخير من القرن العشرين. (التوثيق قادم).

وحتى كان الإسلام يلجم المسلمين عن التفكير بالله خالقهم ورازقهم، أو يسمي مثل هذا التفكير تعقيدا؟ ومتى كان يمنع التخمين

والإفتراض والإستدلال وهي ملكات عقلية هبة الله لعباده؟ متى كان يدعو المسلمين إلى الإيمان بالإستسلام بعيدا عن الفهم والوعي والنظر؟

ونحن نكتفي بدفع هذه الدعوات التجهيلية المعطلة للفكر العربي بآيتين محكمتين نطقا وفصحا:

«قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون -الأنعام-٥٠»

«أم هل تستوي الظلمات والنور -الرعد-١٥».

هل أراد الإمام أن تكون محبة الله والفناء فيه حكرا على العامة؟ ألا يوصل العقل -قياسا وفقها واستدلالا، وهي الملكات التي حرمها على العامة- إلى اليقين الراسخ والإيمان الأعمق، ومن ثم إلى محبة الله والفناء فيه؟ أم أن الجهل والجمود الفكري هو المؤهل لذلك؟ نحن لم نر الإلحاد ينمو ويجفو إلا فيمن يملكون ربع الفكر وعشر الفلسفة، كما لم نر كروم الشعر يابسة عابسة إلا فيمن حظُّهم ربُّع الطبع وسبُّع الفطرة وصفر الشاعرية. إنه لمن العجب العجاب حقا أن تؤدي رجاحة عقل ابن رشد. وقوة حجته، وثبات يقينه، وتطويعهُ أرسطوا لصالح الإسلام، إلى تكفيره واتهامه بالزندقة، فيمايؤدي شكل الغزالي وتردده واعتزاله واضطرابه النفسي (بل مرضيه النفسي، وهذا من لسانه) إلى أن يصير حجة الإسلام وإمام المسلمين.

وهذا يدل بشكل قاطع على سطوة الفقهاء المتشددين في كل زمان على الحكام والمفكرين، وعلى قدرتهم الخارقة في تغييب الفلاسفة عن الساحة الثقافية العربية.

وإلى الدكتور عادل: «كان الغزالي يحرص على إرضاء نزعته العنيفة إلى الزعامة الروحية، وكأن ارستقراطيته العميقة، وهي ارستقراطية فكر فلسفي عميق، لاترى مناصا من الإستعلاء الفكري على الجمهور، لذا كان يحكم على عامة المسلمين بالجمود عند مستوى أدنى من الثقافة والفكر. ويرى أن في تجاوز هذا المستوى خطرا عليهم في الدين والدنيا. وخطرا على السلطان وأولي الأمر» (٧)

لايخامرنا شك في أن حصر التدين والإيمان بالطاعة والاستسلام مبدأ اصطنعه «السلاطين وأولو الأمر» وكلفوا به فقهاءهم، لتكون العامة أكثر استسلاما لهم وأسلس انقيادا، وعندئذ يكون أمثال هؤلاء الفقهاء مقربين إلى السلطان، بل ومسيطرين عليه، وماكانت محنة الفيلسوف العربي الكبير ابن رشد إلا من نتائج مثل هذا التحالف المغلف بالدين والإيمان والتقوى. وقد امتدت رواسبه وعوامله مغربا ومشرقا وإلى زمان ابن رشد والأزمنة التالية.

الازدواجية في منهج المتشددين

لقد سمح الفقهاء المتشددون لأنفسهم بدراسة الفلسفة، وأجازوا لعقولهم، وحسب، أن تخاطب العلماء والفقهاء بلسان العقل، لكنهم خاطبوا العامة بلسان القلب مقيمين بينهما عازلية مطبقة، من أجل جهل مطبق، يبقيهم أسياد الساحة العربية. ويبقي الجماهير بأيديهم وأيدي السلاطين وأولي الأمر. فإلى الدكتور عادل:

«لذا نلمس ازدواج فلسفة الغزالي بين قطب التعمق الفلسفي (للخاصة) وقطب التمويه القاصد الواعي الذي هو أشبه ببخور الساحر يُنعش بأريجه لكنه يُعشي بظلامه وضبابه» (٨). أجل بمثل هذا الاستعلاء. والإرهاب الفكري، وبمثل هذه الازدواجية من تفقيه الخاصة، وتجهيل العامة، والتمويه عليها، تجهيلا وتمويها واعيا قاصدا، قضى الفقهاء المتشددون على الفلسفة العربية والفكر العربي، وأسهمت آثارهم في تخلف الأمة العربية. «فقد كان نجاح الغزالي طعنة نجلاء قضت على ازدهار الفلسفة العقلية والانتقادية في مشرق البلاد العربية والإسلامية أولا، ثم امتد سلطانها في عصور الانحطاط إلى كل مكان، وجمد الإبداع الفلسفي في المشرق والمغرب معا، حتى أذنت شمس النهضة الحديثة بالبزوغ» (٩). ومانراها تشرق إلا حيية حذرة، وإلا، فاسألوا الرقابة في كليات الشريعة عن الدوريات الممنوعة والمردوعة والمزوعة، وعن البحوث والمقالات المصفوعة.

لم ينفرد الغزالي بازدواجية المنهج المتشدد، فقد كانوا جميعا بارعين محنكين في مخاطبة العامة والعلماء معا لتطويعهم جميعا في خدمة السلطان وأولي الأمر، أو لتثويرهم، وقد بلغ بعضهم في حنكته وبراعته حدا جعلهم يسيرون بهذا المنهج المزدوج في اتجاهين متوازيين تماما لايفتئت أحدهما على حدود الآخر، وكأن الخطيب الواحد يتوجه إلى عالمين مختلفين، أو كأن أمة واحدة يخطبها ويفقهها إمامان مختلفان.

-كان الاتجاه الأول فلسفيا صوفيا، وبعضهم درس الفلسفة وعلق بها، ثم سبها ولعن الفلاسفة، وقد كرسوا هذا الاتجاه للخاصة، وماالخاصة عندهم غير الحكام والأتباع.

-أما الاتجاه الثاني فكان صوفيا وَجْديا خالصا، يغلّف عقول العامة بدعوات مفتوحة إلى محبة الله وعبادته والإيمان باستسلام، وهي دعوات لايحتاجها المؤمنون، بل يحتاجها من يستثمرها كي يصير مرادا، وتصير له العامة مريدين.

لقد أجاز بعضهم لنفسه أن يشك ويتردد ويعتزل ويتصوف، فيما حرم عامة المسلمين حتى من السؤال في المسائل الفقهية، فلو عدت إلى كتاب الغزالي -مثلا- «إلجام العوام عن علم الكلام» لوجدته يستهين بجمهور المسلمين، ويستعلي عليهم، ويترفع عن تعريفهم بالله وعن إرشادهم وتعليمهم المسائل الفقهية: وإليكم من الدكتور عادل:

«إن الغزالي يضع العامة في منزلة الصبيان، ويحرمهم حق السؤال، يوجب عليهم التسليم لأهل المعرفة، من أمثاله بالطبع، دونما استثناء» (١٠

وماهكذا يتعامل العارف بالله مع جمهور المسلمين. إن الإسلام ينبذ الاستعلاء والاستكبار على العامة، ويدعو -بدلا من ذلك- إلى الأخذ بيدها بتسامح ولين وصبر لنقلها من الظلمات إلى النور، من الجهل إلى المعرفة بعامة، ومعرفة الله بالمقام الأول.

- وهاكم مايقوله الإمام بلسانه: «من أطعم الصبي الضعيف اللحم والخبز، أومكنه من تناوله. فقد أهلكه، وكذلك العوام إذا طلبوا بالسؤال هذه المعاني يجب زجرهم وضربهم بالدرة» (١١). فهل من الحلم والعلم النظر إلى عامة المسلمين على أنها عقيم من بذرة عارف عبقري آخر إضافة الى أبي حامد يكون من بعده حجة الإسلام وإمام المسلمين؟ أو يكون -على أقل- شيخا آخر للإسلام، يمهد لإشراقة ابن تيمية وميلاده السعيد؟ أو أن الإمام كان واثقا من أنه وحده كفيل بتخلف الفكر العربي؟

هل من الحلم والعلم تسفيه حلوم العامة والحكم بضرب ظهورها إذا ماراحت تطلب المعرفة والعلم، أي علم، وأية معرفة؟.

العلم والتعليم خطاب إلهي

الإسلام لايغلق العقول، ولايختم على الأفئدة، بل يفرض العلم والمعرفة في كل ميدان وفي كل اتجاه، ميادين المسائل السماوية والأرضية، الاتجاهات البشرية كافة. فمابالكم بفرضهما، علما وتعليما، ومعرفة وتعريفا، على العرب المسلمين مَنْ بدأت الرسالة بهم، وأنزلت بلغتهم؟!

قال تعالى: «وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مماعرفوا من الحق. المائدة-٨٣». وقد أنزلت في تحبيذ إيمان النصارى، وهو -كما ترى بالنص المحكم غير المتشابه- إيمان مقرون بالمعرفة، أو قوامه المعرفة، أو أنه ماتم إلابها.

فهل يكون النصارى -وهم على معتقد آخر- مكلفين بمعرفة الله، أو بما أنزل على رسول الإسلام، ولايكون المسلمون مكلفين بمعرفة ماأنزل على رسولهم؟!

حقا، إن موقف المتشددين من جمهور المسلمين ليدعو إلى العجب والاستغراب. علما أن الحق الذي نصت عليه الآية هو الله، أو هو أرفع المسائل الفقهية التي حرَّم المتشددون على جمهور المسلمين البحث فيها. بل حتى السؤال فيها.

ولو تأملت في الآية لوجدت فيها دعوة جلية إلى المعرفة، لاإلى إغلاق العقول وفتح القلوب وحسب، وإلى التوحيد بين القلب والعقل. في النفس المؤمنة المطمئنة غير المضطربة. [حَدّاً المعادلة النفسية واضحان: فيض الدمع (لغة القلب) ومعرفة الحق (لغة العقل)].

قد تبدو الآية نصا عاديا، لكن المدقق أوالمتخصص يكتشف فيها قانونا في علم النفس، يحدد مراحل وآلية حدوث المعرفة: فقد قدم الباري عز وجل السمع على المعرفة باعتباره طريقا إلى الإدراك ومن ثم إلى المعرفة، فالسمع مرحلة فيزيائية تنتقل منها الكيفيات إلى الدماغ «المرحلة الفيزيولوجية» وفيه يتم الإدراك «المرحلة العقلية»، فالوساطة في المرحلة الأولى هي النهايات العصبية، وفي الأخرين الأعصاب الموردة والمصدرة والجملة العصبية بعامة، هذا باختصار شديد، ومن الإدراك ينطلق العقل في جميع عملياته وصولا إلى المعرفة، وهي جميعا هبة الله إلى الإنسان وحده، الله يمنحها ويكلفها، والفقهاء المتشددون يحجرون عليها، ويعطلون التكليف، بل ويضربون مالكيها على ظهورهم بالدرة أداة السلاطين، من أجل أن يتقبلوا الجلد بالسياط في أزمنة لاحقة.

-إذن يجب تحريم السؤال على العامة في المسائل الفقهية وجوب تحريم اللحم على الصبي الضعيف، وتشبيه المسائل الفقهية باللحم واضح في معادلة التحريم هذه، وقد أعدناها لنَقْنص لكم هذه اللقطة التطابقية بين معادلة الإمام ومعادلة أخرى لابن تيمية، ولاتنسوا أنه كان شيخ الإسلام. وأن الفاصل الزمني بينهما قرنان وربع القرن، وهذا يؤكد أن أثر المتشددين مافتئ ينتقل عبر القرون، وأنهم كانوا ومازالوا يعسِّرون على الفكر العربي. يقول ابن تيمية واصفا كلام أرسطو: «إنه لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لاسهل فيرتقى ولاسمين فيقلى» (١٢)

سامح الله فقهاء أمتنا، فهل باللحم والشحم نؤرِّخ الأزمان والأذهان، ونمسخ فلسفة اليونان؟ هل بمثل هذه التشبيهات الحسية الفجة

تقاس المسائل الفقهية والفلسفية؟ وهل بها نرد وندرس ونتفاهم مع أفكار الأمم الأخرى؟

مانزال في حديث المعرفة -قياسا عقليا وقياسا فقهيا معا- كفرض أوجبه الله على عباده، وعطله المتشددون في جمهور المسلمين:

قال تعالى: «سيريكم آياته فتعرفونها -النحل-٩٣».

إنها على نهج الآية السابقة، والرؤية هنا هي طريق الإدراك المؤدي إلى معرفة الله وقدرته المطلقة (آياته). وهي دعوة موجهة إلى كافة المسلمين. بل إلى كافة البشر، لا إلى الفقهاء وأهل المعرفة وحسب.

وقال تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون﴾ -البقرة-١٥١

-تأمل في الآية مرتين: الأولى في كلمة «منكم»، أجل في هذين الجار والمجرور وعلامة الذكور، تعرف مكانتها البلاغية لهذا المقام، وتدرك مايبتغيه الخطاب الإلهي منها. فإن تفعل تجدها دالة على التخصيص بالتكليف، أي على تكليف العارف العالم من أبناء الأمة تحديدا بتعريف وتعليم أمته تحديدا.

ومن تحصيل الحاصل أن يتم بعد ذلك تواصل المعارف والعلوم بين الأمم، عباد الله أجمعين. إذن فالفقهاء المتشددون -وبماهم فقهاء، والفقه مرتبة متقدمة في العلم -مكلفون أيضا بتعليم أمتهم تعليما مفتوحا على جميع المعارف الأرضية والسماوية، فالخطاب الإلهي لايحدد مسائل خاصة أو شرائح بشرية خاصة.

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم مكلفا من ربه بتعليم المسلمين لتزكية قلوبهم وأرواحهم بمعرفة الله (وهذا أيضا تخصيص بالمسألة الفقهية الأرفع) والخروج بهم من عالم الظلمات إلى عالم النور. فكيف يبيح المتشددون لأنفسهم الامتناع عن هذا الواجب الديني. بل وأن يقابلوه بزجر المسلمين وجلدهم وإدماء ظهورهم؟

فممن كان المتشددون مكلفين بتجهيل العامة؟ من رغبة أولي الأمر؟ «من رغبة عنيفة بالزعامة الروحية»؟ أم بهما معا؟

-عد ثانية إلى الآية تجد الخطاب الإلهي يؤكد على لفظة «العلم» ثلاث مرات فيها وحدها. ومن أصول البلاغة (لامن التكرار غير العامد كما قد يوهم الاطلاع المسطح) أن هذا التأكيد يفيد نبذ الجهل وتحريمه لاعتباره مناقضا للتكليف الإلهي، فالإرسال والتلاوة والتعليم تكليف إلهي دائم مفتوح.

إن ضرب الحصار على عقول جمهور المسلمين يناقض إرادة الله بتعليمهم وتفقيههم في معرفة ربهم. وفي شؤون دينهم ودنياهم معا، ولولا مثل هذا الحصار المزمن لماوجدت المسلم يقف عن الإجابة في أية مسألة فقهية حتى وإن كانت متواضعة، أو يرجئها حتى يسأل «أهل المعرفة».

-مرة أخرى: إن الحجر على عقول المسلمين يتنافى مع ماأوجبه الله على الفقهاء والعلماء من نشر الرسالة السماوية بين البشر، فكيف يتمكن المسلمون من مخاطبة المذاهب الأخرى إذا حُجر على عقولهم؟ وهل يكفي الفقهاء المتشددون وحدهم لهذا الأمر؟

-ومما يبعث الأمل بتنامي الفكر العربي الانتقادي نحو فلسفة عربية انتقادية متطورة أن التيار المتحرر لم ينقطع عبر القرون، وهاهم النابهون اليوم يأبون الانصياع لدعوات المتشددين، فيرفضون الحجر على عقولهم، ويُعملون الفكر في كل مايعرض لهم من المسائل، وهم واثقون من أنهم يحققون بذلك إرادة الله لاإرادة المتحجرين.

ولانعني بالنابهين أصحاب التحصيل العلمي تحديدا، بل من هم على فطرة سليمة عموماً. فبين المراتب «التحصيلية التجميعية النقلية» من هم أكثر تزمتا وانغلاقا من الفقهاء المتشددين، بل ومن هم أكثر حماسة للأخذ بالخرافات والأساطير والإسرائيليات، خاصة إذا كانت منقولة من تراث المتشددين. وهم بسبب انغلاقهم ومحدوديتهم لايقدرون على فك الرموز.

• تفكيك هذه من تلك، وبين العامة من تعصمهم فطرتهم من التزمت.

إن الاستعلاء على العامة والتعامل معها بغلظة وفظاظة مسلك مناقض لإرادة الله وللسيرة النبوية، قال تعالى: «وكان بالمؤمنين رحيما -الأحزاب ٤٣» وقال أيضا:

«فبما رحمة من الله لنتَ لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك «آل عمران١٥٩». وما عُرف القساة الغلاظ المنفرون في المسائل الدينية والحياتية معا إلا في صفوف المتزمتين. ومن الغريب ادعاؤهم أن مبعث شدتهم واستعلائهم هو عزة الإيمان بالإسلام، وقد رأيت أن الخطاب الإلهي يحرم التشدد والاستكبار والغلظة، فلايكون زعمهم إلا نقيض الشرع الإلهي.

-مرة أخرى نقول: إن ضرب ظهور المسلمين بالدرة -لقاء حتى السؤال في الأمور الفقهية- ماهو إلا مقدمة لضربهم بالسياط، ولتطويعهم على احتمالها إذا ماراجعوا يسائلون أولي الأمر في شؤون حياتهم. نعني نمطا من أولي الأمر، يسعدهم جهل الرعية وبعدها عن الفكر العلمي الانتقادي «والفلسفة العربية الانتقادية». فالعقل وحده خصيم الظلم والظلمات.

الغزالي فرصةُ فيلسوف ضائعة

نحن لن نتشدد على الإمام، ولم نتشدّد من قبل، تشدُّدَه علينا من حيث أنا من عامة العرب والمسلمين، إلا أننا نعترض على تسفيهه الفلسفة والفلاسفة والقياس العقلي، وعلى ازدواجيته في مخاطبة الأمة (والخطاب الإلهي يعمم)، كما نستنكر استعلاءه على جمهور المسلمين حتى ضرب ظهورهم أو أقفائهم لافرق. وقد رأيناها جميعا سلوكات تنافي الشرع وتعطله، وتَحْجِل الفكر العربي عن سيره وتطوره العلمي المتحرر، الأمر الذي أدى إلى حرمان الأمة العربية من ظهور الفلاسفة فيها بالمعنى الشهير للمصطلح قرونا عديدة، حتى أن الفلسفة بهذا المعنى لم تعمر في دنيا العرب مغربا ومشرقا أكثر من ثلاثة قرون، فيما رزقنا، ومازال نرزق كل يوم، بفعل تراثه وترا [illegible] بلاد فقيه شديد جديد. لقد كان الرجل حقا عظا

العقل والملكات. وكان ميسورا له أن يصبح أعظم فلاسفة العرب والمسلمين. ونحن نستغرب، بالأصل، كيف انضاف ذلك الفقيه العبقري إلى تيار المتشددين، وكيف أسس ومتَّن تيار الجمود لمن جاء بعده: فلقد بدأ السير على طريق الفلاسفة -نعني به الشك المنهجي- ثم راح يكفرهم ويلعن الفلسفة، زاعما أنه تخلى عنهم، مستخدما في الوقت نفسه طرائقهم في التفلسف والقياس العقلي.

لقد بدأ الرجل فيلسوفا قبل أن يصبح حجة الإسلام وإمام المسلمين «وكانت تجربته الفلسفية تجربة غنية معقدة حية تتسم بالذكاء في كل مجرى ومنعطف... لكنه يأبى أن يتيح للناس، عامة الناس، تجربة كتجربته، ولذا يحكم عليهم حكما مبرما بالجمود على مستوى أدنى من الثقافة والفكر» (١٣) ثم ارتد عن الفلسفة رافضا أن يكون في عائلتها، واختار التصوف ليكون واحدا من آبائه وأعلامه.

ويبدو لك هذا الفقيه المتشدد عاشقا للفلسفة. وإن يكن على طريقته، فهو لم يهجرها أبدا، وإن سفهها وكفر رجالها، فقد «حارب المتكلمين بلغة الفلاسفة (أي بمفرداتهم ومقدماتهم) لكنه لم يستطع محاربة الفلسفة إلا بالفلسفة (أي بمنهجها العام وقياساتها العقلية) فشرح مقاصد الفلاسفة أولا (وضعها عنوانا لكتاب) وكأنه أحدهم، ثم عمد إلى الرد عليهم، ووضع كتابه «تهافت الفلاسفة» لتكفيرهم في أمور، والاكتفاء باتهامهم في دينهم في أمور أخرى» (١٤)

-والواقع أن الإمام قد مر بحالات نفسية متعددة متنقلا بين الشك والارتداد والاعتزال والتصوف، حتى رسى آخر الأمر على وضع نفسي ختم به حياته، أو على حالتين نفسيتين لاحال واحدة هما الفقه والتصوف، حيث اعتمد في الأولى على «القياس الفقهي» الذي هو -ولامناص من ذلك- «قياس عقلي» ومن هنا ظل فيلسوفا، واعتمد في الثانية على طريقة الوَجْد الصوفي، فسيطر في الأولى على الفقهاء. أما الثانية

فكانت طريقه ووسيلته إلى امتلاك أفئدة العامة -والعصر عصر انحطاط- لاسيما بعد أن ذاع صيته. وتنقل في الديار الإسلامية العديدة مدرسا في «نظامياتها» وخطيبا في جوامعها، ولعله سيطر على الفقهاء وعلى أولي الأمر معا بسبب وضعه العامة في قبضة يده، إذ كان قادرا على تطويعها قدرته على تثويرها.

الطبع البشري ونسبية الإيمان

يبرر لنا الإطالة في محطة الإمام أكثر من غيره أنه لم يكن فردا، بل كان أمة، كان نهجا لايُقاوَم من التجهيل والتعسير على الفكر العربي مؤسِّسا على «الإيمان بالله والفناء في محبته» والاستسلام لأهل المعرفة، ولو نسبه المتشددون لله.

فمع أن الرجل لم يعمر طويلا. فقد عاش نيفا وخمسين سنة، إلا أن تأثيره على الفلسفة العربية لايساويه في سلبيته تأثير فقيه آخر. وقد متح منه تكفير الفلسفة والفلاسفة كل من جاء بعده على هذا النهج وعلى مدى قرون عديدة. بل إن تأثيره مايزال ماثلا حتى اليوم لافي المؤسسات المشتغلة، والمنشغلة، بالشؤون الدينية وحسب، بل وفي الحياة اليومية لعامة المسلمين. وفي المؤسسات الثقافية المعاصرة، والفرق بين الأمس واليوم أن طيفه المتشددي كان في القديم عاما، أي منسحبا على الجميع، وكان طاغيا، بصارعَ لكنه لايغلَب، وهذا راجع لعبقريته في الخطاب المزدوج، الفقه والتصوف، ولاستخدامه طرائق الفلسفة ذاتها، وكذلك لأن العصر عصر انحطاط أما اليوم فطيفه محصور في أدمغة أفراد وحسب وموزعين هنا وهناك. ينعمون بدفء الماضي. فلايرونه بَرْدَاً أوبهتاً أو نصلاً، ويهربون من دفء شمس الفكر المعاصر. فلايرونه -كله- إلا بدعة وضلالة. وكم كانوا سيحسنون لو لفحوا الدفء بالدفء. ويشغلنا منهم (المثقفون) على الخصوص. فهم مؤثرون في الحياة العامة رغم فرديتهم وتوزعهم، لأنهم يخطبون ود العامة. ويخطبون بالمقام الأول ود النافذين، والحاجة أم الاختراع.

ولايغرينا القناع الديني الذي يقبع خلفه المتشددون المعاصرون ويحاربون من ورائه تحرر الفكر العربي، والعرب أمة متدينة بهم وبدونهم، ثم إن التدين مسألة نسبية، كان ومايزل، ونعني بها هنا نسبية الكم لانسبية الكيف، نسبية العدد والتوزع بين الشرائح والبنى الاجتماعية من فلاسفة وغيرهم، ولانعني بها الحكم على الكيف، أو على أن هذه الشريحة مؤمنة، أو تامة الإيمان، وتلك غير مؤمنة، أو على إيمان ناقص. نحن لانعني بالنسبية هنا مسألة «المنزلة بين المنزلتين» تلك التي شغلت المعتزلة وعلماء الكلام والفقهاء دهرا طويلا، فهذه لاتعنينا ولاتشغلنا، إن مايشغلنا هو الدفاع عن الفلسفة. لأننا بذلك ندافع عن تحرر الفكر العربي من رواسب التخلف والجمود. ويشغلنا على الخصوص تحرير فكر الناشئة. لأن الغصون إذا قوّمتها اعتدلت، وليست تلين إذا قومتها حطبا. أو خشبا، لأفرق -(بيت مشهور).

لماذا أثرنا مسألة المنزلة بين المنزلتين؟ إليكم من الدكتور عادل العوا:

كان الإمام الغزالي «ينظر إلى فساد الفلسفة من زاوية عدم استمساك الفلاسفة بشعائر الدين، ووظائف الصلوات (سماها هكذا) واستهانتهم بتعبدات الشرع وحدوده» (١٥)

ولكن، ألم يكن في الناس -من غير الفلاسفة من يهمل ويستهين ولايستمسك؟ نعني أنه إذا وجد في الفلاسفة من يهمل ويتسيب فليس هذا لأنهم فلاسفة، بل لأنهم بشر، وعندئذ تكون أسباب الإهمال والتسيب كتلك التي في البشر الآخرين (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا. النساء٢٧). وعلى العكس من ذلك، فنحن نرى أن التعمق في الفلسفة يؤدي إلى الإيمان الراسخ وإلى التمسك بالفروض والعبادات.

وعلى العموم، مَازلنا نعني أن تأدية الفروض والعبادة مسألة نسبية في كل زمان ومكان ولايجوز أن يكون الطعن بالأشخاص طريقا إلى الطعن بالفلسفة. فضلا عن أن مسألة التمسك بالشعائر الدينية وتأدية الفروض والعبادات وظيفة يوكل بها (المطوّعون) لاالفلاسفة ولاالفقهاء.

الصراع بين الفلاسفة والفقهاء

أسقط الفقهاء المتشددون الفكر العربي في هوة سحيقة مظلمة، حتى صارت الفلسفة سبة في أمتنا، بينما كانت تنمو وتتطور في كل أنحاء أوربا على أيدي الفلاسفة العرب. نعني أنها كانت غريبة في ديارها، وصاحبة المزار والديار في غربتها، فكان على الفلاسفة، عباقرة الأمة وأفذاذها، ومعهم الكتاب المتحررون المستنيرون في كل جنس ثقافي، أن يقاوموا رموز التخلف والجمود والإنغلاق على الذات دون ثقافات وعلوم الأمم الأخرى، وخاصة منها اليونانية. وكان صراعهم مريراً فماسلم منهم فيلسوف أو كاتب حر مستنير، فلو عدت إلى ترجماتهم الحياتية والفكرية لما وجدت واحداً منهم لم تطله أذية الفقهاء المتشددين على أيدي حلفائهم من أولي الأمر، كان فيهم من قتل، ومن مات بالسم أو السجن، ومن أمضى حياته ملاحقاً يتنقل في ديار العرب الرحيبة، ورغم ذلك استمروا في صراعهم مع المتشددين يكتبون ويرسلون إلى الأمصار، ويهدون إلى المستنيرين من أولي الأمر، وتصادر مؤلفاتهم فتمزق وتحرق في سوح المدن، ثم يعودون إلى الكتابة هم وتلامذتهم من جديد، أجل، ولولا مثل هذا الإصرار على تحرير فكر الأمة من الجهل والجمود لمابقي لنا من تراثهم الفلسفي أثر واحد، اللهم، إلا ماتجود به المحفوظات الأوربية، وبالمناسبة، فإن معظم ماتنشره المؤسسات الغربية هو من مقتنيات التلاميذ الأوربيين الذين درسوا على أيدي الفلاسفة والعلماء العرب، منها ماظل في المكتبات الخاصة لأسر تهتم بالثقافة العربية، ومنها ماأهدي إلى الجامعات الأوربية، وقد هيأت العناية الإلهية لهذا الفكر أن يرى النور من جديد.

– لعلك تسألني المثال: من منا كان يعرف أن في بطن ذلك التل شبه النضوي في قرية «تل مرديخ» السورية مدينةً عظيمة ترقد من قرون، يسرح فوقها الرعيان ويلعب الصبيان، وأنها كانت عاصمة لمملكة واسعة؟، في روما كانوا يعرفون عنها كل شيء، لذلك جاؤوا ينقبون واثقين. أما نحن

فـمـاكنا لنعـرف، أو ربما كنا نعـرف القليل، لذلك دخلنا في شـروطهـا مغامرين. فمن أين عـرفها الإيطاليون؟ أليس من أثر أو آثار علمية عربية ضيعناها أو حرقناها. واحتفظوا هم بها؟ (أعرف التل قبل التنقيب وبعده -كان تلاً ثم صار مدينة).

- أما عن الفلسفة فيكفي أن تعلم أن جميع الأساتذة في جامعة (بادوفا) الإيطالية كانوا «رشديين» هكذا بالإسم الصريح، وقد ظلوا بالتواتر تحت هذا الإسم قرونا عدة كان فيها اللاهوتيون المتشددون أيضا بدءا من البابا في صراع مرير «لتحرير الفكر الأوربي من البدع الرشدية». أرأيتم مايفعله العبقري العربي حتى وهو تحت السياط؟ فمابالكم لوكان حرا؟! هذا في أوربا. فكيف كانت نهايته في دياره العربية؟ حكمت عليه محكمة من الفقهاء بالكفر والزندقة والنفي إلى قرية يهودية (باعتباره لم يعد مسلما، وليعيش بين إخوانه اليهود) وجمعت كتبه وكتب جميع الفلاسفة فأحرقت في الساحة العامة. والجمهور يصخب فرحا لأعنا الفلسفة والفلاسفة (١٦) (ترددت في توثيقها).

أجل، حرقنا كتب الفلسفة، وتركنا «إلجام العوام..» أثرا عربيا إسلاميا نفيساً، نستمد منه المحن والإحن والعقد والتخلف، وندعي أننا عرب مسلمون. أو أننا في مقدمة من «حسن إسلامهم».

وبالمناسبة، أما كان يشفي غليل الإمام من (رعيته) غير هذا اللجام؟ أما كان بمقدوره أن يستبدل بهذا اللجام لفظة لاتثقب الأذن، وتثقب الذوق، وتخدش النفس؟ وهل يجوز لإمام أن يستخدمها بحق (رعيته)؟، وأيم الله قد وجدت من يطربون لهذا العنوان.

- وقبل ابن رشد شُغل الكندي بدعواتهم التجهيلية، فماوجد في استجرارهم العامة إلى تلك الهوة إلا «ذبّاً عن كراسيِّهم المزورة التي نصبوها من غير استحقاق، بل للترؤس والتجارة بالدين، لأن من تجر بالشيء باعه، ومن باع شيئا لم يكن له، فمن تجر بالدين لم يكن له دين» (١٧) هذا النص

مجتزأ من رسالة كتبها الفيلسوف إلى الخليفة المعتصم بالله، وهو يدلك على مدى سطوة الفقهاء المتشددين السائرين بالأمة إلى الجهل والركود الفكري إلى حد أن يكتب في ذلك إلى الخليفة.

ومن محاسن الصدف أن يكون «الملوك» هذه المرة في صفوف الشعب وحماة للفكر العربي الحر، بل وأن يكون الغنى والجاه كذلك في خدمة الشعب والفلسفة الانتقادية، ونادرا ماكانا مع الشعب، وقد ذكرنا من قبل أسباب حصانته من أذى الفقهاء المتشددين، فهاهو الفيلسوف «الملك» يمتلك حريته الفكرية المطلقة لافي الرد على المتشددين وحسب، بل وفي تكفيرهم باعتبارهم «متاجرين بالدين من أجل الترؤس» علما أنه يتناول رهطاً منهم يسبق الإمام الغزالي بقرنين من الزمان. ولنتابع معه: «لم يكتف الكندي بفضح أعداء الفلسفة والتشهير بهم بل استرحم الله «ولي الخيرات وقابل الحسنات» أن يمده بتأييده وينصره على «أضداده الكافرين نعمته، والحائدين عن سبيل الحق» وهذا الحق الذي يطلبه فيلسوفنا إنما هو الفلسفة بالذات»(١٨)

وهاكم عبقرية الفلسفة العربية المؤمنة بتلاقح الثقافات الأصيلة حتى في ذلك الزمان (القرن التاسع). مانزال مع الكندي:

«كان يؤمن بفكرة «الوحدة الفلسفية».. ولذا كان أول من دعا إلى «وحدة الصف» بين الفلاسفة لتنسيق قوى الفلسفة في معركة إثبات الذات حيال خصومة الأخصام على اختلاف مذاهبهم (لإتقانه اليونانية كان يعرف المتشددين في الأمم الأخرى فيسميهم خصوم الفلسفة) وقد قاده هذا الإيمان العظيم بـ«الفلسفة» إلى تجاوز حدود القومية في الزمان والمكان.. وبذا استنّ سنة الإيمان بأن الحقيقة تراث مشترك بين الأمم على مر العصور والأجيال، ودعا إلى واجب الإعتراف بفضل الفلاسفة في أي عصر ومصر. لأن «الفلسفة» واحدة في تجربة الفكر البشري كله» (١٩) أرجو أن يقوم القارئ هذا المذهب قياسا إلى زمانه، إنها عبقرية العرب الأصيلة تذكر -في مقابل

هذه الدعوة الفلسفية الإنسانية الشاملة- معادلة حجة الإسلام بزجر أبناء أمته (أعني النطاق الضيق) وضرب ظهورهم. كزجر الصبي الضعيف إذا طلب الخبز واللحم. ومعادلةَ شيخ الإسلام في فلسفة أرسطو. واحكم بعدئذ: أيهم كان يخدم العرب والإنسانية، وأيهم كان يعسر على الفكر العربي والبشري ويقتله. يمتد فكر الفيلسوف إلى كل المساحات البشرية، ولايمتد فكر المتشدد لأبعد من باعه وذراعه.

- وفي أيام الغزالي جهر الفيلسوف العربي الأندلسي (ابن باجه) بعدائه للتزمت لإدراكه مايؤول إليه من تخلف في الفكر، فماكان الكلام في الفكر إلا كلاما في الدين، بعد أن صرف الفقهاء الناس عن الإنشغال بالتفلسف في الأمور الأخرى، ولما كان الإمام يمنع العقل عن الانفتاح، ويكبل وعي جمهور المسلمين عند طقوس الشعائر الدينية والإيمان بالإستسلام، فقد راح ابن باجه «يقف منه موقف عداء جريء، ويعتبر آراءه خروجاً على سنة العقل القويم» (٢٠) وقد لام الغزالي لمحاربته العقل بحجة التدين، ولتزويغه الفكر العربي بهذه الحجة، فقال: «إن الطريق الصحيح في الوصول إلى الله هو التفكير والتأمل الفلسفي لا الأحوال الصوفية وترك التفكير» (٢١) «ففي وسع الإنسان أن يدرك بعقله الموجودات كلها من أدناها إلى أعلاها، من المادة إلى الله، ومن شأن العقل أنه يعرف من تلقاءذاته، لابتأثير روحاني يفد إليه» (٢٢) وإذا كان ابن رشد قد انتهى على أيدي الفقهاء المتزمتين إلى تكفيره واتهامه بالزندقة، وحرق كتبه وكتب جميع الفلاسفة، فإن ابن باجة (الذي كان معاصرا للغزالي) قد انتهى أيضا إلى اتهامه بالزندقة، ثم بالإلحاد، ثم إلى موته مسموما (على الغالب -توفي عام ١١٣٨). وبسبب تجهيل العامة وتعطيل فكرها كان صعباً عليها أن تفهم الأبعاد الفكرية الفلسفية، فنفرت من الفلسفة والفلاسفة «وأفاد الفقهاء من ذلك فألبوا العامة ضد الفلسفة مرارا، واجتمع العامة صفاً واحداً خلف الفقهاء لمناهضة الفلسفة وزعمائها» (٢٣).

خاتمة في دفع المغالطة «والتمويه»

لم نختر الإمام الغزالي مثالا عن الفقهاء المتشددين إلا لأنه كان أكثرهم ذكاء وعبقرية وقدرة على ازدواجية الخطاب، الأمر الذي مكنه من تقويض صرح الفلسفة العربية الانتقادية مشرقا ومغربا، ونشر سُجُف الجهل على الفكر العربي دهرا طويلا، ولهذه الأسباب ذاتها نختم البحث به: فلقد سفه الفلسفة، وحكم بكفر الفلاسفة، واتهمهم بدينهم، والعرب في مقدمتهم، لأنهم تأثروا بكبار الفلاسفة اليونانيين، فأخذوا عنهم «القياس العقلي»، ولأنهم (قلدوا اليهود والنصارى)، فالفلاسفة العرب. وهذا بلسانه، «رهط يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، وهم بالآخرة هم كافرون»(٢٤).

هذا في لغة «المنطق» مغالطة، وله في المعاجم، وفي لغة الفقه، وصف آخر: وهو عند عادل العوا «التمويه القاصد الواعي» وبيان ذلك أنه يُدخل كلام الله في ثنايا كلامه للتهويل وامتلاك الأفئدة والقلوب، ليكون سهلا عليه بعد ذلك ترحيل الناس إلى الكفر أو الإيمان. إلى الجنة أو النار، وكأن مفاتيحهما بيده ويتابع، بلسانه أيضا: «ولا مستند لكفرهم (إصرار على التكفير) غير سماع الغَيّ كتقليد النصارى واليهود.. وسماعهم أسامي هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطو»(٢٥)

هذا الكلام مؤسس على المغالطة (بخصوص التأثر باليهود والنصارى) وعلى الجهل (بخصوص فلاسفة اليونان) وإليك البيان: ليس صحيحا أن المسلمين هم الذين تأثروا باليهود والنصارى:

– فإذا كان يقصد الفلاسفة العرب، فإن هؤلاء هم الذين ثقفوا الغرب، وهزوا المعتقدات الأوربية كلها، ويكفينا ابن رشد مثالا (أفردنا له بحثا مستقلا).

– وإذا كان يقصد العامة. فإن عامة اليهود والنصارى وكثيرا من علمائهم ومفكريهم هم الذين وفدوا إلى الإسلام ورفدوه، وإلا فكيف صار

المسلمون اليوم ربع سكان المعمورة انطلاقاً من تلك الرقعة الصحراوية المحدودة؟ بعد الأخذ بالحسبان أن إنطلاقة الإسلام كانت بعد موسى بعشرين قرنا، وبعد عيسى بستة قرون.

(يرجحون ١٢٣٧ق. م لخروج موسى)

أما تكفيره الفلاسفة العرب -وقد كفرهم من قبل لإهمالهم الوظائف الدينية- فراجع هذه المرة إلى جهله فلاسفة اليونان، وبالمناسبة، فالإمام لم يكن يعرف شيئا من اليونانية، أما الفلاسفة فكان منهم من يتقنها كل الإتقان كالكندي. وكان منهم من يلم بها كابن رشد. وعليه، فهو لم يوفق في اختيار (فلاسفة الكفر) اليونانيين، إذ ليس بين الأسماء التي اختارها واحد لم يكن موحدا أو قريبا من التوحيد، ولايكون منصفا لو طالب بأن يكونوا عربا ومسلمين.

وبعد: ليس ثمة تراث لايختلط فيه الغث والسمين، ومن الجهل أن ننظر إلى تراثنا على أنه نقي كله، والرأي المسبق يفسد الرأي. في تراثنا منارات أضاءت العالم والعرب، وفيه كهوف أظلمت العرب، والمتشدد ممقوت أبدا، لايقرب من القلب، ولايقربه القلب، فمن كان فظا غليظ القلب انفض من حوله الناس.

للعبقرية العربية تاريخ مشهود، فلنخرج من الكهوف. ولنرفع منارة الفكر العربي الانتقادي ولو تحت الدرة والسياط، لتكون لنا فلسفة عربية متحررة تزهو على الدنيا.

المراجـــع

الأول: أحمد أمين «ضحى الإسلام» الجزء الثالث -الطبعة السابعة- مكتبة النهضة المصرية.

الثاني: د. عادل العوا «التجربة الفلسفية -الحدوس» الطبعة الثانية -مطبعة جامعة دمشق.

المواضــع

(١)	الأول	ص	٧	(١٤)	الثاني	ص	٢٣٣
(٢)	الأول	ص	٨	(١٥)	الثاني	ص	٢٣٣
(٣)	الأول	ص	٨	(١٦)	الثاني	ص	٢٤٦
(٤)	الأول	ص	٩	(١٧)	الثاني	ص	١٧٨
(٥)	الأول	ص	٩	(١٨)	الثاني	ص	١٧٨
(٦)	الثاني	ص	٢٣٠	(١٩)	الثاني	ص	١٧٨
(٧)	الثاني	ص	٢٣١	(٢٠)	الثاني	ص	٢٣٧
(٨)	الثاني	ص	٢٣١	(٢١)	الثاني	ص	٢٣٨
(٩)	الثاني	ص	٢٣١	(٢٢)	الثاني	ص	٢٣٩
(١٠)	الثاني	ص	٢٣٤	(٢٣)	الثاني	ص	٢٣٦
(١١)	الثاني	ص	٢٣٤	(٢٤)	الثاني	ص	٢٣٣
(١٢)	الثاني	ص	٣	(٢٥)	الثاني	ص	٢٣٣
(١٣)	الثاني	ص	٢٣١				

السمات العامة للمبدعين والعباقرة عبر التاريخ

عبد اللطيف زرنه جي

١) أقوال مأثورة:

الانسانية لاتفعل شيئا الا بمبادرات المخترعين الكبار والصغار الذين تقلدهم البقية منا، انه العامل الوحيد الفاعل في التقدم الانساني، فالافراد العباقرة يدلون على الدرب الصحيح ويضعون المخططات التي يتبناها العامة ويقتفون أثرها.

«وليم جيمس»

(*) عبد اللطيف زرنه جي: باحث من سورية، عضو جمعية الكرنية السورية، يهتم بالدراسات العلمية والفلسفية.

- ان تاريخ العالم ليس إلاسيرة الرجال العظماء.

«توماس كارلايل»

- ليس هناك تاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة بل هناك سير شخصية فقط.

«رالف والدو»

- بعض الناس يعتقدون أن العبقري يولد والآخر أنه يصنع.

- الموارد البشرية المبدعة هي الموارد الطبيعية الاعظم في العالم.

«قول أميركي»

- ليس الموهوبون والمبدعون والعباقرة سوى اولئك الذين يحملون النضج الفكري المبكر.

- الاعتقاد السائد بأن مصير الطفل تحدده الوراثة بصورة قطعية وبيئة ثابتة هو تصور علمي مزيف.

«الكونان»

- العبقرية تقاس من خلال تعداد التأثير الذي خلفته على المعاصرين واللاحقين وليس من خلال مدى أخلاقية هذا التأثير وصدقه.

- المبدع يمثل نموذج الذكاء أو المزاج الأكثر نفعا للمجتمع وهو في الوقت نفسه من يتحالف ضده الناس جميعا وذلك لأنه يزعج.

- التعليم التقليدي يعيق العبقرية ولايدعمها وإن أساليب التدريس في الوقت الحاضر لم حب الاستطلاع المقدس بعد فأمر يكاد يصل حد المعجزة، فهذه النبتة الصغيرة الطرية تحتاج أكثر ماتحتاج إلى الحرية فضلا عن الحوافز ومصيرها التلف لامحالة إن لم تحصل على هذه الحرية.

«انيشتاين»

- العبقرية هي ١٪ الهام و٩٩٪ عرق جبين.

«توماس اديسون»

- مامن شيء يجعلنا عظماء مثل الم عظيم.

- ان أساس التربية والتعليم يرسم قبل سن الخامسة وإن كل ماينجز في هذه المرحلة من عمر الطفل يشكل ١٥٪ من العملية التربوية والإبداعية ولذا فان اية تربية لاتبدأ بداية هذه المرحلة بالذات تعتبر ناقصة ومبتورة وإن أي جهد تعويض عن هذه المرحلة لن يؤتي ثمرة كما لو تم في هذه المرحلة المبكرة بالذات.

«العالم مكارنكو»

٢) تعاريف عامة:

جاء على لسان العرب أن عبقر موضع بالبادية كثير الجن، يقال في المثل كأنهم جن عبقر، وقال ابن الاثير: عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا، فكلما رأوا شيئا فائقا غريبا ممايصعب عمله أو اتقانه أو شيئا عظيما في نفسه نسبوه اليها: فقالوا عبقري وقال زهير: أصل العبقري صفة لكل مابولغ في وصفه وعبقري القوم سيدهم وقيل ايضا العبقري الذي ليس فوقه شيء.

وفي التراث الغربي هناك مايشير إلى أن أصل مصطلح العبقرية يعود الى كلمة جاءت من أصل لاتيني «Genius» وهي تشير إلى الروح أو القوة الإلهية التي تحفظ الإنسان من المهد إلى اللحد.

وفي التراث السيكولوجي الحديث هناك تعريفات عديدة خاصة بهذه الكلمة تتفق جميعها فيما بينها في أنها تشير إلى القوى والطاقات والإنجازات العقلية الفائقة وغير العادية.

في ضوء هذه التعريفات نستطيع أن نقول إن العبقرية هي محصلة لتفاعل خاص بين القدرات التي تنتمي الى المستويات العليا من القدرات الخاصة بالذكاء و أيضا بالمستويات العليا من القدرات الخاصة بالإبداع وتحليق الخيال.

ويرى العالم «دين كيث سايمنتون» ان مصطلح العبقرية هو مصطلح ينضوي تحت لوائه مصطلحان آخران هما الإبداع والقيادة وليس الإبداع الا شكلا من أشكال القيادة وغالبا ماتصبح القيادة مجالا من مجالات الابداع،

وفي كثير من الأحيان يرادف مصطلح عبقرية كلمة الموهبة «Giftedness» وغالبا الموهبة تتعلق بنشاطات الاطفال أما الإبداع فيتعلق بنشاطات الكبار والعبقري هو الشخص الذي يقوم بالإنتاج عبر مدى طويل من الزمن لعدد كبير او متميز من الاعمال والنشاطات الإبداعية التي يكون لها تأثير واضح وكبير على الاخرين لسنوات عديدة وجاء في تعريف المعجم الوسيط «الصحاح في اللغة والعلوم لواضعيه السيدين نديم وأسامة مرعشلي، مايلي:

بدع -أبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال
والله تعالى بديع السماوات والارض.
والبديع: المبتدع والمبتدع أيضا
الابداع: «Creation» ايجاد الشيء من عدم
أو هو نشوء أفكار جديدة أو إيجاد اشياء جديدة
الاختراع: «invention» بوجه عام هو الإتيان بشيء جديد منطقيا ووضع الفروض العلمية».

ولقد جاء تعريف الاختراع في القانون السوري بالمرسوم التشريعي رقم ٤٧ تاريخ ٩/ ١١/ ١٩٤٦الخاص بتنظيم حماية الملكية التجارية والصناعية والمعدل بالقانون رقم ٢٨ تاريخ ٣/ ٤/ ١٩٨٠، حيث تضمنت المادة الاولى تعريف الإختراع على النحو التالي: «يعتبر اختراعا صناعيا إبتكار أي إنتاج صناعي جديد او اكتشاف طريقة جديدة للحصول على انتاج صناعي او نتيجة صناعية موجودة أو الوصول الى تطبيق جديد لطريقة صناعية معروفة وكل من يبتكر اختراعا صناعيا له وحده حق استغلاله ويمنح شهادة اختراع كما جاء في القانون الفرنسي لبراءات الاختراع في ٣/ ١/ ١٩٦٨ في المادة التاسعة منه مايلي:

«يتضمن الاختراع نشاطا ابتكاريا اذا لم يكن ذلك النشاط نتيجة واضحة للتطور العادي للفن الصناعي».

ولقد شكلت لجنة للمخترعين والمبدعين السوريين بقرار من وزير التموين والتجارة الداخلية رقم ١٨٧ لعام ١٩٩٢ وتسعى اللجنة ان تصبح في المستقبل جمعية.

٣) الذكاء:

إن الاهتمام بالأطفال الموهوبين قديم جدا فقد طالب افلاطون في كتابه «الجمهورية» اصطفاء الاطفال الموهوبين حتى في أسر الفلاحين والصناع بغية تنمية مواهبهم والإستفادة منهم عندما يصبحون شبابا، كما أسس السلطان محمد الفاتح مدرسة خاصة في السرايا (بلاط الملك) حيث كان الاطفال الاكثر جمالا وقوة وذكاء يأتي بهم من كل أصقاع الامبراطورية ويجمعون في هذه المدرسة والهدف انشاء افكار رائعة في أجسام مخشوشنة ثم بعد ان يتم أعدادهم يرفعون الى مناصب اعلى وثمة مؤلفون يؤكدون ان ازدياد قوة تركيا ازديادا كبيرا في القرن الخامس عشر والسادس عشر يدين الى حد كبير لمبادرة محمد الفاتح ومع التطور العلمي والتكنولوجي في العالم في مطلع هذا القرن وبشكل عاصف في النصف الثاني من القرن العشرين وتفجر المعلومات والمعرفة في كل الاتجاهات وعلى مختلف السويات غدا المطلوب المزيد من الاجيال الذكية في النصف الاول من هذا القرن والى الاهتمام اكثر بالمبدعين في النصف الثاني منه وبخاصة اذا علمنا أن عدد الإختراعات في العالم حاليا يزيد عن مليون اختراع في السنة وإن عدد أنواع المجلات العلمية يفوق المليون أيضا أضف لذلك الكم الهائل من الكتب والقصص الأدبية والألحان الموسيقية والرسوم الرائعة والقصائد الشعرية الجميلة وغيرها ان كل ذلك يتطلب جيلا ذكيا معدا بشكل صحيح وسليم جسميا وعقليا ويحمل طاقات ابداعية كبيرة، والحقيقة ان كل مبدع لابد ان يكون ذكيا ولكن ليس بالضرورة أن يكون كل ذكي مبدعا.

يزداد الاهتمام بالاجيال الذكية والمبدعة في العالم عموما وبشكل خاص في كل من الولايات المتحدة الاميركية واليابان التي تولي الحكومة

والقطاعات بخاصة والعلماء اهتماما كبيرا بالاطفال وانشاء المدارس التي تعرف باسم مدارس «جوكو» التي يقدر عددها بـ/ ٢٠٠/ ألف مدرسة تنتشر كالشرايين في جميع أنحاء اليابان حيث ينتسب اليها / ٥, ١/ مليون طفل من المرحلة الابتدائية وقرابة / ٢/ مليون طفل من المرحلة الاعدادية تدرس هذه المدارس الاطفال مختلف العلوم الاساسية والفنون الجميلة والرياضة والموسيقى وتلبي عادة احتياجات تعليمية لاتوفرها المدارس النظامية، فيخضع نصف طلاب المرحلة الابتدائية الى دروس وتدريبات خاصة في فن الخط الياباني والبيانو والكمان وغيرها وهنالك جزء كبير من الدروس من اجل الترويح عن النفس وتخفيف الضغط النفسي واثارة الحواس والاهتمامات وتنمية المواهب بالاضافة لذلك فان المؤسسات الكبيرة تقيم مدارس خاصة لتنمية المواهب ويشرف عليها العلماء الكبار ولاسيما الذين يحالون الى التقاعد من أجل دراسة امكانية الاجيال واكتشاف الطرق التي يمكنها تفجير الطاقات الخلاقة لهم.

تسعى الدول الأوربية جاهدة للحاق بكل من اليابان والولايات المتحدة بينما تقف الدول النامية ومن بينها الوطن العربي عاجزة عن فعل أي شيء اذ أنها عاجزة عن تحقيق نظام تعليمي فعال فكيف يتسنى لها رعاية المواهب والطاقات الخلاقة التي تتطلب إمكانات مادية ومالية وفنية كبيرة لقد كان تقييم الاذكياء والمبدعين قديما يتم بطرق بدائية تعتمد على الوصف فقط، لكن في بداية القرن العشرين لم يعد التقييم وصفيا بل يخضع الى روائز أختبارية تحدد مستوى ذكاء الاطفال والطلاب والشباب رقميا، وهذا التقييم ليس دقيقا تماما لأن الأسئلة التي تطرح محدودة والذكاء والطاقات الإبداعية ليس لها حدود. لكن برغم ذلك فان النتائج التي يمكن التوصل اليها مفيدة ومعبرة الى حد كبير، ولامعنى عادة لاجراء اختبار الذكاء للذين يتجاوزن المرحلة الجامعية او سن الثلاثين، بل يكون تقييمهم عندئذ وفقا لنتائجهم وإبداعهم، وغالبا ماتعتمد هذه الفحوص على عوامل خمسة هي: المعرفة، الذاكرة، الفكر المنوع، الفكر الموحد، القدرة على التقييم.

٤) حاصل الذكاء :

نحصل على حاصل الذكاء لطفل أو انسان ما وذلك بقسمة العمر العقلي على العمر الفعلي (العمر الزمني) ولتبسيط القراءة نضرب الحاصل بـ/ ١٠٠/ أي وفق مايلي :

$$\text{حاصل الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر الفعلي}} \times ١٠٠$$

فان طفلا حاصل ذكائه مثلا ١٢٠ يعني انه عندما يكون في سن العاشرة فان حاصل ذكائه بمستوى طفل عمره / ١٢/ سنة وعندما سيبلغ عمر ١٥ سنة سيكون حاصل ذكائه كيافع في عمر/ ١٨/ سنة .

يتـراوح سلم حـاصل الذكـاء بين ٤٠-٢١٠، وقـد قـامت العـالمة «كوكس» بتطبيق هذا السلم على ٣٠١ من العباقرة والشخصيات التاريخية فكان معدل ذكائهم ١٦٦ منهم :

- الشاعر الالماني «غوته» ٢١٠ كتب الشعر في سن الثامنة
- فولتير الناقد المشهور ١٩٠
- نيوتن اكبر علماء الفيزياء ١٩٠
- غاليلو العالم الفلكي المشهور ١٨٥
- ديكارت الرياضي الكبير ١٨٠
- موتزارت الموسيقي العظيم ١٦٥ كان يعزف على ٣آلات موسيقية في سن السادسة
- نابليون بونابرت بطل فرنسا١٤٥

تشير بعض الدراسات الى ان :

٤٦٪ من الناس يكون حاصل ذكائهم متوسطاً يتراوح بين ٩٠-١١٠

٣٪ من الناس يكون حاصل ذكائهم دون ١٣٠

١٪ من الناس يكون حاصل ذكائهم دون ١٤٠

[١ ـ ٣ ٪من الناس يكون حاصل ذكائهم دون ٢٥]
تقع حافة التخلف عند حاصل ذكاء ٨٥–٩٥
والتخلف بين ٥٥–٦٩ والمتخلفين عقليا مادون ٢٥

ان الكثير من الدراسات الأميركية تشير إلى ٣٪ من فئة التلاميذ والطلاب في الولايات المتحدة الأميركية تحقق حاصل ذكاء ١٣٠ أو مافوق وهؤلاء يعرفون بالموهوبين (gifted) وان لكل ١٠٠٠٠ آلاف طالب هناك طالب واحد حاصل ذكائه ١٦٠ فمافوق وهؤلاء يعرفون بالموهوبين جدا (talented) ولقد أجريت احصاءات على حاصل الذكاء في أمريكا عام ١٩٧٠ وكان عدد الطلاب الموهوبين / ١٩٣٥٠٠٠ / طالب من مجموع عدد طلاب جميعا بحدود ٦٥ مليون طالب موزعين وفق مايلي :

مستوى الدراسة	عدد الموهبين
– الحضانة (اقل من اربع سنوات)	٥١٠٠٠٠
–الابتدائي (من٥–١٣سنة)	٩٦٠٠٠٠
– الثانوي والعالي	٤٦٥٠٠٠
المجموع	١٩٣٥٠٠٠

ونظرا لان عدد سكان الوطن العربي يقترب من عدد سكان الولايات المتحدة الأميركية وان حاصل الذكاء لايتعلق بالعرق فانه من المتوقع ان يكون لدى الوطن العربي حاليا قرابة/ ٢/ مليون طالب (أو طفل) موهوب . في الجدول التالي تم تصنيف حاصل الذكاء الى :

ا[illegible]ى	حاصل الذكاء	النسبة المئوية
لامع	١٣٩	٩,٠٪
متفوق جدا	١٣٨-١٢٨	٣,٧٪
متفوق	١٢٧-١١٧	١١٪
جيد	١١٦-١٠٦	٢١,٣٪
متوسط	١٠٥-٩٤	٢٦,٢٪

وجاءت الدراسة في نتائج اخرى على النحو التالي :

المستوى	عدد الموهوبين نسبيا
حاصل ذكاء ١٦٠ ومافوق	١/ ١٠٠٠٠٠شخص
١٥٦	٢/ ١٠٠٠٠
١٥٢	٦/ ١٠٠٠٠
١٤٨	١/ ١٠٠٠
١٤٤	٣/ ١٠٠٠
١٤٠	٦/ ١٠٠٠
١٣٦	١/ ١٠٠
١٣٢	٢/ ١٠٠
١٢٨	٤/ ١٠٠
١٢٤	٧/ ١٠٠
١٢٠	١١/ ١٠٠

كما جاء تصنيف الأطفال الموهوبين الى :

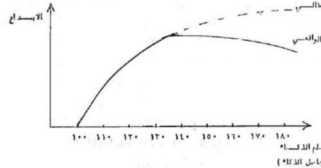
- الموهوب بصورة عامة وفي كل شيء
- الموهوب في العلوم
- الموهوب في الفنون والآداب
- القائد السياسي
- الموهوب في المهارات (الميكانيكية)

- المبدع الذي يتصف على وجه الخصوص بأنه مخترع وفريد

كما ان لجنة التربية الاميركية اقترحت من اجل تقييم الموهوبين ستة معايير هي :

- القابلية الفكرية العامة ولاسيما فيما يتعلق بالتحليل والاستنتاج
- القابلية المتخصصة في الدراسات
- قدرة التفكير الابداعية
- القدرة على القيادة (الزعامة)
- القدرة الفنية
- القدرة النفسية الحركية

هناك علاقة بين الذكاء والإبداع ونتيجة لدراسات مطولة تبين ان للذكاء دورا هاما في الابداع بين حاصل ذكاء ١٠٠-١٣٠ ولكن عندما يزيد حاصل الذكاء عن ذلك فلايعود له دور هام في مزيد من الإبداع، بل ربما يؤدي الى انخفاض في الابداع والمنحني التقديري التالي في الشكل / ١/ يوضح ذلك



الشكل رقم(١)

العلاقة بين الابداع والذكاء

ربما يعود سبب انخفاض الابداع عندما يزداد الذكاء لدرجة كبيرة ان الذكي يفقد القدرة على المرونة ويصبح من المعتدين بذكائهم ومتصلبا بنظرياته وآرائه، الموضوع الثاني الذي يتناوله علماء النفس والاجتماع هو علاقة الذكاء والابداع بالوراثة وبالبيئة وهل الوراثة والبيئة على اتفاق في تحديد الذكاء والابداع او على التضاد، لقد خلصت الكثير من الدراسات الى ان الذكاء يرتبط بشكل كبير بالوراثة، بينما الابداع يعتمد كثيرا على البيئة والوسط الموجود فيه المبدع، كما تشير الكثير من الدراسات الى الهشاشة النفسية والعقلية للاذكياء والمبدعين أي أنها قابلة للخمود اذا تعرضت إلى ظروف قاسية، كما أن القهر والاضطهاد الذي يمكن ان تتعرض له أمة من الامم فترات طويلة يمكن ان يؤدي الى انخفاض مستوى الذكاء والإبداع لمثل هذه الشعوب لقد كان شعب المايا من أكثر شعوب العالم حضارة بين القرنين السابع ونهاية القرن العاشر الميلادي بينما أجرى كثير من العلماء اختبارات على شعوب المايا حاليا وكانت النتائج أسوأ من ضعيفة.

لكي نفرق بين الطفل الذكي والطفل المبدع فانني اورد قصتين كتبتا من قبل طفلين اميركيين احدهما ذكي والاخر مبدع وترك لكل منهما فرصة/ ٤/ دقائق فقط لكتابة قصة حول رجل أعمال يعود الى منزله بعد انجاز بعض اعماله، فالطفل الأول الذكي جدا كتب القصة التالية:

«يعود السيد دوران الى منزله بعد سفر تجاري مثمر، انه راض جدا جدا ويفكر بأسرته الساحرة، وكم سيكون مسرورا لرؤيتها مجددا ويتخيل نفسه بعد ساعة عندما تحط الطيارة وترحب السيدة دوران واطفاله الثلاثة بعودته الى المنزل».

أما الطفل الثاني المبدع فقد كتب القصة التالية:

«هذا الرجل يعود من رونو حيث طلق امرأته في اللحظة الأخيرة فما كان بمقدوره كما قال للقاضي ان يتحملها، ذلك أنها كانت تضع كثيرا من

مرهم التجميل على وجهها ليلا بحيث ان رأسها كان ينزلق على المخدة ويصدمه (وهذا السبب الذي من أجله يفكر بمرهم تجميل لايؤدي إلى الإنزلاق).

وقد أكدت الدراسات ان أمهات الأطفال الأذكياء يكون اهتمامهن باطفالهن مستمر ووسواسي في بعض الاحيان، أما امهات الاطفال المبدعين فانهن اكثر تسامحا بكثير من الاخريات ويركزن على دراسات أطفالهن تركيزا أقل.

كما ان امهات الأطفال الأذكياء يتميزن بالاهتمام بالنظافة والعادات الحسنة والميل الى الدراسة يخفن من المجازفة، بينما الامهات المبدعات فيكن اكثر انفتاحا على الحياة وحسن التقييم ويحببن المجازفة، كما تم اكتشاف ان المبدعات من الفتيات يكن اكثر ارتباطا بآبائهن من امهاتهن.

٥) العباقرة عبر التاريخ:

هناك العديد من العباقرة والمبدعين عبر التاريخ سواء أكانوا علماء أم فلاسفة ام كتابا ام مؤلفين موسيقيين أم فنانين مثل انيشتاين، سارتر، بيتهوفن، بيكاسو، فقد تركوا تأثيرا دائما على أفكار وطريقة حياة عدد لاحصر له من الرجال والنساء كما ان هناك القادة الذين يغيرون مصير العالم بأعمالهم الكبيرة وليس من خلال افكارهم او تعبيرهم عن عواطفهم فالقادة مثل نابليون وهتلر وستالين وفرانكلين روزفلت وماوتسي تونغ، خالد ابن الوليد وصلاح الدين الأيوبي، تركوا علامات واضحة على المسار الذي أخذه التاريخ وهؤلاء المبدعون والقادة هم من تصبح سيرهم الذاتية بمثابة كتب للتاريخ.

لقد كان تقييم هؤلاء العباقرة والمبدعين سابقا عن طريق وصف سيرهم الذاتية وبطولاتهم وإبداعهم، لكن بداية القرن العشرين بدأت دراسة هؤلاء العباقرة والمبدعين تأخذ طابعا علميا اكثر ومحاولة ايجاد قوانين وعلاقات ومنحنيات بيانية تمثل القواسم المشتركة لهم، فقد قامت العالمة كاترين كوكس عام ١٩٢٦ بدراسة ٣٠١ من عباقرة وقادة ومبدعين في

التاريخ بين القرن الرابع عشر والقرن التاسع عشر، فأصدرت مجلدا بعنوان «الخصائص العقلية المبكرة لثلاثمائة من العباقرة».

ولقد اعترض بعض علماء الاجتماع وعلماء النفس على العالمة كاترين بادخال القادة في دراستها وقالوا بأن هؤلاء القادة كانوا بحاجة إلى سيف كبير اكثر من حاجتهم الى دماغ مبدع جيد.

كما قام علماء آخرون وبخاصة العالم «دين كيث سايمنتون» بدراسة ٢٠١٢ فيلسوفا عبر التاريخ و٦٩٦ من مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية و٣٨رئيس جمهورية اميركية وتم تحليل أكثر من ١٥ ألف لحن موسيقي من روائع الالحان الكلاسيكية ودراسة ٣٢٦ معركة كبيرة من المعارك التي حدثت عبر التاريخ، بالاضافة لذلك دراسة أكثر من ٤٠٠ مبدع ادبي ينتمون الى /٢٥/ قرنا من التاريخ ويمثلون الاداب اليابانية، الصينية، الهندية، الفارسية، العربية، الاغريقية، اللاتينية... الخ بغية الوصول الى قوانين التاريخ الذي يتطلب شمول عدد كبير من الأجيال ليتم اكتماله وهذه القوانين لايمكن اكتشافها إذا تمت دراسة الابداع والقيادة على العينات المعاصرة فقط، على سبيل المثال فلقد تبين ان شهرة الموسيقار ترتبط بمقدار +٥٦,٠ مع طول حياته الابداعية و+٧١,٠ مع الانتاجية الابداعية و-١٩,٠ مع سنوات ميلاده هذا يعني أن أشهر مؤلفي الموسيقى الغربية هم الذين كانت حياتهم الانتاجية أطول وكان انتاجهم أغنى وولدوا من زمن أبعد.

٦) أهم المؤثرات في مسيرة العباقرة والمبدعين:

أ) الوراثة:

هناك جدال دائم منذ أقدم العصور في علم النفس يدور حول الطبع والتطبع او الوراثة والبيئة، فلقد آمن افلاطون وديكارت بالطبع أي بالنزعة الفطرية، بينما تمسك بعض الفلاسفة الآخرون ومنهم لوك وهيوم بأن العقل يبدأ مثل لوح ناصع البياض ثم تقوم الخبرات البيئية بالنقش عليه، ويصر أصحاب النزعة الفطرية على أن السلوك الإنساني موجه في الغالب من

خلال ماتقدمه المعطيات البيولوجية أو مايسمى بالطبيعة ويؤكدون على أن هناك مايسمى «بالطبيعة الانسانية» هي بمثابة الاساس الغريزي للتفكير والنشاط والناس تختلف فيما بينها لأن هناك اختلافات وراثية بالأصل وباختصار فان بعض العلماء يعتقدون ان العبقري «يولد» والبعض الاخر يعتقد بأنه يصنع والواقع أن كلا من الوراثة والبيئة لها دورها في اعداد العباقرة والمبدعين لقد تمت كثير من الدراسات على الأطفال عبر التاريخ وفي الوقت الحاضر ولاسيما فيما يتعلق بالإعاقات الجسدية والصدمات المبكرة والاضطرابات الاسرية والبيوت المتصدعة اجتماعيا والامهات المسيطرات والاباء المتصلبين وردود الافعال تجاه المدرسة والمعلمين ولم تكن النتائج حاسمة بل ان السمة نفسها او عكسها يمكن ان تخلق المبدعين ولكن تم التوصل الى أهم النتائج التالية :

ب) ترتيب الميلاد ودور الاسرة :

لقد اوضحت الكثير من الدراسات التي تناولت مشاهير من الأطفال الابكار (جمع بكر) وبخاصة الذكور منهم يميلون الى الانجاز اكثر من الاطفال المتأخرين في ترتيب ولادتهم وقد وجد «فرانسيس غالتين» (١٨٧٤): ان نسبة الابكار والابناء الوحيدين بين العلماء المشاهير هي نسبة كبيرة بدرجة لايمكن ارجاعها للصدفة ابدا ولقد بينت الكثير من الاحصائيات ان عدد الرجال العظام الابكار لابائهم يبلغ ضعفي عدد الرجال العظام الذين يأتون بعد الابكار في ترتيب الولادة، كما يوجد بعض الاعوام تعتبر بمثابة «أعوام العبقرية» فقد ولد مثلا عام ١٨٠٩ كلا من براى، غلادستون، داروين، غوغول ولنكولن ومندلسون وبووتينيسون وفي تمام ١٧٦٩ ولد كوفيه، نابليون وولنغتون وفي ايطاليا النهضة برز في وقت واحد على وجه التقريب، دوفنشي وميكائل أنجلو وبيروجان ورافائيل . . . كما تشير الكثير من الدراسات الى ان العبقرية قادرة في بعض الحالات على الاقل ان تقاوم الشروط الاشد قسوة وتخرج منها ظافرة ويقول «بوفون» إن العبقرية هي

صبر لاتخمد همته ابدا، كما يقول «شوبنهور» أن العبقرية ملكة تدرك التنظيم في الاشياء وترى العام في الخاص ومن المؤكد ان البيئة الأسرية ليست حاسمة تماما في تطور العبقرية التكوينية فمثلا قدر تشيخوف لم يكن قط جيداً، فكان ابوه مستبدا فظا وكان الطفل يتحمل المشاهد الفظيعة التي كانت تدمر وجبات الطعام وهو في حالة من الرعب وكانت أمه موضع اهانة بشكل دائم وفي الخامسة من عمره بدأ والده بجلده، بحيث كان السؤال الاول الذي كان يطرحه الطفل على نفسه في كل يوم هل سأجلد اليوم أم لا؟ وكان ممنوعا من اللعب ويجب عليه ان يقبل يد الكهنة والرهبان كلما صادفهم.

كما وجد العالم (غالتون) أن مجموع الاباء البارزين لـ٩٧٧ انسان كان ٥٣٥أب متميز في حين ان عدد الاباء البارزين للعدد نفسه من المتوسطين لم يكن سوى / ٤/ آباء. وكان اعضاء أسر داروين وباخ وبرنولي بارزين جدا في العلوم منذ خمسة اجيال او منذ ثمانية أجيال او تسعة في الموسيقى، كما أن أسر العباقرة التالية لم تكن مميزة على الاطلاق مثل نيوتن، واشنطن شيلي وانيشتاين، نابليون. . . . الخ

كما ان شروط الولادة ونمو العبقرية هما من الشروط الاكثر تغيرا فالصحة ليست ضرورية ولا الاسرة السعيدة والمتوازنة وهناك ثمة عدد كبير من الرجال المشهورين كانوا منحدرين من الاوساط الاشد تعاسة مثل «آبل، براهما، كوبرنيك، ديكنز، فاراداي، فرانكلان، لابلاس، لنكولن، لوثر، آنا بافلوفا، ستالين، ستفينسون، تورنر»

كما يقول كريتشمر «ان العبقرية تتاخم الجنون».

والحقيقية بعض الرجال العظماء أصبحوا مجانين خلال جزء من حياتهم على الاقل مثل «دستوفسكي، غالتون، موباسون، ستيوارت ميل، نيوتن، نيتشه، روسو، رسكن، شومان، فان كوغ»

كما أثبتت الكثير من الدراسات ان العائلات التي تضم عددا اقل من الاولاد هناك احتمال أكبر لظهور عبقريات فيها اكثر من العائلات التي لها اولاد كثيرة.

كما أثبتت الكثير من الدراسات في القرن العشرين ان اكثر النوابغ تكون من الطبقة المتوسطة اجتماعيا وتشكل نسبة ٦٠٪ من كافة المبدعين عادة، كما يوجد عامل مشترك في سير الشعراء والطغاة والابطال العسكريين هو ان امهاتهم كن دائما من الامهات المسيطرات، المستحوذات او من الامهات ذوات الشخصية الخافقة.

كما ان ربع العباقرة فقدوا أحد والديهم عندما كانوا في سن العاشرة او ما دون وأكثر من ثلثي العباقرة فقدوا احد الوالدين عند عمر الخامسة عشرة وان ١٠٪ من هؤلاء فقدوا كلا الوالدين عند عمر الحادية والعشرين وان نسبة اليتم بين العباقرة تزيد بدرجة كبيرة عن النسبة الموجودة في المجموعات الاخرى.

كما اظهرت الدراسات ان الاولاد البكر أقرب لان يكونوا علماء والاولاد الاوسط يكونوا ناجحين كثيرا في أمور السياسة، بينما الاولاد الصغار يجنحون للقيام بالثورات.

فمثلا كان فيدل كاسترو الابن الخامس من أصل سبعة أبناء، كما ان لينين هو الطفل الثالث من حيث ترتيب الميلاد، كذلك فان كل الاخوة الذكور والاناث من عائلة «اوليانوف» التحقوا بالحركة الثورية في روسيا وأخيرا فلقد توصل العالم «غورتسل» بعد دراسة ٣١٤ من مشاهير القرن العشرين الى ان ٣٠٪ من العينة كانوا من الاولاد الابكار و١٦٪ من الاولاد الوحيدين و٢٧٪ من الاطفال الاصغر و٢٦٪ من الأطفال الأوسط.

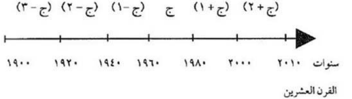
ج) القدوة والمثل:

تعتبر فكرة محاكاة التنافسية ذات أهمية كبيرة وربما ذلك يفسر تجمع الكثير من المشاهير في بعض الاسر، ولقد أظهرت البحوث الحديثة ان حوالي ٨٢٪ من المشاهير قد عايشوا العديد من الراشدين الذين كانوا يعملون في مجالات إبداعية وان ٦٨٪ منهم ترعرعوا في ظل وجود بعض الراشدين المبدعين وان ٦٣٪ منهم تعرفوا على مشاهير في مرحلة مبكرة من العمر،

كما تبين ان نصف الحائزين على جائزة نوبل في العلم قد تعلموا على أيدي بعض من سبقهم في الحصول على جائزة نوبل وتوحي الكثير من الحقائق ان وجود من يقتدى بهم من المبدعين قد يكون أمرا هاما بالنسبة لتطور العبقرية العلمية والحقيقة ان الاعجاب هو قوة دافعة شديدة في التطور الشخصي.

عادة يقسم التاريخ الى شرائح تسمى الأجيال ويعطى لكل جيل في البحوث الحديثة ٢٠ سنة ويوضع عادة المبدع في جيل معين وفقا لبلوغه سن الاربعين.

مثلا يمكن وضع مايكل انجلو في الجيل الواقع في الفترة بين سنة ١٥٠٠ الى ١٥١٩ وذلك لانه وصل الى سن الاربعين سنة ١٥١٥ وقد اختيرت سن الاربعين في الحياة لأنه بمثابة الذروة او مركز الثقل الابداعي كما سنشاهد لاحقا ولقد تمت كثير من الدراسات على ١٣٠ جيل من أجيال الحضارة الغربية اي مايعادل ٢٦٠٠سنة، بمعنى آخر منذ قبل الميلاد بـ٦٠٠ سنة وحتى نهاية هذا القرن تقريبا، فإن المبدعين الذين يكون متوسط اعمارهم ٤٠ سنة في جيل معين (ج) كانوا في سن العشرين في الجيل السابق لهذا الجيل (ج-١) حيث يمكن توضيح ذلك في الشكل رقم/ ٢/



الشكل رقم (٢)

توزع اجيال الابداع في القرن العشرين

مثلا العالم البرت اينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥م) يقع في الجيل (ج-٣) اوالاول بحسب ترتيب المحور لانه بلغ سن الاربعين عام ١٩١٩م

وموهنداس كرمشند (غاندي ١٨٦٩-١٩٤٨) يقع ايضا في الجيل (ج-٣) لانه بلغ الاربعين عام ١٩٠٩م بينما شارل ديغول (١٨٩٠-١٩٧٠) يقع في الجيل (ج-٢) لانه بلغ سنه الاربعين عام ١٩٣٠م.

وتظهر النتائج ان عدد المبدعين في الجيل (ج) هو علاقة موجبة لعدد المبدعين في الجيل (ج-١) اي كلما زاد عدد المبدعين في جيل ماعلينا ان نتوقع زيادة عدد المبدعين في الجيل الذي يليه، كما برهنت الدراسات ان الابداع في تاريخ حضارة مايمكن ان يزدهر أو ان يخبو بشكل تدريجي فقط وان عصور الظلام لايمكن ان تصبح عصوراً ذهبية بين عشية وضحاها، كما برهنت الدراسات ان نصف الحائزين على جائزة نوبل في العلم قد تعلموا على أيدي بعض من سبق لهم الحصول على هذه الجائزة ونظرا لان الكثيرين من الحائزين على جائزة نوبل كانوا قد حاولوا الحصول على درجة الدكتوراه في سن الخامسة والعشرين فان اساتذتهم كانوا فعلا قد تجاوزوا سن الاربعين بقليل وذلك عندما بدأ تلمذة هؤلاء العلماء الشبان على ايديهم.

د) التأثير والأفكار:

لقد كافح العلماء كثيرا للحصول على الشهرة والاعتراف بهم فقد كان العالم بلانك قد بدأ ينشر مقالاته حول نظرية الكم منذ عام ١٨٩٧ ولم يحصل على جائزة نوبل في الفيزياء حتى عام ١٩١٨ أي تطلب الامر عشرين سنة حتى يحظى عمله الثوري بالإعتراف الجدير به، كما أن العالم انيشتاين انتظر /١٧/ سنة حتى حصل على جائزة نوبل ومن المفارقات أنه لم يحصل عليها من أجل النظرية النسبية ولكن من أجل تطبيق لنظرية بلانك عن الكم فيما يتعلق بالتأثير الضوئي.

كما تجدر الاشارة الى أن العلماء الصغار سنا قبلوا نظرية داروين حول الانتخاب الطبيعي بينما رفضها العلماء الاكبر سنا.

بالاضافة لذلك فان تأثير الاخرين على العلماء كان كبيرا فمثلا ان «الكسندر دوما» كانت حماسته للدراسة ضعيفة بشكل سببت اليأس لوالديه

وقد كسب في اول الامر عيشه بأموال قليلة بوصفه كاتبا لدى كاتب العدل والتقى في يوم مابممثل في المسرح الفرنسي وحدثه أنه يرغب في الكتابة فقال له الممثل «هاأنا اعمدك شاعرا باسم شكسبير وكورني وشيلر» وان هذا الكلام كان بمثابة تفجير للطاقات الخلاقة لديه ووعد نفسه على الا يكذب الممثل وتحدد دربه منذ ذاك اليوم فغدا كاتبا كبيرا.

اننا اذا أردنا ان نوازن بين أهمية الوراثة والبيئة فانه لاشك ان للبيئة الدور الأكبر في ظهور العبقرية وتطور المبدع الممكن او القائد المحتمل، بينما تلعب الوراثة الدور الكبير في تحديد الذكاء، كما ان كلا من الذكاء والابداع له علاقة بالبنية العقلية للشخص ولاسيما ان عدد خلايا الدماغ تصل الى ١٤ مليار خلية وان الجهاز العصبي بكامله يشكل قرابة ٣٠٠مليار خلية اذا كانت ذات بنية جيدة والتوصيل بينها جيداً ايضا وذات نشاط حيوي فعال فان ذلك كله يساعد الشخص على الذكاء وعلى الابداع، كما أن أكثر العباقرة كانوا يتمتعون بالذاكرة الشاملة وكانوا يعانون من صعوبات جمة بعدم القدرة على النسيان واننا كنا سنشعر بأننا مصابون بالضعف العقلي لو ان هؤلاء الذين يحوزون ذاكرة كلية كانوا الغالبية العظمى كما ان معظم المبدعين كانوا يعانون من ظلم المعلم والمدرسة والزملاء ويعيشون في حالة انعزال لإنهم لايتأقلمون مع الطلاب الذين في سنهم، كما ان الراشدين من الطلاب لايقبلونهم بين صفوفهم بالاضافة لذلك فان تجميع الاذكياء والمبدعين في صفوف مشتركة يخلق كثيرا من المشاكل فبدلا من ان تضاف مواهبهم لبعضها البعض فانها على الاغلب وبسبب التنافس سريعا ماتتحول الى عداء ومشاكسة وتعاكس.

هـ) التعليم الرسمي والذاتي:

لقد كرس كثير من العلماء جهودهم من أجل معرفة تأثير التعليم الرسمي والذاتي على مسيرة الموهوبين والمبدعين وتبنى الكثير منهم آراء العالم (البرت انيشتاين) الرومانسية القائلة بأن التعليم التقليدي يعيق العبقرية

ولايدعمها وانه من السهل ان نذكر امثلة تؤيد الآثار الإيجابية للتعليم واخرى تؤيد الآثار السلبية، ان اثنين من أكثر رؤساء الولايات المتحدة مكانة ومنزلة وهما جورج واشنطن و أبراهام لنكولن قد حصلا على قدر اقل من التعليم الرسمي من غيرهم من الرؤساء والعالم العظيم «اسحق نيوتن» لم يستمر في تعليمه الى مابعد الدرجة الجامعية الاولى.

ويرى البعض ان التعليم الرسمي ليس له تأثير كبير «ايجابيا او سلبيا» على الإنجاز الإبداعي ويرى البعض ان بعض انواع التعليم الرسمي قد يعزز التطور الابداعي لكن التعليم الاكاديمي الزائد عن المطلوب قد يغرس في الذهن التزاما مبالغا فيه بوجهات النظر التقليدية ومن ثم يخمد الاصالة.

لقد قامت العالمة «كاترين كوكس» بدراسة العباقرة الثلاثمائة ولاسيما فيما يتعلق بالتعليم الرسمي.

ووضعت المعايير التالية:

- الصفر (٠) يشير الى عدم وجود أي تدريب او تعليم رسمي من أي نوع.

- الدرجة (١) تشير الى المدرسة الثانوية أو مايعادلها

- الدرجة (٢) تشير الى البكالوريوس او مايعادلها

- الدرجة (٣) تشير الى درجة الماجستير.

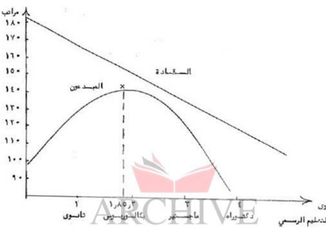
- الدرجة (٤) تشير الى درجة الدكتوراه او مايعادلها

وقد قام العالم «دين كيث سايمنتون» بتحويل النتائج الى منحنيات بيانية كما في الشكل رقم (٣)، وتم التوصل الى المعادلة التالية التي تعبر عن هذه المنحنيات.

E=94, 81+ 44,34F- 11,96F2

حيثE هي مرتبة الشهرة

F مستوى التعليم الرسمي



الشكل رقم (٣)

يمكن ان نستنتج من ذلك ان الذين وصلوا الى أعلى المراتب السياسية والقيادة العسكرية (الجنرالات) وقادة البحرية والمصلحين الاجتماعيين والدبلوماسيين والمصلحين الدينيين هم الذين حصلوا على أقل قدر من التعليم الرسمي ومن الواضح جدا ان التعليم العالي لايساهم كثيرا في تطوير الامكانية القيادية، بينما المبدعون الذين حصلوا على درجة الدكتوراه تميل شهرتهم الى ان تكون أقل بدرجة صغيرة من شهرة الذين حصلوا على قدر أقل من التعليم الرسمي وان ذورة الشهرة لهؤلاء المبدعين تقع عند ١,٨٥ على مقياس التعليم اي تقريبا للذين وصلوا الى السنة الثالثة في الجامعة ولم

يكملوا دراستهم وهذا يعني ان معظم العلماء والفلاسفة والكتاب والفنانين والمؤلفين الموسيقيين المشاهير لم يكونوا من حملة الشهادة العلمية العالية والشواهد على ذلك كثيرة مثل:

العالم الانكليزي الشهير «مايكل فارادي» الذي كانت صورته الشخصية واحدة من أصل ثلاثة صور وضعت على مكتب انيشتاين كان قد ترك المدرسة عندما كان في الرابعة عشرة من عمره كما لم يكن اديسون طالبا جيدا في المدرسة وكذلك الموسيقار بتهوفن وغيرهم الكثير وكما يبدو ان التصلب الفكري والابداع يمثلان نهايتين متعارضتين في بعد ثنائي الاقطاب، لقد كتب العالم انيشتاين الى احد اصدقائه قبل سنتين بالضبط من نشره مقالته حول النسبية الخاصة قائلا له «لن أصبح من حملة الدكتوراه فالملهاة برمتها أصبحت تثير الضجر» وكان بوجه عام كسولا ولم يكن يهتم بالرياضيات ابدا عندما كان بالمدرسة وكان يعتمد على طالب نبيه «مارسيل جروسمان» حتى في القديم في المجتمع البيزنطي مثلا كان الدارسون يحتاجون الى معرفة اوسع بكثير من المعرفة التي كان يحتاجها اسلافهم في العصر الذهبي للاغريق، لكن عالم البيزنطيين لم يظهر الكثير من الابداع على عكس اليونان القديمة.

نجد في الشكل رقم /٤/ العلاقة بين التعليم الرسمي والجمود الفكري لدى /٣٣/ رئيسا من رؤساء الولايات المتحدة الاميركية كما وضعها العالم «سايمنتون».

ان النتائج التي تم التوصل اليها لايمكن اعتمادها بشكل نهائي على أنها ادانة عامة للتعليم العالي.

العلاقة بين مراتب الشهرة والتعليم الرسمي
لدى/ ١٠٩/ من القادة و/ ١٩٢/ من المبدعين في عينة كوكس



الشكل رقم/ ٤/
العلاقة بين التعليم الرسمي والجمود الفكري لـ/ ٣٣/
رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة حسب العالم (سايمنتون)

ان اسوأ رؤساء الجمهورية في أمريكا كان «جون كوينسي آدامز» الذي كان في السابق أستاذا للخطابة والبلاغة في جامعة هارفرد كما هو الحال بالنسبة «لودروولسن» الاستاذ السابق للقانون والاقتصاد السياسي وكلاهما كانا يتميزان بالجمود الفكري. برغم القيم الانسانية الكبيرة التي يحملها ولسون كما ان هناك ٩١ شخصا في عينة العالمة / كوكس/ لم يكونوا علماء او قادة لكن كانوا يتمتعون بالشهرة في زمانهم منهم من كان يؤدي ادوارا فنية

او رياضية او مغامرين او رجال اعمال أو ناشرين أو متصوفين أو من ذوي القدرات النفسية الخارقة هم الوحيدون الذي ثبت أن شهرتهم ترتبط بشكل خطي متصاعد مع التعليم، ولقد دلت النتائج أخيرا على ان الافراد الحاصلين على درجات عليا هم اكثر احتمالا لان يحققوا النجاح من الاشخاص الذين حصلوا على التعليم الابتدائي فقط، كما تشير البحوث الى ان التفوق المدرسي لاينبئ بالنجاح المهني، اما فيما يتعلق بالتعليم الذاتي، فقد كان اكثر المبدعين يميلون للقراءة بنهم خلال مراهقتهم، حيث كان معدل قراءة كل منهم يصل الى / ٥٠-١٠٠/ كتابا سنويا.

ان الطفل الموهوب يقرأ عادة في المتوسط / ١٠/ كتب خلال شهرين في سن السابعة من عمره و١٥كتابا في سن الخامسة عشرة والاطفال المبدعون يؤثرون قراءة الكتب العلمية والتاريخية والسير الذاتية وحكايات الاسفار، بينما الاطفال العاديون يميلون لقراءة الحكايات والمغامرات والقصص المصورة وعادة لايكون باستطاعتهم قراءة اي كتاب قبل سن الثامنة.

٧) انتاجية العباقرة والمبدعون:

نجد عبر التاريخ ان بعض العباقرة والمبدعين كانت انتاجيتهم الكمية كبيرة ولكن انتاجياتهم الكيفية محدودة، كما نجد ان منهم من كان غزير الانتاجية، فلقد سجل «توماس اديسون» ١٠٩٣ براءة اختراع ومازال هذا الرقم هوالرقم القياسي لدى مكتب الاختراعات في امريكا حتى الان كما انجز «البرت انيشتاين» ٢٤٨ مادة منشورة وأنجز داروين ١١٩ مقالة وانجز «سيجموند فرويد» ٣٣٠بحثاً في علم النفس، كما أنجز «موزارت» اكثر من ١٠٠ مؤلف موسيقي قبل وفاته في عمر الخامسة والثلاثين وألف «شوبرت» اكثر من ٥٠٠عمل قبل أن يموت بالتيفوس في الحادية والثلاثين من عمره ومؤلفات باخ الموجودة فعلا تزيد عن ١٠٠٠عمل وتملأ ٤٦ مجلدا وفي عالم الرسم انتج (رمبرانت) حوالي ٦٥٠لوحة وحوالي ٣٠٠تخطيط و٢٠٠٠

رسم وقام بيكاسو بتنفيذ اكثر من ٢٠ الفاً من الاعمال الفنية وفي تقييم جديد لاعماله ذكر ان أعماله تجاوزت ١٤٠ الف عمل.

لقد اثبتت الدراسات أن عدد مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية يصل الى الالاف ولكن لم يكتسب منهم الشهرة سوى ٢٥٠ وان ٣٦ مؤلفا مسؤولون عن ثلاثة أرباع الاعمال الموسيقية المشهورة و١٦ هم من قدموا نصف الموسيقى التي تسمع وان ١٠٪ الذين يتربعون على العرش قد قدموا لنا ٤٠٪ من الروائع بينما قدم المؤلفين الثلاثة الاكثر شهرة موزارت، بتهوفن، باخ حوالي ٦٪ لكل منهم بمفرده اي مجموعهم قرابة ٢٠٪ اي ان أقل من ١٪ من الموسيقين المشهورين قد قدموا لنا معظم الروائع الموسيقية، لقد قام العالم (لوتكه) وبعد دراسات عديدة باستخراج القانون التالي:

$$ع = \frac{ثا \times س}{ن^2}$$

حيث ع عدد المبدعون الذين يؤلفون أو يكتبون أعمالاً فنية أو يقدمون اعمالا علمية عددها ن

ثا ثابت يختلف من نشاط إبداعي الى آخر

س عدد العينة من المبدعين مختارة

ن عدد الاعمال الابداعية وليكن مثلا عدد المقالات

اذا اخترنا عينة من كتاب المقالات عددها س=١٠٠٠٠ واعتبرنا الثابت ثا=١ فاننا يمكن ان نستنتج مايلي: عدد الذين يمكن ان يكتبوا من هؤلاء مقالة واحدة ن=١ يكون (١٠٠٠٠) كاتب أي جميعهم.

– عدد الذين يمكن ان يكتبوا من هؤلاء مقالتين ن=٢ يكون احتماله ٢٥٠٠ كاتب.

– عدد الذين يمكن ان يكتبوا من هؤلاء مقالات عددها ن=١٠٠ لايمكن ان يكون احتماله اكثر من كاتب واحد فقط.

من الجدير بالذكر ان هذا القانون يشبه لحد كبير القانون الاقتصادي

الذي اوجده العالم «باريتو» حو ل توزيع الدخل في دولة ما اذا لم تكن هناك ضرائب كابحة وهو من الشكل

$$ع = \frac{ث \times س}{ن^{١,٥}}$$

وهذا بالتالي يشير الى ان هناك تشابها مابين الابداع الثقافي والنشاطات الاقتصادية كذلك قام العالم «برايس» بايجاد القانون التالي الذي يعطينا لدرجة كبيرة عدد المبدعين الذين يقدمون ٥٠٪ من كامل الاعمال الفنية

$$ع = \sqrt{س}$$

ع : عدد الموسيقين الذين يعطون ٥٠٪ من مجموع الاعمال الفنية الموسيقية

س : عدد الموسيقيين المشهورين

فبحسب الاحصائيات السابقة اذا اعتبرنا ان عدد الموسيقيين المشهورين س=٢٥٠ فيكون عدد الموسيقيين الذين انتجوا ٥٠٪ من الاعمال الموسيقية الفنية قرابة ١٦ موسيقيا.

لقد اثبتت الكثير من الدراسات أنه كلما زاد الكم المنتج لمبدع فان احتمال ظهور عمل مبدع له ذي جوده عالية يكون اكثر أي يمكن للكم الغزير ان يفضي الى الجودة والتمييز، بالاضافة لذلك يزداد المبدع شهرة وانتاجا كلما بدأت عبقريته بالظهور في سن مبكرة وكانت انتاجيته السنوية اكبر وعاش زمنا أطول.

يمكن للمبدع ان يقدم أعمالا ابداعية حتى في سن متأخرة من عمره فقد وضع باخ مؤلفه الموسيقي الاخير في الخامسة والستين وهو على سرير الموت

- وكان «بوفون» لايزال يضيف مجلدات جديدة لمولفه التاريخي «التاريخ الطبيعي» عندما مات وهو في الثمانينات من عمره.

- وكان مايكل أنجلو لايزال ينحت في عمله الاخير قبل /٦/ أيام من موته.

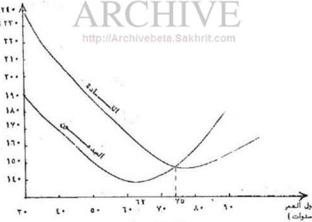
اي ليس هنالك شيء يمنع أن يمتد الابداع الى نصف قرن او اكثر وغالبا

مايبدأ الابداع بعد سن العشرين من العمر ويمكن ان يمتد لغاية الثمانين .

لقد وضع العالم «جورج برد» عصرا وتسمية لكل عقد زمني للمبدعين وفق مايلي :

العمر	٢٠-٣٠سنة	العصر البرونزي
العمر	٣٠-٤٠سنة	العصر الذهبي
العمر	٤٠-٥٠سنة	العصر الفضي
العمر	٥٠-٦٠سنة	العصر الحديدي
العمر	٦٠-٧٠سنة	العصر القصديري
العمر	٧٠-٨٠سنة	العصر الكرتوني

نجد في الشكل رقم / ٥/ العلاقة بين الشهرة المتحققة وطول العمر لـ (٣٠١) عبقري من عينة كوكس :



الشكل رقم (٥)

العلاقة بين الشهرة المتحققة وطول العمر لـ (٢٠١) عبقري حسب عينة كوكس

نلاحظ من المنحنيات السابقة مايلي :

١) شهرة القادة تكون عادة اكبر من شهرة المبدعين

٢) القادة الذين يموتون في سن مبكرة يكونون اكثر شهرة على سبيل المثال «الكسندر المقدوني»

٣) المبدعون يكونون عادة أكثر شهرة اذا ماتوا في سن مبكرة مثل الموسيقار موزارت او في سن متأخرة مثل «بيكاسو» والذين يموتون عند سن ٦٢ سنة يتمتعون بأقل شهرة ممكنة .

٨) طول العمر والانجاز :

اذا استعرضنا العباقرة والمبدعين عبر التاريخ نرى منهم من بدأ الابداع في سن مبكرة وآخرين في سن متأخرة ومنهم من تميزوا بطول العمر والكم الاكبر من الابداع وبعضهم من قضى نحبه في عمر مبكر ، لقد حاول علماء النفس والإجتماع ايجاد القواسم المشتركة لهؤلاء والقوانين العامة التي يمكن ان تربط بينهم ولاسيما العالم «دين كيث سايمنتون» فمن خلال دراسته لعينة كوكس تبين مايلي :

– كان شكسبير في أواخر الثلاثينات وأقل من الاربعينات من عمره عندما كتب هاملت والملك لير وعطيل وماكبث .

– كان تولستوي في الثامنة والثلاثين حين نشر «الحرب والسلام»

– أكمل «مايكل انجلو» كنيسة «سيستين» في السابعة والثلاثين من عمره

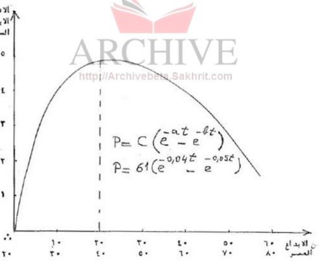
– كتب نيوتن «المبادئ» وهو في الخامسة والاربعين

– كتب بتهوفن «السمفونية الخامسة» وهو في السابعة والثلاثين .

مما حدا بالعلماء الى الاعتقاد بأن الذروة الابداعية تكون في سن الاربعين والحقيقة كذلك برغم ان بعض المبدعين مثل انيشتاين قد قدم نظريته النسبية الخاصة وهو في عمر ٢٦ سنة والنظرية العامة بعد حوالي عشرة سنوات ، كما كان «روسيني» في الثالثة والعشرين من عمره عندما كتب اروع الاوبرات الكوميدية وهي «حلاق اشبيليا» لقدأكد العالم «جورج بيرد» ان

الإبداع يبدأ عادة في سن العشرين ويصل للذروة في سن الاربعين ثم يتناقص تدريجيا حتى لايبقى منه شيء عند سن الثمانين.

كما توصل العالم «وين دنيس» عام ١٩٦٦ الى ان الكم الابداعي لاينخفض بسرعة التي ينخفض بها الكيف الابداعي، فالمبدعون في الستينات من حياتهم لايقل انتاجهم عادة عن انتاج المبدعين في العشرينات من عمرهم كما ان نسبة تتراوح بين ٦٪ الى ٢٠٪ من الانتاج الكلي للمبدع قد تنتج في السبعينات من العمر، لقد استطاع العالم «دين كيث سايمنتون» التوصل الى منحني بياني يمثل العلاقة بين العمر والانتاجية الابداعية وذلك حسب الشكل رقم/ ٦/ التالي:



الشكل رقم(٦)

العلاقة بين سنوات الابداع والانتاجية الابداعية بحسب «سايمنتون»

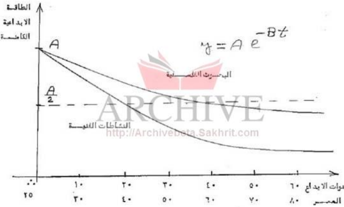
حيث C متغير يختلف بالقيمة بين مبدع واخر

a, b ثوابت تختلف من نشاط ابداعي الى آخر

P عدد الاسهامات الابداعية التي قدمت في السنة t

تدل المعادلة والمنحني البياني ان القدرة الابداعية الكامنة لاتترجم الى عمل ابداعي فعلي مرة واحدة بل قد تمتد لغاية / ٦٠/ سنة كما ان للمعادلة والمنحني علاقة بالحماس والخبرة وعادة يكون الحماس في سن مبكرة ويتناقص بعد الاربعين من العمر، بينما تزداد الخبرة مع مرور الزمن ولهذا يختلف الابداع من نشاط الى آخر فمثلا الشعراء يحتاجون عادة للحماسة اكثر من الخبرة ولهذا يظهر ابداعهم في سن مبكرة، بينما الذروة الانتاجية في مجالات بحثية كالتاريخ والفلسفة لايتم الوصول اليها الا في مرحلة الستينات من العمر، فالذروة الابداعية للمؤلفات الموسيقية العظيمة تحدث بين ٢٥-٢٩ سنة وفي انتاج السيمفونيات مابين ٣٠-٣٤ سنة وفي موسيقي الغرفة بين ٣٥-٣٩ سنة وفي انتاج الاوبرا الخفيفة بين ٤٠-٤٤ سنة وهكذا، كما ان الذروة بالنسبة لكتابة النثر الادبي هي حوالي سن ٤٣ بينما الذروة بالنسبة لكتابة الروائع الشعرية يقع حوالي ٣٩ سنة وفي العلوم حوالي ٤٠ سنة، ومما يجدر ذكره ذروة النشاط الجسماني تقع عادة قبل/ ١٠/ سنوات من ذروة الابداع، كما ان سبب انخفاض الابداع والانتاجية يعود الى تناقص الحماس بعد الاربعين، بالاضافة لذلك قام الكثير من العلماء من بينهم العالم «دين كيث سايمنتون» في دراسة استهلاك الطاقة الابداعية الكامنة لدى المبدعين والعباقرة فتبين انها تشبه كثيرا مايحدث لدى المواد المشعة حيث لاتتفكك دفعة واحدة بل تدريجيا ووفق منحني أسسي وبالتالي نستطيع هنا ان نتحدث عن العمر النصفي للفروع المعرفية المختلفة والعمر النصفي للمبدع هو مقدار الزمن الذي يستغرقه المبدع ليحول ٥٠٪ من طاقته الابداعية الكامنة الى اعمال منجزة او قيد الانجاز وتعطى بحسب المنحني البياني الموجود في الشكل رقم / ٧/

حيث تمثل y الطاقة الابداعية الكامنة في السنة t
A الطاقة الابداعية الكامنة الكلية للمبدع
B ثابت يختلف من نشاط ابداعي الى آخر
T سنوات الابداع



الشكل رقم (٧)

العلاقة بين الطاقة الابداعية الكامنة وسنوات الابداع

ومن النتائج التي تم التوصل اليها الى ان نصف العمر الابداعي هو٩ ,١٣ سنة للنشاطات الفنية فإذا بدأ المبدع إبداعه في سن الخامسة والعشرين فيكون في سن ٣٩قد قدم نصف طاقته الإبداعية، بينما نصف العمر للنشاطات الابداعية البحثية في المجالات الثقافية هو ٦ ,٣٤سنة فاذا

بدأ المبدع في سن ٢٥ فإنه يقدم نصف طاقته الابداعية وهو في السن ٦٠ تقريبا، كما يلاحظ من المنحني ان الطاقة الإبداعية لاتنضب ابدا فالإبداع كالنشاط الشعاعي يقترب من الصفر لكنه لا يصل اليه ابدا وعادة عندما يبلغ المبدع سن الثمانين من عمره تظل لديه ٢٦٪ من الطاقة الابداعية الكلية وعندما يموت معظم المبدعين حتى ولو كانوا في سن متأخرة فانه يبقى داخل عقولهم ونفوسهم مايتراوح بين ربع تلك الطاقة وثلثها والواقع ان القدرة البيولوجية على البقاء وليس المقدرة العقلية هي التي تضع القيد الاكبر على نتائج الحياة الاجمالي.

٩) الخاتمة:

إننا مهما أردنا التعمق بهذه الدراسة فلايمكن الإحاطة بها بشكل كامل ومن المشاكل التي تعترض العلماء عند دراسة العباقرة ان الدماغ لايبقى بعد الموت، كما ان البقايا العظمية للرأس والجسم ليست كبيرة العدد ولاتبقى مع الزمن في حالة جيدة ويمكن بوجه عام ان نؤكد ان دماغ الإنسان لم يزدد حجمه منذ ٥٠ ألف سنة ومن الممكن ان يصغر حجم جسم الانسان مع مرور الزمن بينما يزداد دماغه وعقله وقد لوحظ تراجع ضرس العقل وانه يميل للاختفاء لكن لانستطيع قول كلمة الفصل، كما لانعرف ماذا ستقدم لنا الهندسة الوراثية من تأثير على الطاقات الابداعية لدى الاجيال القادمة وهل ستكون ايجابية ام سلبية سؤال كبير سنجيب عنه القرن القادم والذي يجعلنا لانصل الى الحسم ايضا هو أن الانسان وهو من احدث الكائنات الحية على الأرض لم يمض على وجوده اكثر من ٤ مليون سنة، بينما نجد مثلا ان النحلة قد ظهرت منذ ٤٥ مليون سنة على الاقل بل تواجد الانسان العالم لايتجاوز ٥٠ الف سنة وان ذلك يعتبر بمثابة ومضة اذا ماقورن مع ضخامة الأزمنة الجيولوجية، أي أننا لانستطيع في هذا الزمن القصير ان نقول بأن الانسان يتطور أو لايتطور؟ وهل الاجيال الحديثة تزداد ذكاء وابداعا عن الاجيال السابقة ام لا؟ ويرى بعض العلماء ان نترك الامر نحو عشرة ملايين سنة أخرى حتى نصل الى النتائج النهائية الامر الاخر المهم ان تطور العلوم

والتكنولوجيا وبقية النشاطات الابداعية الاخرى أصبحت تتطلب مؤسسات تضم عددا كبيرا من الباحثين بدلا من الاعتماد على الذكاء الفردي، لهذا نرى أن الدول العظمى الصناعية مثل امريكا لديها قرابة ٨٠٠ألف باحث وفي أوربا مايزيدعن ٤٥٠ ألف باحث وكان في الاتحاد السوفيتي السابق ١,٤ مليون عالم وتمتلك اليابان أكثر من ٤٠٠ ألف باحث حاليا.

أخيرا لابد من وقفة واعية في الوطن العربي الذي يعتبر مقصرا في مجال دراسة مواهب وابداع الاجيال ولايوجد حتى الآن أية احصائية يمكن اعتمادها عن نتائج اختبارات الذكاء على الاقل للطلاب في المدارس الابتدائية وليست هناك معلومات واضحة عن تطور الذكاء والابداع لدى الاجيال المتعاقبة، حتى أننا نفتقر تماما لمعرفة علمية وليست وصفية، حقيقة العباقرة والمبدعين والقادة لدى تراثنا القديم مثل القائد الكبير خالد بن الوليد والبطل صلاح الدين الايوبي والخليفة عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وعالم الاجتماع ابن رشد والطبيب العالم ابن سينا او الرازي والموسيقار الفارابي والشعراء أبي الطيب المتنبي والفلاسفة مثل أبي العلاء المعري وغيرهم الكثير وعلينا ان ندرك ان لاقيمة لأية أمة من الامم وليس لها مستقبل ولايمكن ان تنشأ حضارة لهاويكون لها موقع قدم بين حضارات الامم الاخرى في عصرنا اذا لم تهتم وترعى الطاقات الابداعية لدى أجيالها وتعتمد على العلم والتكنولوجيا والبحوث في مختلف النشاطات الابداعية، إن كل مانطلبه من المبدعين عالميا وقوميا ووطنيا هو ان يكون اتجاههم باستمرار نحو الخير ونحو مصلحة البشرية والطبيعة معا مبتعدين عن المبدعين الاشرار المزيفين الذين اساؤوا بالحقيقة للحياة اكثر مماقدموا لها.

المراجـــع :

- كتاب العبقرية والابداع والقيادة

«دين كيث سايمنتون»

- كتاب الموهوبون

«ريمي شوفان»

- الطاقات الهائلة للانسان وتحديات العصر

«م . عبد اللطيف زرنه جي»

- جوائز نوبل

«م . عبد اللطيف زرنه جي»

مجلة المهندس العربي

«العدد ١١٤/ ١٩٩٤»

- مختارات متنوعة

❊ ❊ ❊

العلمانية شعار أيديولوجي أم استجابة حضارية

كريم أبو حلاوة

تبدو استجابات الفكر العربي المعاصر، ازاء الأزمات والمشكلات التي يطرحها الواقع العربي، متأخرة ومرتبكة وشكلانية في غالبيتها. فهي تتخذ صيغ الوعظ والنصح تارة وتلبس لبوس الحلول السحرية والوصفات الجاهزة تارة اخرى. وقليلة هي المحاولات التي تتعامل مع البحث

* باحث من سوريا، ماجستير في الفلسفة، ينشر في العديد من الدوريات العربية والمحلية.

والتنقيب كاسلوب لاستكشاف الجوانب المختلفة للظواهر، دون تبني مواقف مسبقة ومنهجيات معدة سلفاً صالحة في نظر اصحابها لكل زمان ومكان.

لاتدعي هذه الدراسة امكانية تفسير ناجز للوحة المرسومة بخطوطها العامة اعلاه. لكنها محاولة لتحديد التمفصلات الرئيسية وترتيب للأولويات قد يساهم في اعطاء العلمانية، كواحدة من ابرز تلك الاستجابات واكثرها مثاراً للجدل ولاختلاف، موقعها وحجمها. كما تطمح الى تقديم سماتها الاساسية وضروراتها. فما هي العلمانية، وكيف تعرّف عليها الفكر العربي ومتى؟.

اولاً: في مصطلح العلمانية ومسارها التاريخي:

يستدعي التداول الواسع والانتشار المتعاظم لمفهوم العلمانية المتزامن مع معنى غامض وملتبس، العودة الى اصل المفهوم، في محاولة لرصد مكوناته والتعرف على الانعطافات والسيرورات والانقطاعات التي شهدها في مجرى تكونه وتطوره وصولاً إلى صيغته الراهنة.

يتواجد مفهوم العلمانية في الثقافة الغربية منذ النصوص الفلسفية الكبرى التي تعود للقرن السابع عشر، ولكنه اقدم من ذلك بكثير من حيث الاشتقاق اللغوي. فكلمة «Laicos» اليونانية تعني الشعب خارج الاكليروس. اما في اليونانية المتأخرة (القرن الثالث عشر) فهي تسمي الحياة المدنية المضبوطة بقواعد الرهبانيات (١).

اما عبارة «Secularism» الانكليزية المستقاة من الكلمة اللاتينية «Saeculum» فانها تعني لغوياً الجيل من الناس؛ والتي اصبحت تشير لاحقاً إلى العالم الزمني في تميزه عن العالم الروحي.

ومنذ دخولها اللغة العربية ثار خلاف حول نسبتها؛ فهناك من ينسبها الى العلم (علمانية) بكسر العين في حين ينسبها فريق آخر الى العالم (علمانية) ولكل من الاتجاهين تفسيره، ومبرراته. لن نتوقف عند هذا الخلاف لان الاهم هو رصد الخصائص المشتركة للعلمانية عند الاتجاهين.

فالبون ليس كبيراً بين الاهتمام بشؤون العالم وبين الاهتمام بشؤون العلم. فالعلم الحديث مرتبط بالعالم لزوماً وهو بطبيعته زماني، لايزعم الخلود، والحقائق العلمية نسبية وقابلة للتصحيح والتجاوز دائماً. ولم يكن العلم الحديث ممكناً إلا مع التحولات الاجتماعية الكبرى التي افضت الى انتزاع امور الدنيا من المؤسسات الدينية التقليدية وتركيزها في يد السلطة الزمنية. في حين يربط الرأي الآخر بين العلمانية ومعنى العالم، اي بما يحدث في هذا العالم وعلى الأرض مقابل الامور الروحانية التي تتعلق بالعالم الآخر. وعليه فالمعنيان مكملان لبعضهما ومتلازمان، (٢) إلا في حال النظر الى العلم بمعناه الضيق الوضعي «Positivism» واعتباره عقيدة، عندئذ يحدث استبدال العقيدة الدينية بالعقيدة العلمية بالمعنى الدوغمائي الضيق ويكون الفضاء الدلالي والمعرفي لنسبة العلمانية الى العالم ارحب واكثر دقة وضبطاً.

نستخلص مما سبق ان العلمانية ليست بالظاهرة التي يمكن توصيفها ببساطة ويسر، فهي جملة من التحولات التاريخية (السياسية والاجتماعية والثقافية)، وهي تتدرج في اطار اوسع من مجرد التضاد بين الدين والدنيا كما هو شائع وتنطوي على وجوه عدة: وجه معرفي يتمثل في نفي واستبعاد الاسباب الخارجة على الظواهر الطبيعية والتاريخية - اي المتيافيزيقية - وفي إلتشديد على التحول التاريخي الدائم. ووجه آخر مؤسسي يتمثل بالنظر الى المؤسسة الدينية باعتبارها مؤسسة خاصة تضم دور العبادة وانظمتها ومستلزماتها. ووجه سياسي يتمثل في عزل الدين عن السياسة (الدولة)؛ واخيراً وجه أخلاقي قيمي يربط الاخلاق بالتاريخ والضمير. مما يعني ان للعلمانية اشكالاً ومسارات تعتمد على الظروف التي نشأت عنها وتنطوي على تواريخ حقيقية غير ايديولوجية، لهذا فهي ليست شأناً ناجزاً وتام التحقق او غير ممكن التحقق، بل هي سيرورة تاريخية قابلة للبقاء والتطور كما انها قابلة للانتكاس والتراجع، الأمر الذي يتعلق بالقوى التي تساندها أو تعارضها على أرض الواقع الاجتماعي.

يعود تعرف الفكر العربي على العلمانية الى الالتقاء الأول مع الغرب في أواخر القرن الثامن عشر، حيث كان العلم الاوربي في اوج عطائه فتمكن آنذاك من ابهار العقول وبناء آمال وطموحات اوصلت الى استخلاص نتائج غير دقيقة بل ومتعارضة مع العلم ذاته. وقد عبر مفكرون عرب كبار عن هذا الانبهار وتبنوا الرؤيا العلمانية مؤكدين ـ ان الخلاص من تخلف العصور الوسطى لن يتم إلا بأخذ وتبني النموذج الاوربي بكل عناصره! . (٣) وقد اتسمت تلك العلمانية بسمات ثلاث هي اولاً: انها كانت ايجابية، بمعنى انها تسعى الى تحقيق هدف حضاري هو بناء المجتمع على النموذج الاوربي. ثانياً: انها كانت مشروعاً متكاملاً يستهدف تحديث كل جوانب الحياة العربية على النمط الغربي (تجربة محمد علي). ثالثاً: كانت موجهة ضد أوروبا، وهنا المفارقة، فالاقتداء بأوروبا يهدف الى التخلص منها؛ باعتبار ان التقدم العلمي والتقني في الغرب يمثل تحدياً لايمكن مواجهته وقهره إلا بتقدم مماثل. وبعد مرور المجتمع العربي بتجارب متعددة ابان الاستقلال لم يعد التحرر من الاستعمار هو الهدف المسيطر، بل أخذت قضايا الوحدة والتنمية والعدالة تستقطب صراع اتجاهات عدة: ليبرالية وقومية ويسارية ودينية. وأصبح للعلمانية خصائص جديدة من ابرزها: انها دفاعية لاتمتلك ولاتستهدف بناء مشروعها الخاص بقدر ماتعبر عن رفض التصور السلفي الديني الذي لن يؤدي برأي العلمانيين الى حل المشكلات الحقيقية للمجتمع. بهذابات من مطالب العلمانية توفير الشروط الصحيحة التي يدور في اطارها اي صراع أو حوار اجتماعي. الى ان يكون صراعاً على أرض بشرية يمكن من الاختيار بين البدائل العديدة دون احتكار الاستناد الى مرجعية سماوية يلغي شروط الصراع اصلاً(٤). هذا المطلب تحديداً هو الذي فتح باب الانتقادات الموجهة للعلمانية. ونظراً لأهمية تحليل هذه الانتقادات فسوف نستعرض ونناقش ابرزها، خصوصاً التي تمتلك مسحة علمية أو مستوى معرفي ولو في حدوده الدنيا. علماً ان الانتقادات الخطابية

ذات الطابع الايديولوجي الدعائي للعلمانية لاتقل تأثيراً عن سابقاتها. فما هي الانتقادات الموجهة للعلمانية ومامدى مطابقتها للواقع بمعيارين: معيار المشروعية التاريخية اولاً، ومعيار المصداقية المعرفية ثانياً؟.

آ-العلمانية خاصة أوربية: يؤكد نقاد العلمانية على انها اتجاه ظهر في المجتمعات الاوروبية كتعبير عن ضرورة تاريخية مرتبطة بالظروف الخاصة التي مرت بها اوربا اثناء انتقالها من العصور الوسطى الى العصر الحديث. وان اعتناق وتبني العلمانية في مجتمعات غير اوروبية يعني محاكاة ببغائية تنم عن انعدام الشخصية(٥). ثم ان الصراع بين العلم والدين خاصية كاثوليكية، مثلها مثل وجود الكنيسة ورجال الكهنوت، الأمر الذي لايوجد مقابل له في الاسلام باعتباره ديناً ودنيا. وبالاعتماد على الاعتبارات السابقة «فالعلمانية ليست سبيلنا إلى التقدم.. بل ولا حتى لمواجهة قوى التخلف.. وانما السبيل هو الوعي والفقه لحقيقة موقف الاسلام: الدين»(٦). وعليه يرى محمد عمارة ان «المستغربون استعاروا مشكلة أوربية كي يستعيروا لها حلاً أوربياً»(٧).

ان اول مايلاحظ على الانتقادات السابقة هو الفهم السطحي للعلمانية، حيث تختزل الى مجرد الفصل بين الدين والدولة وبالتالي الى رفض وصاية المؤسسة الدينية على الشؤون الدنيوية في المجتمع، وهذه احدى خصائص العلمانية النضالية التي سادت فرنسا بظروفها الخاصة وثورتها والتي ادت الى انفصال الكنيسة عن الدولة نهائياً. في حين ينطوي الفهم الاعمق والاشمل للعلمانية على اعتبارها مجموعة من القيم العقلية تستهدف احراز استقلال الفكر وضمان حريته ازاء تحليل ونقد العقائد والايديولوجيات (سياسية-دينية). انها موقف للروح امام مشكلة المعرفة كما يقول محمد اركون: «بمعنى حق الانسان في معرفة اسرار الكون والمجتمع اعتماداًعلى عقله وخبراته، بهذا لاتكون العلمانية موقفاًمن الدين فقط.. بل من قضية المعرفة. والعلمانية الفلسفية ليست الكفر، انها بحث

عن المعرفة يدخل فيه الدين ايضاً، تقول بالدين وتبحث به بحثاً علمياً ولاتقصد هدمه البتة. فهدف كل موقف علمي هو فضح الثوب التنكري التمويهي الذي ارتداه الفكر الاسلامي العربي»(٨).

ثم هل يشكل الاضطهاد الذي مارسته المؤسسة الدينية على العلماء في اوربا العصور الوسطى حالة خاصة، أم انه صفة لكل عقيدة شمولية تستدعي محاربة كل من يخرج عليها تحت اسم البدعة او الكفر أو الهرطقة أو الانحراف؟. وبالعودة الى التاريخ العربي الاسلامي يمكن العثور على فترات لاقى فيها العلم والعلماء كل الرعاية والتشجيع وهذا ماتحاول السلفية تعميمه على كل التاريخ الاسلامي، كما يمكن العثور على فترات اخرى عانى فيها العلماء والفلاسفة شتى ضروب الاضطهاد والقمع. وإلا كيف نفسر الاضطهاد الذي عاناه المعتزلة واخوان الصفا والكثير من المتصوفة كالحلاج وابن عربي وغيرهم؟ وبماذا نفسر احراق كتب ابن رشد وانكاره الإشتغال بالفلسفة امام الخليفة الموحدي «ابا يوسف» ثم اعترافه بذلك بعد ان طمأنه الاخير بانه هو الآخر على صلة وثيقة بها!. كيف استطاعت فلسفة الغزالي (ابو حامد) ان تتسيد مع التيار الاشعري وتصبح الممثلة الرسمية للفكر العربي الاسلامي طيلة قرون عديدة مقابل انحسار التيار العقلاني من هذه الفلسفة؟. وبالإنتقال الى العصر الحديث ماذا نقول عن هروب الكواكبي الى مصر، ومصادرة كتاب الشيخ الازهري علي عبد الرزاق وفصله من هيئة الازهر. وهل يكفي التذكير بما حلّ بكتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» والموقف من مؤلفات محمد احمد خلف الله وصادق جلال العظم ونصر حامد ابو زيد وغيرهم. المشكلة إذاً بالعقائد المغلقة التي يعتقد اصحابها إنهم يملكون الحقيقة كلها ويقسمون البشر الى اهل الحق وهم أصحاب هذه العقيدة او تلك (كل حسب انتمائه) وإلى اهل الباطل الذي لاينتمون الى هذه العقيدة. بهذا يحسم مناهضو العلمانية التفكير الحر أي نقاش قبل ان يبدأ. وعليه لاتكون العلمانية ضرورية للتخلص من عصور

الظلام في اوربا الوسيطة فقط، بل هي ضرورية للتخلص من التعصب والجمود الفكري ومحاصرة الحريات، ان العصور الوسطى ليست مرحلة زمنية فقط، انها حالة ذهنية وعقلية متكلسة تستدعي العلمانية اينما واني وجدت لمواجهتها وتجاوزها.

ب ـ ان عبارة «الاسلام دين ودنيا»(٩) التي يتم تداولها كبديهية غير قابلة للنقاش، هي الاساس الذي يستند إليه نقاد العلمانية، والدين الاسلامي يخلو من المؤسسة الدينية ومن رجال الكهنوت، وبهذا تكون الدعوة الى فصل الدين عن الدولة دعوة مستوردة وغريبة عن روح مجتمعنا وجوهره الاصيل(١٠).

تستدعي الاجابة المتأنية على هذه النقطة اجراء دراسات ومقارنات تهدف الى توضيح وجوه التشابه او التباين بين اوربا الوسيطة ودور الكنيسة وموقعها فيها وبين علاقة الاسلام بالمؤسسة الدينية. لاتدعي هذه الدراسة امكانية القيام بها. غير ان ذلك لايمنع من طرح بعض التساؤلات: الم تكن الكنيسة الكاثوليكية سلطة روحية وزمنية في آن معاً، او لم يؤول قول السيد المسيح «اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» تأويلاً مختلفاً عند مسيحيي العصور الوسطى! ثم ماهو دور وصلاحيات مؤسسة الازهر وهيئة كبار العلماء وهيئة الافتاء فيما يتصل بشؤون الحياة والمجتمع الاسلاميين! . وبعد، ماذا يبقى من كلام الذين يعتبرون العلمانية مؤامرة على الاسلام، وهي نتاج يهودي تلمودي أصيل، ومن ثم يؤكدون على الربط بين العلمانية والماسونية ومخططات الصهيونية والثورة الفرنسية وعصر التنوير. كيف تسنى لهؤلاء وضع اليهود والماسونية مع الثورة الفرنسية وعصر التنوير في سلة واحدة، ألا ينم هذا عن جهل بالتاريخ أو انه في احسن الاحوال تجاهل لعقل القارىء. فالكلام عن عصر التنوير والثورة الفرنسية بهذه الطريقة الهجائية لايقلل من اهمية الانجازات التي تحققت في هاتين اللحظتين: فالنقلة التي قام بها مفكرو الانوار في مجال الفكر واله جود بجعلهم الانسان الفرد مركز

الاهتمام بغض النظر عن مشروطيته الدينية ايا كانت، جعلت منه قيمة بحد ذاته. ومن الواضح ان التقدم العلمي والتقني وازدهار البرجوازية في القرن الثامن عشر قد اتاح لمفكري التنوير تحقيق هذه النقلة النوعية الكبرى. كانت تلك المقدمات اضافة الى الحروب الدينية الطويلة بين البروتستانت والكاثوليك طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر، هي الاسس التي نهضت عليها ايديولوجيا مستنيرة ترتفع فوق الحساسيات المذهبية والدينية وتفتح افقاً للمستقبل شكل قطيعة معرفية مع مفاهيم وتصورات العصر الوسيط وافضت إلى تشكل المجتمع المدني في دول اوربا على اساس المواطنية القومية. وقد قامت الثورة الفرنسية بتغيير نظام المشروعية؛ فبعد ان كان يستند الى القاعدة اللاهوتية والمذهبية اصبح يرتكز على قاعدة الاقتراع العام والتصويت وارادة الاغلبية. هذه السيرورة التاريخية التي استغرقت اكثر من قرنين وسال من اجل تحقيقها الكثير من الدماء والحبر ايضاً يجعل من الصعب القبول بتهميشها وهجائها ببساطة.(١١)

كما ان القول بالعلمانية لايعني تجاهل التراث او نسفه، فتاريخ اوربا قد شهد تطور العلمانية جنباً الى جنب مع دراسة التراث واحيائه من قبل الانسانيين «Humanism» ولم يكن هناك تعارض بين: التوجهين كما يحلو لنقاد العلمانية عندنا والذين يعتبرون انفسهم حماة التراث. لهذا لانستطيع برأيهم ان نحافظ على هويتنا ونتمسك بجذورنا إلا برفض العلمانية، متجاهلين ان قوام العلمانية مرتكز الى مجموعة من القيم العقلية وامتلاك روح النقد والتمسك بالمنطق العلمي، وان هذه القيم لاتقتصر على الحضارة الاوروبية وحدها، بل ان لها جذوراً في عمق الحضارة العربية الاسلامية، وهي امتداد لتراث المعتزلة والفارابي وابن الهيثم وابن رشد وغيرهم. من هنا تبرز اهمية القراءات المعاصرة للتراث التي قام بها عدد من الكتاب والمفكرين العرب، مثال: محمد اركون، طيب تيزيني، نصر حامد ابو زيد وغيرهم. تلك القراءات التي تنظر الى التراث في اطاره التاريخي ولاتعتبره مثلاً أعلى

يجب تطبيقه، بل خبرة بشرية بكل ماتنطوي عليه من مزايا ومثالب، ومن هنا فهي لاتستبدل الحاضر السلبي بالماضي الايجابي استبدالاً ذهنياً كما يفعل السلفيون، بل تؤكد انه لايمكن الاستفادة من التراث بل ويصعب حفظه إلا من خلال دراسته ونقده وإلا فستبقى في اسار التبعية للماضي في مواجهة الحاضر، وهذه واحدة من ابرز خصائص الخطاب السلفي المعاصر. ولايقل عن هذا المثلب مطلب الاقتداء بالغرب واعتباره النموذج الذي يحتذى عبر استحضار مرجعياته ونقل مفاهيمه ومنهجياته هكذا على عواهنها بغض النظر عن حاجات ومشكلات مجتمعنا، أي عبر التفريط بالعلاقة بين العام والخاص بين الداخل والخارج أي عبر الوقوع في إسار الاستغراب «Westvaisation» والتطويح بخصوصيتنا الاجتماعية والتاريخية.

والآن، كيف يمكن الانتقال من علمانية الشعار الايديولوجي واللغة السجالية التي كثيراً ماوسمت الفكر العربي المعاصر الى علمانية اخرى اكثر رحابة وايجابية تشكل موقفاً شاملاً ومتماسكاً حول قضايا الانسان والدين والمجتمع، وتفسح المجال للتنوع والتمايز مرتكزة على التعددية والاعتراف بالآخر، وتكون بالتالي مبدأ اصيلاً وضرورياً للبشرية كلما نشب الصراع بين استقلالية الفكر وخضوعه؟(١٢). وماهي الخصائص الاساسية التي تشكل قوام هذه العلمانية وماهي ضروراتها؟.

اولى خصائص العلمانية هي «القدرة الاستيعابية التي توفرها للمجتمعات المعاصرة المتكثرة الاديان والطوائف والاعراق. انها توفر لها جميعاً الاطر المرجعية المحايدة للحوار فيما بينها، وتوفر لها الارضية العمومية للمصالح المشتركة التي يمكن الاحتكام اليها عند اللزوم، كما توفر لها المقولات الكلية والتصورات المعرفية العابرة للخصوصيات الدينية التي تتحول إلى ادوات تتوسط التناقضات الايمانية، والى ميكانزمات وآليات عمل لامتصاص الصدمات والهزات التي لابد وان تعصف بمثل هذه المجتمعات من حين لآخر»(١٣).

ثاني هذه الخصائص «الحياد الايجابي للدولة باجهزتها وادواتها وممثليها ومؤسساتها ازاء الاديان والمذاهب والطوائف والاعراق»(١٤). تتبدى اهمية هذه الخاصية اثناء غياب دور الدولة وفي فترات اندلاع الحروب الاهلية؛ فمن لبنان إلى افغانستان الى جمهوريات يوغسلافيا السابقة، وانتهاء بالوضع المأساوي في«رواندا» يبين بوضوح كم هي مرعبة ولاعقلانية محاولات السيطرة وتكريس التفرد لاي طرف عبر العنف والغاء الآخر؛ حتى ولو كان الثمن دفع الجميع الى الهاوية، وحصيلة المليون شخص في رواندا ـ حسب تقديرات الامم المتحدة ـ في صراع لم يحسم بعد، شاهد يطال اكثر من بعد من ابعاد الحضارة الانسانية على مشارف القرن الحادي والعشرين. فهل ينطوي كل هذا الخراب على حكمة ما، وهل لنا ان نكلف انفسنا عناء البحث عنها!.

وثالث هذه الخصائص «المساواة بين جميع المواطنين ذكوراً واناثاً امام القانون، ومساواتهم في الفرص والمسؤوليات والواجبات والحريات.. الخ. بغض النظر عن قناعاتهم الدينية، وبغض النظر عن انتماءاتهم المذهبية أو الطائفية او الميتافيزيقية او غيرها» (١٥). فالعلمانية بهذا المعنى ضرورة اجتماعية وسياسية لما توفره من اتساع في مجال الحريات بالمقارنة مع اي حكم ذي طابع ديني او مذهبي يمكن الاغلبية من اضطهاد الاقليات ويقوي المذهب السائد على المذاهب المسودة الاخرى. فالحريات العامة وخصوصاً حرية الاعتقاد والتفكير يمكن ان تقيد وتهدر إذا كان الحكم مستنداً إلى حقائق مطلقة تعتبر كل من يخالفها منحرفاً. ووفقاً للإعتبارات السابقة تكون العلمانية حاجة دائمة تفرض نفسها كضرورة معرفية على كل مجتمع مهدد بطغيان التفكير الغيبي السلطوي ومهدد بقولبة التفكير وانتزاع القدرة على التساؤل والنقد والبحث المستقل (١٦).

ولكي تكون العلمانية استجابة حضارية بالمعنى الشامل لابدّ لها من مواجهةوتجاوز بعض التحفظات: يتعلق التحفظ الاول بقدرة العلمانية، في

اطار مواجهة العقائد الاخرى، على عدم التحول الى عقيدة جامدة جديدة؛ ولايفيد هنا تمسكها بصفة العلمية، مما يجعل نقدها متعذراً والخروج عليها انحرافاً وتاريخ الايديولوجيات الكبرى مليء بالامثلة على هذا النوع من الدوغمائيات.

في حين يقوم التحفظ الثاني على تحول العلمانية، من سيرورة تاريخية قابلة للتقدم والازدهار كما انها قابلة للانحسار والتراجع، الى صغة جاهزة لحل جميع المشكلات، اي ان تتحول الى شعار ايولوجي سرعان مايفرغ من مضمونه اسوة بالشعارات الايديولوجية الأخرى.

اما ثالث هذه التحفظات فانه يكمن في تبني العلمانية مواجهة الدين، علماً انها لاتساوي الالحاد، بل تعني التصرف وفق مقتضيات العقل المتحرر والنقدي. فالتعارض او التوافق بين العلم والدين بين العقل والشريعة مقولة قروسطوية عتيقة لم تعد تناقش. والعلم الحديث يهتم ـ ضمن مايهتم به ـ بطبيعة المعرفة الدينية ويحاول فهمها وتفسيرها وهناك العديد من الفروع المعرفية المتخصصة بهذا النوع من المعارف، وليس علم الاجتماع الديني إلا واحداً من هذه الفروع.

آخر هذه التحفظات هو ان يبقى ارتباط العلمانية بالديمقراطية شكلانياً وان لايطال الاهتمام ببنى ومؤسسات المجتمع المدني «civilsoceoty». فتعميق البعد الديمقراطي للعلمانية بما ينطوي عليه من تعددية واعتراف بالآخر وبحقه بالتمايز والاختلاف وصولاً إلى الاهتمام بالفاعلين الاجتماعيين مما يشكل اعمق مضامين العلمانية واكثرها جوهرية(١٧). وقد شهدت العديد من تجارب التاريخ ان العلمانية يمكن ان تكون غير ديمقراطية في بعض المراحل او المجتمعات، بينما تبقى الديمقراطية علمانية ومنفتحة. بهذا فقط تتحول العلمانية من شعار ايديلولوجي الى استجابة حضارية يمكن ان تضيء سبيلاً في هذا الليل العربي الطويل.

مراجـــع وهوامـــش

(١) العظمة ، عزيز : العلمانية من منظور مختلف ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٩٩٢ ، ص١٨ .

(٢) زكريا ، فؤاد : العلمانية ضرورة حضارية ، قضايا فكرية ، الكتاب الثامن ، تشرين أول ، ١٩٨٩ ، ص٢٧٣ .

(٣) العظمة ، عزيز : مرجع سابق ، ص ٢٧

(٤) زكريا ، فؤاد : مرجع سابق ، ص٢٧٤

(٥) أنظر محمد مهدي شمس الدين : العلمانية ، المؤسسة الجامعية للأبحاث ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٦٢ . وكذلك أنظر : محمد يحيى : في الرد على العلمانيين ، الزهراء للاعلام العربي ، القاهرة ٩٨٨ ، ص١١ ـ ١٣ .

(٦) انظر : محمد عمارة : الاسلام والعروبة والعلمانية ، دار الوحدة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٦١ ـ ٦٤ .

(٧) عمارة ، محمد : جريدة الحياة ، عدد ٢٢ ـ ٨ ـ ١٩٨٩ .

(٨) أركون ، محمد : في حديث لمجلة الاحياء العربي ، العدد ـ ٥ ـ تشرين أول ١٩٧٩ ، ص١٣ .

وأنظر أيضاً : طه حسين حيث يقول : «ان المشكلة ليست في الدين ، وإنما في الدين عندما يصبح أداة من أدوات السلطة» عن كتاب قضايا ، وشهادات ـ صيف ١٩٩٠ ، ص٤١٦ .

(٩) أنظر الحوار بين الجابري وحسن حنفي على صفحات اليوم السابع ٣نيسان ١٩٨٩ .

هكذا نجد أن المفكر العربي ، وبدلاً من أن يشكك في بديهية الأفكار الاجتماعية الشائعة ؛ يصادق عليها ، ويأخذها دون مناقشة ! ؛ فيما أن الجميع يقولون : لاكهنوت في الاسلام ، كما هو موجود في المسيحية ، وبالتالي فالعلمانية ليست واردة في الاسلام فانه يقول مثلهم !؟

(١٠) الجندي ، أنور : سقوط العلمانية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٣ ، ص١٠٧ .

(١١) صالح ، هاشم : الثقافة العربية في مواجهة الثقافة الغربية والتحديات ، الوحدة العدد ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٩٩٣ ، ص٢٠ ـ ٢١ .

(١٢) زكريا ، فؤاد : مرجع سابق ، ص٢٨٩ .

(١٣) العظم ، صادق جلال : العلمانية في الفكر العربي الحديث ، محاضرة ألقيت في الأسبوع الثقافي الأول ، في جامعة دمشق ، نيسان ١٩٩٤ ـ ص٥ .

(١٤) و (١٥) العظم، صادق جلال: المرجع السابق، ص٦. وانظر أيضاً: عادل ضاهر: الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقي، لندن ١٩٩٣، ص٤٠٠، حيث ورد تعريف شبلي العيسمي للعلمانية بأنها «جملة من التدابير جاءت وليدة الصراع الطويل بين السلطتين الروحية والزمنية.. واستهدف فك الاشتباك بينهما واعتماد فكرة الفصل بين الدين والدولة، مما يضمن حياد الدولة تجاه الدين، أي دين، ويضمن حرية الرأي.. ويمنع رجال الدين من اعطاء آرائهم صفة مقدسة».

(١٦) زكريا، فؤاد: مرجع سابق، ص ٢٩٤.

(١٧) برقاوي، أحمد: محاضرة ألقيت في الاسبوع الثقافي الثاني، بجامعة دمشق، ١٩٩٥ بعنوان «العلمانية بوصفها أيديولوجيا» ص٢٤.

❊ ❊ ❊

السومريون

محمد نبهان

تعريف عام بالسومريين:

يقول المؤرخ الأمريكي الشهير ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة، في الفصل الخاص بالسومريين إذا عدنا إلى خريطة الشرق الأدنى وتتبعنا المجرى المشترك المكون من نهري دجلة والفرات من مصبه في الخليج العربي إلى أن ينفصل المجريان، عند بلدة القرنة الحديثة، ثم تتبعنا نهر الفرات متجهين الى الغرب، وجدنا في شماله وجنوبه المدن السومرية القديمة وهي

- محمد نبهان: باحث من سورية، يهتم بالدراسات التاريخية وتاريخ الحضارات القديمة.

أريدو (أبو شهرين الحديثة) وأور (المقبرة الحديثة) وأوروك (وهي المسماة أرك في التوراة، والمعروفة الآن باسم الوركاء) ولارسا (المسماة في التوراة باسم الأسار والمعروفة الآن باسم سنكرة) ولكش (سبرلا الحديثة) ونبور (نفر) لتتبع بعدئذ نهر الفرات في سيره نحو الشمال الغربي إلى بابل التي كانت في يوم من الأيام أشهر بلاد الجزيرة (أرض مابين النهرين) نجد إلى شرقها مباشرة بلدة كش مقر أقدم ثقافة عرفت في هذا الإقليم.

ويقول ديورانت - انقضى عهد السومريين ولكن حضارتهم لم يقضى عليها فقد ظلت سومر وأكد تخرجان صناعاً وشعراء وفنانين وحكماء ورجال دين، وانتقلت حضارة المدن الجنوبية إلى الشمال على طول مجرى الفرات ودجلة حتى وصلت إلى بلاد بابل وآشور، وكانت هي التراث الأول لحضارة الجزيرة.

وعلى هامش الصفحة الأولى من بحث السومريين لديورانت سجل مترجم الكتاب الأستاذ محمد بدران.

«لقد كان كشف هذه الحضارة المنسية من أروع القصص الروائية وأكثرها غرابة في علم الآثار، لقد كان الرومان واليونان واليهود، وهم الذين نسميهم القدماء جهلاً منا بالمدى الواسع لأحقاب التاريخ، لايعرفون شيئاً عن سومر»، ولعل هيرودوت لم يصل إلى علمه شيء عن هذه الأقوام، وإذا كان قد وصل إلى علمه شيء عنهم فقد أغفل أمرهم لأن عهدهم كان أبعد عنه من عهده هو إلينا، ولم يكن مايعرفه بروسس وهو مؤرخ بابلي كتب عنهم حوالي ٢٥٠ قبل الميلاد عبر مزيج من الخرافات والأساطير، فقد وصف في تاريخه جيلاً من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى أوانس خرج من الخليج العربي، وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة. ثم يقول - وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم، ولم يخترع منذ ذلك الوقت شيء ماحتى الآن.

يقول ديورانت في بحثه الآنف الذكر - حاول الكهنة المؤرخون في

هذه الأثناء أن يخلقوا ماضياً يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومرية. فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين، ورجعوا بالأسر المالكة التي حكمت قبل الطوفان الى ٤٢٢٠ عام، ورووا عن اثنين من هؤلاء الحكام وهما - تموز وجلجامش من القصص المؤثرة ماجعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة في الأدب البابلي، أما تموز فقد انتقل إلى مجمع الآلهة البابليين، وأصبح فيما بعد أدونيس اليونان، ولعل الكهنة قد غالوا بعض الشيء في قدم حضارتهم ولكن في وسعنا أن نقدر عمر الثقافة السومرية تقديراً تقريبياً إذا لاحظنا أن خرائب نيبور تمتد إلى عمق ست وستين قدماً، وأن مايمتد من أسفل آثار سرجون ملك أكاد يعدل مايمتد فوق هذه الآثار إلى أعلى الطبقات الأرضية (أي إلى بداية القرن الأول الميلادي). وإذا حسبنا عمر نيبور على هذا الأساس رجع بنا الى عام ٥٢٦٢ق.م ويلوح لنا أن أسراً قوية من ملوك المدن متمسكة بعروشها قد ازدهرت في كش حوالي عام ٤٥٠٠ق.م وفي أور حوالي عام ٣٥٠٠ق.م.

أصل السومريين

إذا غضضنا النظر عن حالة الإنبهار التي تطبع كتابات المؤرخ ول ديورانت في بعض جوانبها حول أصل السومريين الذي جاء في بحثه..

ليس في وسعنا رغم ماقام به العلماء من بحوث أن نعرف إلى أية سلالة من السلالات البشرية ينتمي هؤلاء السومريون، أو أي طريق سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر، ومن يدري لعلهم جاؤوا من آسيا الوسطى، أو من بلاد القفقاس أو من أرمينيا واخترقوا أرض الجزيرة من الشمال متتبعين في سيرهم مجرى دجلة والفرات - حيث توجد، كما في آشور مثلاً شواهد دالة على ثقافتهم الأولى، أو لعلهم قد سلكوا الطريق المائي - من الخليج العربي - كما تروي الأساطير. أو من مصر أو غيرها من الأقطار، ثم اتخذوا سبيلهم نحو الشمال متتبعين على مهل النهرين العظيمين. أو لعلهم جاءوا من السوس حيث يوجد بين آثارها رأس من الإسفلت فيه خواص الجنس

السومري كلها، بل إن في وسعنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك كله فنقول إنهم قد يكونوا من أصل مغولي قديم موغل في القدم ذلك لأن في لغتهم كثيراً من التراكيب الشبيهة بلسان المغول - لكن علم هذا كله عند علام الغيوب.

إذا غضضنا النظر عن تساؤلات المؤرخ الكبير ول ديورانت، وبغض النظر عن كتابات المؤرخ البابلي بروسس، الذي قال إنهم جاؤوا عن طريق الخليج العربي. إذا غضضنا النظر عن ذلك فهناك أمران لانستطيع غض النظر عنهما -

١- سكان العراق المعاصرون والقدامى، مهاجرون أصلاً من الجنوب أي من جزيرة العرب، يقول الكاتب العراقي المعاصر - عباس العزاوي في كتابه عشائر العراق، الصفحة ١١٧-

«القبائل البدوية في العراق أكثرها قريبة المهد في سكنى العراق وإن كانت أسماؤها معروفة في العراق منذ القديم، وذلك لأن هذه القبائل ذات جذور في الجزيرة العربية، وهذه الجذور تدفع إلى العراق بهجرات جديدة تحمل الأسماء القديمة.

وكلام الأستاذ عباس العزاوي مؤيد في مختلف المراجع القديمة والحديثة ومن هذه المراجع معجم قبائل العرب تأليف الكاتب السوري المعاصر عمر رضا كحالة، وكتاب جمهرة أنساب العرب للكاتب الأندلسي القديم - ابن حزم.

٢- قبائل شمر المعاصرة، وهي قبائل تسكن في شمال نجد في المملكة العربية السعودية، وفي معظم أراضي الجمهورية العراقية وفي شمال شرق أراضي الجمهورية العربية السورية، ومن أسماء فروع قبائل شمر - شمر خرصة وشمر سنجاره، وكذلك أسلم، عبده، الصايح . . . إلخ والمعروف أن هذه القبائل هاجرت خلال القرون القريبة الماضية من اليمن، وتذكر المراجع التاريخية أن شمر في بداية هجرتها كانت تُعَدُّ من قبائل طي، ثم

ضعفت قبائل طي تدريجياً وأخذت مكانها. إن المراجع التاريخية التي تتحدث عن بلاد اليمن، وأفضل هذه المراجع كتاب معجم البلدان والقبائل اليمنية تأليف الكاتب اليمني المعاصر إبراهيم أحمد المقحفي يفُهم منها أن الموطن الأصلي لقبائل شمر في بلاد اليمن في منطقة وادي مور التي تشمل محافظة حجة معظم أراضيها، إن الإسم - شمر - واضح التشابه مع اسم سومر القديم، والاسم سومر كما يقول مترجم كتاب قصة الحضارة ول ديورانت في الحاشية تعليقاً عليه - يكتبه بعض المؤرخين سومر والبعض الآخر شومر، وتقع محافظة حجة في الجهة الوسطى الغربية من بلاد اليمن مجاورة لمحافظة صنعاء العاصمة.

اليمن هي الأصل

على ضوء ماتوصلنا إليه في الموضوع السابق نستطيع الآن أن نحدد بعض المواطن الأصلية التي ينتمي إليها المهاجرون الأوائل الذين بنوا المدن السومرية في جنوب العراق، هذه المدن التي نرى أن معظمها يحمل أسماء المواطن الأصلية في بلاد اليمن، وسأختار من هذه المدن الأسماء التالية - أريدو، أروك نبور، وهي حسب ماذكره علماء الآثار وعلى رأسهم صموئيل كريمر من أهم المدن السومرية.

أريدو - ويبدو لي أن هذا الاسم يتشابه مع اسم - ريدان في بلاد اليمن. وريدان هذه يذكرها ابراهيم المقحفي في كتابه معجم البلدان والقبائل اليمنية، وقد مر ذكره - يقول المقحفي - ريدان حصن مشهور بالجنوب من مدينة بريم بمسافة ١٧كم، أعلى قاع الحقل، وبريم مدينة تقع جنوب مدينة ذمار بمسافة ٤٠كم (ذمار هذه محافظة تقع في جهة الجنوب الشرقي من بلاد اليمن). وإلى ريدان تنتمي الدولة الحميرية الشهيرة في بلاد اليمن قبل قيام الإسلام. يقول المؤرخ العراقي جواد علي في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الثاني ص٢١٢-٢٧٦ ماخلاصته - ملوك سبأ وذو ريدان يبدأ عهدهم عام ١١٥ق.م وينتهي عام ٣٠٠ب.م وكان الريدانيون عدة

قبائل عاشت في الهضبة التي عرفت باسم ريدان، تربطها روابط مختلفة. وتقع ريدان هذه على الطريق التجاري الرئيسي الممتد من عدن في الجنوب إلى شمال جزيرة العرب.

أورك - ويفهم من كتاب - من ألواح سومر لعالم الآثار الأمريكي صموئيل كريمر ص٤٣ وحتى الصفحة ٤٤٠ أن أروك هذه أو أرك كانت أهم مدينة في بلاد سومر في العراق، وأنها أخذت الأهمية كما تقول النصوص السومرية اغتصاباً من مدينة أريدو. وأعتقد أن أروك هذه هي مدينة صنعاء الحالية في بلاد اليمن.

ومازال يحمل اسمها قرية في ناحية بني الحارث المحيطة بصنعاء، يقول ابراهيم المقحفي في كتابه معجم البلدان والقبائل اليمنية - عروق - من قرى بني الحارث غربي مطار الرجة أرضها خصبة تشتهر بزراعة العنب بأنواعه، والنصوص السومرية وخاصة النصان المتعلقان بأنمركار وولده جلجامش، تتردد فيها أسماء مدن وقبائل مازالت حتى الآن معروفة حول مدينة صنعاء مثل «كوش» - قيش ومثل كلاب - كلب ومثل جيبار - جبور.

نيبور - يقول صموئيل كريمر في كتابه من ألواح سومر أن نفر هي المدينة السومرية الأكثر تمثيلاً للثقافة السومرية، وفيها وجد أكبر عدد من الألواح الطينية التي تمثل حضارة سومر، وأنا أرى أن اللفظين نيبور ونفر محرفان قليلاً، لأن الأسم الأصلي هو عفار، أضيفت له إشارة التكريم وهي نن عند السومريين فصار نن عفار، أدمجت في لفظة نفر. تقع عفار الحالية كما يقول ابراهيم المقحفي في كتابه معجم البلدان والقبائل اليمنية - على مقربة من كحلان تاج الدين في ناحية الشمال الشرقي من مدينة حجة مركز المحافظة التي يقول عنها حسين بن علي الويسي الكاتب اليمني المعاصر في كتابه اليمن الكبرى صفحة ١٢٦ - أنها شرقي حجة يفصلها عنها وادي شرس، ضمن سلسلة جبال كحلان و بالشرق من كحلان الأشمور (شمر) أودية شمال كحلان وعفار وشمال غرب الأشمور تجتمع بسيل وادي مور

النازل من العصيمات واخرف . . من أودية سلسلة جبال الشرفين المجاورة لحجة غرباً، وادي عاهم النازل إلى حيران ومياهه من شمال الشرق ومن جنوب وشحة وكشر وجبل قارة ثم وادي بوحل النازل إلى شمال عبس من أسلم والشرفين، ووادي قور النازل الى جنوب عبس . .

عاصمة اليمن القديمة

تحدثت في المواضيع السابقة بعجالة، لأنتهي إلى هذا الموضوع لأنطلق منه إلى رسم ملامح الثقافة القديمة للمنطقة ومنها بلاد العراق، لأن علماء الآثار لم يوفقوا بتحديد هذه الملامح .

يرد في كتاب من ألواح سومر لصموئيل كريمر في الفهرس الأبجدي لأسماء الآلهة، اسم - ننماخ وذلك بين عدد كبير من الأسماء، التي يبدو اسم ننماخ متواضعاً إزاء بعضها مثل - أنانا وأنكي وأنليل ومرد ذلك إلى جهل علماء الآثار بقيمة ننماخ . وعلى أي حال فإن مايورده صموئيل كريمر في كتابه من ألواح سومر يكفينا كبداية لمعرفة ننماخ - يقول كريمر في الصفحة ١٩٨ - تبدأ القصيدة (أي النص) بما يمكن أن يكون وصفاً للمصاعب التي كان يلاقيها الآلهة في الحصول على قوتهم، فكان الآلهة يتذمرون ويتشكون ولكن أنكي إله الماء الذي كان المتوقع منه أن يخف لنجدتهم بصفته إله الحكمة، ظل مضطجعاً في مياه العمق غير مكترث لشكاتهم، ثم نجد أن أمه الإلهة التي تمثل البحر الأول وهي الأم الأولى التي ولدت جميع الآلهة تأتي بدموع الآلهة إلى أنكي وتخاطبه قائلة -

يابني قم من فراشك ومن . . . . واعمل ماهو حكيم لائق

اصنع عبيداً للآلهة، وعساهم يضاعفون من عددهم(؟)

فتدبر الإله أنكي الأمر وقاد جميع الصناع المهرة اللائقين. وقال لأمه نمو آلهة البحر الأول -

ياأماه إن المخلوق الذي نطقت باسمه موجود، فاربطي عليه صورة الآلهة(؟)

اعجني لب الطين الموجود فوق مياه العمق

واجعلي الصانعين المهرة يكثفون الطين
وعليك أنت أن توجدي له الأعضاء والجوارح
وستعمل ننماخ الأم الآلهة من فوق يدك
وستقوم بجانبك إلهة الولادة في أثناء صنعك
ياأماه قدري مصيره
وسترِبط ننماخ عليه صورة الآلهة
إنه الإنسان

يفهم من هذا النص أن ننماخ كان لها الدور الرئيسي في خلق الإنسان لخدمة الآلهة، وفي الصفحة ٨٨، من المرجع السابق، وهو يدور حول إنشاء سد في وادي كور وهو واد في غرب بلاد اليمن يخاطب ننورتا الحاكم الذي قام بانشاء السد: ننماخ-

أيتها السيدة لأجل أن تأتي إلى كور
ياننماخ لأنك من أجلي عزمت على دخول تلك الأرض الجهنمية
ولأنك لم تخشي هول المعركة المحدقة بي
من أجل ذلك سأدعو التل الذي كدسته أنا البطل
وأسميه باسم خرساج لتكوني ملكته

هذه الصفة لننماخ، صفة المدينة العاصمة لبلاد اليمن يؤكدها سفر التكوين، وهو أقدم كتب التوراة، وأعتقد أن تاريخ كتابته غير معروف بالضبط، كما أن المصادر التي اعتمد عليها غير معروفة، وقد أكد سفر التكوين هذه الصفة لننماخ دون أن يسميها، وإنما أشار إلى الصفة التي تمتلكها، جاء في الاصحاح الأول من السفر -

وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم.

وجاء في الأصحاح الثاني من نفس المرجع-

وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد هناك المغل وحجر الجذع. واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النهر الثالث حداقل وهو الجاري شرقي أشور والنهر الرابع الفرات.

إن الأسماء الواردة في هذا النص وهي عدن، فيشون، الحويلة، حداقل، آشور، الفرات موجودة حتى اليوم في بلاد اليمن مع تحريف بسيط في بعضها، ترد كلها في معجم البلدان والقبائل اليمنية عدا الاسم فيشون فهو يرد بلفظ بيشه في الخرائط الخاصةبالمملكة العربية السعودية وهو اسم واد ضخم بجنوب منطقة عسير في المملكة العربية السعودية.

والنص الوارد في سفر التكوين يؤكد أن المدينة التي كانت عاصمة الرب الإله، أي ننماخ في النصين السومريين هي مدينة مأرب الحالية في شرق بلاد اليمن، والسفر نفسه يورد اللفظ ننماخ بصيغة ميشا في الاصحاح العاشر، وفي المراجع التاريخية التي بين أيدينا يرد اسم العاصمة القديمة لبلاد اليمن فهي مقة إله السبئيين، يقول عنها كتاب التاريخ العربي القديم، تأليف دتليف نيلسن ورفاقه وترجمة وإكمال فؤاد حسنين علي، جاء في المرجع المذكور صفحة١٧٧- ومن الغريب مثلاً أن الإله السبئي العظيم (المقة) لم يعرف لهم ولو اسماً، فذلك الاسم ظل نحو ألف سنة وهو أكبر إله عرفته بلاد العرب الجنوبية وقد ورد أكثر من ألف مرة في النقوش الدينية، وكانت معابده هي أكبر معابد عرفتها الجزيرة العربية.

وكان الاسم مقة أو ماخ يدخل في صيغة اسم الرئيس الأعلى أيام دولة سبأ فيسمى- مكرب، فكأنهم يقولون رب المكة أو المقة، بمعنى كاهنها أو شيخها.

ألفت الانتباه إلى أن اسم ننماخ مؤلف من لفظين- نن وتعني التكريم في لغة العراق القديم مثل نينا المستعملة في بعض مدننا حتى اليوم، وماخ

وهي مثل لفظة مكة المستعملة اليوم عندنا. وأعتقد أن اسم مدينة مكة في الحجاز، المدينة الدينية المقدسة ليس إلا استمراراً لهذا الاسم القديم.

أهمية مدينة ماخ أو مأرب الحالية قائمة من موقعها التجاري يقول ابراهيم المقحفي في كتابه معجم البلدان والقبائل اليمنية - كانت في عهد السبايين أكبر مدينة في جنوب جزيرة العرب وأكثرها انتعاشاً من ناحية الزراعة والتجارة والعمران، تأتيها القوافل التجارية من الهند والصين وفارس الذاهبة إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وبالعكس، وهي تبعد عن مدينة صنعاء ١٩٢ كم شرقاً.

ديانة اليمن القديمة

الزعيم الديني الكبير الموجود في مدينة نتماخ أي مكة المكرمة القديمة كما يفهم من النص الذي مر معنا في الموضوع السابق المأخوذ من سفر التكوين، الذي يفهم منه أن هذا الزعيم يمثل تجلياً إلهياً، أي ظهور الإله بصورة إنسان، مثل عيسى فيما بعد عند أتباع الديانة المسيحية.

كان يلي هذا الزعيم، خمسة زعماء مقيمين في عواصم المناطق اليمنية، ويحدد نص سومري أخذته من كتاب - من ألواح سومر الصفحة ٤٥٤ - أسماء هذه المدن الأصلية وفيما يلي النص-

بعد أن أنزلت الملكية من السماء
وبعد أن أنزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء
أكمل رسوم العبادات والنواميس الإلهية المقدسة
وأسس المدن الخمسة في مواضع مطهرة...
وسماها بأسمائها وخصصها كمراكز للطقوس والعبادات
وأعطى أولى هذه المدن وهي أريدو الى نورمد القائد
والثانية باد تبيرا أعطاها إلى ...
والثالثة لرك أعطاها إلى أند بلخر ساح
وأعطى الرابعة سيبار إلى البطل أوتو

والخامسة شروباك، أعطاها إلى سد

إن مواقع هذه المدن على الأرض اليمنية كما أقدر هي المواقع التالية - أريدو وقد مر ذكرها معنا، وهي ريدان الشهيرة في التاريخ باسم حمير.

باد تبيرا هذا الاسم مؤلف من ثلاث كلمات هي -

باد - وتعني كما أظن في لغتنا القديمة مدينة من بائد، وهذا الاسم مستعمل حتى اليوم في الباكستان، وعندنا في سوريا تستعمل كلمة خربة بدلاً من باد.

تب مثل كلمة تبه، أي تلة. وهذه الكلمة مستعملة حتى اليوم في سورية والعراق.

يرا هذه الكلمة تعني في لغتنا كما أظن النار، وهي مأخوذة من، أر، ور، أوار هذه الكلمات كلها تدور حول النار والاسم - يارا في اللغة التركية يعني الحبيبة وكأنها إشارة إلى حرارة الحب.

والاسم جملة باد تبيرا يعني - مدينة تل النار، وهذه المدينة هي التي تعرف اليوم باسم مدين، ان اسمها مدينة تل النار جاء من وجود بركان غير بعيد عنها، والمنطقة المجاورة لها من الجنوب هي عموماً منطقة بركانية، ولقد قام الأستاذ موسل أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة بلغراد بدراسة لمنطقة شمال الحجاز وتحدث عن طبيعتها ومما أشار إليه عند دراسته لواحة مدين، وجود واد يمر بإزائها باتجاه خليج العقبة اسمه وادي - بدا الذي يحمل اسم باد القديمة.

وأهمية باد تبيبرا أنها تحد بلاد اليمن القديمة شمالاً، وعندها تتوزع الطرق التجارية القادمة من الجنوب.

لرك أعتقد أن الاسم لرك هو نفسه الأسم أروك وقد مر معنا، وهي عروق الحالية وهي تقع شمال صنعاء العاصمة الحالية لبلاد اليمن.

سبار أعتقد أنها ظفار الواقعة على حدود بلاد اليمن الشرقية مما يلي

عمان، والمنطقة حتى اليوم مشهورة بنمو أشجار البخور فيها، وهذا الاسم يرد في سفر التكوين سفار ويعتبره كاتب السفر حدود الساميين شرقاً، ولعل الكلمة أوتو الواردة في النص تدل على كلمة موت / من حضرموت/ .

شروباك هذا الاسم مؤلف من لفظين-

- شروب، أي شرف، وشرف فيما أعتقد كانت في ذلك العهد عاصمة بلاد سومر يقول أحمد ابراهيم المقحفي في كتابه معجم البلدان والقبائل اليمنية - شرف اسم مشترك بين جملة بلدان في اليمن، أشهرها شرف حجور وهي جبل واسع في الشمال الغربي من حجة ويشكل أحد قضواتها ويتبعه العزل التالية :

- كحلان الشرف، اسلم، قفل (شمر) . . . وفيه العديد من الحصون .

-ك، وهذا الحرف مستعمل في اللغة التركية، كأنه يسمي شرف هذه، شرف الكبرى. تمييزاً لها عن غيرها .

لاتشير النصوص السومرية حسب ماأعلم إلى رئيس لزعماء هذه المدن المقدسة، وإن كان كما يفهم من هذه النصوص، أن كلاً منهم كان يحتمل أن يتبوأ هذا المنصب، فكتاب سفر التكوين عندما يتحدث عن الطوفان، وهو حدث ضخم في تاريخ حضارة المنطقة القديم، وأقدر أنه يعني انتهاء التجلي الإلهي، وتسلم الزعامة من قبل نوح . يقول سفر التكوين في الاصحاح السادس-

كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله، وسار نوح مع الله، وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافث وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً، ورأى الله الأرض فاذا هي قد فسدت . إذا كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض .

وهذه الصورة عن دور الزعيم الديني الذي يلي الزعيم الكبير الموجود في مدينة نتماخ أي مكة المكرمة يكملها النص التالي الوارد في سفر التكوين، الاصحاح الثامن -

. . . واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط . . .

لقد تمت نقلة الزعامة الدينية من ننماخ إلى أراراط أي أر المدينة القديمة التي كانت مدينة عروق أي أروك تنافسها في زمن ملكها أغر كار، وتقع مدينة أرتا هذه في ناحية أرحب، قريبة من مدينة مدر أي مضر الأقل قدماً، ويوجد حتى اليوم على قمة جبل ذيبان القريب من مدر هيكل قديم، يقول عنه ابراهيم المقحفي في كتابه معجم البلدان والقبائل اليمنية - موضع فوق جبل ذيبان بأرحب، به حسب قول الأستاذ أحمد شرف الدين بقايا هيكل الإله تالب ريام (بعل ترعت) المعبود الرئيسي لسمعي، وكان أهم مكان مقدس في اليمن بعد معبد المقة.

والأسم ترعت الوارد في النص أعلاه يبدو أنه تحريف للاسم عرتا في اعتقادي.

سفر التكوين في الاصحاح ٢٢ يتحدث عن هذا الهيكل، مع تحريفات واضحة، إذ أنه يضع اسحق محل اسم اسماعيل، مع أن ذرية اسماعيل (سمعي) كما يقول النص أعلاه هم سدنة هذا الهيكل، يقول النص-

فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك ابراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب - ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه، فناداه ملاك الرب من السماء وقال ابراهيم ابراهيم، فقال هاأناذا، فقال لاتمد يدك إلى الغلام ولاتفعل به شيئاً لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني. فرفع ابراهيم عينيه ونظر فإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه. فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده المحرقة عوضاً عن ابنه. فدعا ابراهيم ذلك الموضع يهوه يراه. حتى أنه يقال اليوم في جبل الرب يرى.

وكما مر معنا حول إبدال اسم اسماعيل باسم اسحق، يبدو واضحاً

إبدال إسم الله باسم يهوه. اسم الزعيم الديني الذي يلي الزعيم الأكبر ممثل مكة القديمة، أي الذي يمثل التجلي الإلهي. ويبدو أن اسمه كان الأب أو الباب فابراهيم أو ابرام الوارد في سفر التكوين، كان أب رام أي أباً حسب النص لمنطقة رام وهي المنطقة الشرقية لبلاد اليمن وفيها مدينة مكة القديمة، وقبله نوح كان أباً لسام وحام ويافث أي للشمال والجنوب والوسط، أي لكل بلاد اليمن.

هذه اللفظة نجدها في النصوص السومرية، فالسومريون الذين هاجروا بعد الطوفان، أي بعد انتهاء التجلي الالهي كان يتزعمهم دينياً زيو سدرا، جاء في الصفحة ٢٥٨ من كتاب من ألواح سومر لمؤلفه صموئيل كريمر-

زيو سدرا
الملك الذي حافظ على الزرع والذي صان ذرية البشر
وفي أرض العبور في أرض دلمون، الموضع الذي تشرق منه الشمس
أسكناه هناك.

إن الكلمة دلمون تعني السواد، ففي لغة العرب الدلام هو السواد والأدلم هو الأسود مثل ظلام وأظلم، أي جنوب العراق المكان الذي توجد فيه اليوم آثار المدن السومرية.

والملك زيو سدرا كان ورثته يحملون اسم - باتيسي، أي أب طي.

جاء في البحث المتعلق بالسومريين في كتاب قصة الحضارة لمؤلفه ول ديورانت - كل مدينة كانت شديدة الحرص على استقلالها، وتعض عليه بالنواجذ، وتتمتع بملك خاص بها تسميه باتيسي أو الملك الكاهن فتدل بهذه التسمية نفسها على أن نظام الحكم كان وثيق الاتصال بالدين.

وهذا الأسم - باتيسي يبدو أنه الاسم الخاص بالمنطقة الغربية في بلاد اليمن، أي الخاص بالمدينة المقدسة - شروباك كما مر معنا، يقول ابراهيم المقحفي صاحب كتاب معجم البلدان والقبائل اليمنية تيس جبل في قضاء

كوكبان يعرف اليوم بجبل بني حبش، وأنني أقدر أن كلمة تي أو طي هو اسم الموقع أما حرف سي فهو في اللغة السومرية وكذلك في لغة سبأ يعني الخاصية مثل طائية.

ولقد لاحظت أن الطائفة اليزيدية، وهي طائفة صغيرة وقديمة تنتشر في سورية والعراق وتركية، تتجنب ذكر إبليس وتعتبر أن ذكر الاسم أمام أحد من أفرادها هو بمثابة شتيمة لها، وتحرص للدلالة على إبليس على استعمال كلمة طاوس، وقد حللت الكلمتين - إبليس وطاوس وفق الفقرتين السابقتين فانتهيت إلى أن اسم إبليس يعني الأب المنزلق وذلك وفق معنى ليس، في اللغة الفارسية والمفروض أنها كذلك في اللغة الكردية، أما كلمة طاوس فهي تعني الأب الطائي، أي الأب المقيم أصلاً في طي. مثل كلمة تي سي السومرية.

ولا شك أن المدن العراقية القديمة التي كان يقود كل واحدة منها كما يقول ول ديورانت كما مر معنا - باتيسي، لاشك أن هذه المدن كان لها باتيسي واحد أعلى يدبر أمورها قياساً على الصور التي مرت معنا، يدل على ذلك بروز مدينة بابل التي لعبت دوراً ضخماً في كل بلاد العراق في الزمن القديم، والتي ورثتها في هذا الدور مدينة النجف في العهد الإسلامي، إن كلمة بابل وفق تحليلها تتألف من لفظين - باب وهو يطابق ماذهبت إليه وإل وتعني - الله.

الأنوناكي أو النقباء

لاتكتمل صورة النظام الديني في بلاد اليمن القديمة، أو في بلاد العراق القديمة مالم نتعرض لتقديم شيء من التوضيح عن نقباء ذلك النظام، أي الأنوناكي. وتبدو لي الكلمتان - أنوناكي ونقيب لفظة واحدة. تعني في الأصل عين البلاد، لأن الكلمة كي تعني في اللغة السومرية كما يرد في كتاب - من ألواح سومر لكريمر، تعني الأرض، والكلمة آنو أقدر أنها عين من الرؤيا للأمور.

ويبدو أن الأنوناكي أو النقباء كانوا في زمن بعيد يمثلون مجلساً مصغراً يضم أهل الرأي والمقدرة، يساعد الأب أو الباب في توجيه الأمور العامة.

جاء في كتاب من ألواح سومر لكريمر صفحة ٨١ أن صراعاً نشأ بين أرك وكيش، والمدينتان في رأيي هما في الأصل - عروق الحالية المجاورة لمدينة صنعاء شمالاً، وقيس المجاورة لها. يقول المقحفي في كتابه معجم البلدان والقبائل اليمنية - قيس اسم مشترك بين جملة بلدان وقبائل منها قيس في قبيلة بني صريم من حاشد، وقيس ناحية في وادي مور غرب حجة، وقيس عزلة من ناحية بني مطر غربي صنعاء. وأظن أن قيس المقصودة هي هذه. ويعرض الكاتب لكيفية معالجة جلجامش أروك (عروق) لهذا الموضوع في نص سومري-

إن مبعوثي أجا بن اليميراجيسي
شرعوا بالسفر من كيش إلى جلجامش في أرك
فعرض السيد جلجامش الأمر على مجلس شيوخ مدينته
وقال لهم:
علينا ألا نذعن لبيت كيش ولنحارب بالسلاح
ولكن مجلس شيوخ المدينة المنعقد أجاب جلجامش
لنذعن إلى بيت كيش ولانحارب بالسلاح
أما جلجامش سيد كلاب
الذي حقق أعمال البطولة من أجل الآلهة أنانا.
فلم يسر لكلمات شيوخ مدينته
إن جلجامش سيد كلاب مرة أخرى
عرض الأمر على مجلس محاربي مدينته وطلب إقرار كلمته
لاتذعنوا إلى بيت كيش ولنضربه بالسلاح
فأجاب مجلس المحاربين جلجامش قائلين
لانذعن إلى بيت كيش ولنضربه بالسلاح

وعندئذ سر جلجامش سيد كلاب

وهذا النص، وإن كان لايضم اسم الأنوناكي باللفظ، ولكنه واضح الدلالة جداً على دور الأنوناكي والنص التالي الذي يورده كريمر في نفس المرجع صفحة ٢٠١ وهو يتحدث عن الزراعة وتربية الماشية، قد جاء فيه:

لم يعرف الأنوناكي أكل الخبز
ولم يعرفوا لباس الحلل
كانوا يأكلون النبات بأفواههم كالأغنام
ويشربون الماء من الجداول
وفي تلك الأيام في حجرة الخلق الخاصة بالآلهة
وفي بيتهم المسمى دوكو خلق لها رواشنان
وماأنتجه لها رواشنان أكله أنوناكي الدوكو ولكنهم لم يشبعوا
ومن حظائرهما المقدسة شرب الأنوناكي لبن شم الطيب
شرب أنوناكي الدوكو ولكنهم لم يرتووا
فمن أجل حظائرهما الطاهرة الطيبة
أعطي الإنسان نَفَس الحياة

إن الاسم دوكو - يبدو أنه اسم مدينة قديمة في منطقة وادي مور موطن السومريين الأصلي، ذكرها صاحب كتاب معجم البلدان ياقوت الحموي، دوقة، قال إنها على طريق الحج من صنعاء إذا سلكوا تهامة، وذكر شعراً لزهير العامدي جاء فيه -

أعاذل منا المصلتون خلالهم كأنا وإياهم بدوقة لاعب
أتيناهم من أرضنا و سمائنا وأني أتى للحجر أهل الأخاشب

والأخاشب موقع يسميه المقحفي خاشب موجود في جبل المفتاح،

والمفتاح ناحية من قضاء الشرفين التابع لمحافظة حجة، والحجر اسم لمواقع كثيرة في اليمن وإن كنت أرجح أن المقصود حجور وهي منطقة واسعة شرقي محافظة حجة، ومن المفروض أن طريق الحج من مدينة صنعاء إلى تهامة يمر فيها.

يرد في سفر التكوين إشارة لمجلس الأنوناكي ويسميهم السفر أبناء اسماعيل، ويقول أن عددهم كان اثني عشر، وذلك في الاصحاح ٢٥ من السفر.

ويبدو أن الرقم ١٢ كان مقدساً عندهم، فعندما قامت المسيحية كان تلاميذ عيسى الذين نشروا المسيحية اثني عشر وكان اسمهم حواريين من الإسم القديم حورأي إله الشمس، وعندما قام الإسلام شكل النبي محمد مجلساً يهتم بشؤون الإسلام في مدينة يثرب كان مؤلفاً من إثني عشر رجلاً اسمهم النقباء.

وإلى اليوم اسم نقيب عند العرب بمعنى عين أو ذو رأي ومقدرة مازال مستعملاً، وقد لاحظت من المراجع التي اطلعت عليها حول بلاد اليمن، أن اسم نقيب مستعمل عند أهل اليمن قديماً وحديثاً وخاصة المنطقة الشرقية بنفس المعنى.

يبدو لي أن الأنوناكي أو النقباء، هي في الأصل تمثيل شعبي الهدف منه اتقاء هوى النفس البشرية عند القيادة العليا للميل إلى التفرد بالسلطة وهذا نلاحظه ضمن التطور التاريخي منذ أقدم العصور ويبدو لنا واضحاً من النص السومري الوارد في أول هذا الموضوع من تصرف ملك عروق جلجامش. لقد تحول مجلس الأنوناكي أي النقباء عبر العصور الطويلة إلى حالة من البلى واضحة، إذ أدخل في إطار الغيبيات الدينية، بحيث أصبح من يمثل القيادة هو الحاكم المطلق، وهذا واضح في التطور الذي انتهى إليه سفر التكوين كل الوضوح.

أصول سكان بلاد اليمن القديمة

لاأعتقد أن تغييراً ذا أهمية طرأ على سكان بلاد اليمن عبر العصور القديمة، وسأحاول هنا أن أثبت أن الزعامة الدينية العليا هي أصيلة في بلاد اليمن، فسفر التكوين يطلق على الزعيم الديني اسم الرب الإله، إن كلمة رب في الأصل تعني الأرض المرتفعة، وكلمة سبأ تشير إلى نفس المعنى، أي ذرى الجبال الممتدة شمال مدينة صنعاء، وهي معقل القبائل اليمنية عبر

التاريخ، كما يفهم من كتاب البنية القبلية في اليمن، تأليف الكاتب اليمني المعاصر فضل علي أحمد أبو غانم. ويشير النص السومري الذي يرد في الصفحة ٧٨ تأليف عالم الآثار صموئيل كريمر، والذي يدور موضوعه حول الصراع بين ملك أروك، أي عروق القديمة والواقعة كما مر معنا قرب صنعاء الحالية شمالاً، ومدينة أرتا أي عرتا التي يسميها سفر التكوين أراراط وقد مرت معنا، يشير هذا النص إلى سبأ صراحة –

إن ملكة السماء العظيمة التي بيدها زمام النواميس الرهيبة الإلهية التي تسكن في جبال الأرض المرتفعة شوبا.

كما يشير سفر التكوين إلى نفس الأرض في الاصحاح التاسع وذلك في معرض الحديث عن مواليد نوح وسام أبي كل بني عامر أخي يافث الكبير ولد له أيضاً بنون. بنو سام عيلام وآشور أرفكشاد ولود وآرام. وبنو آرام عوص وحول وجاثر وماش. وارفكشاد ولد شالح وشالح ولد عابر.

إن كلمة – ارفكشاد ليست إلا تحريف للعبارة – رب حاشد أي مرتفعات، أما الأسماء الأخرى أي سام وعيلام وآشور ولود وآرام وعوص وحول وجاثر وماش وشالح وعابر، فهي أسماء مواقع وقبائل في المنطقة الشمالية الشرقية في بلاد اليمن. تقع مرتفعات حاشد أو قبيلة حاشد المعروفة حتى اليوم في وسطها.

وأقدر أنه حصل في العصور القديمة، مثلما حصل في العصر الإسلامي، من تواصل بين بلاد العرب وأواسط آسيا، أدى إلى تراكم مؤثرات كثيرة بشرية ولغوية، على كلتا المنطقتين، ولكن دون تغيير كلي لأي منهما، وقد لاحظنا بعض هذه المؤثرات القادمة من أواسط آسيا على لغة النصوص السومرية التي مرت معنا.

سفر التكوين في الاصحاح السادس يرصد حالة القلق التي تعرض لها مجتمع بلاد اليمن القديمة والتي تشبه فترة الألف سنة المنصرمة من عمر المنطقة، يقول سفر التكوين –

وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لايدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيفانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم.

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم. . . .

السومريون في أواسط آسيا

يقول قاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من ذوي الاختصاص، يقول قطنت ذرية جومر (سومر) جانباً عظيماً في آسيا الصغرى وفريجية كما يرد في سفر حزقيال أصحاح ٣٨ وسفر الأخبار أصحاح ١ ويقول: يذكر هيرودوتس أن هوميروس الشاعر الإغريقي لقبهم بأهل الشمال الأقصى في كتابه الأوديسا، أتوا إلى آسيا الصغرى من المناطق التي وراء القفقاس واستوطنوا كبادوكيا وهددوا الأمبراطورية الآشورية ولكن أسرحدون هزمهم، ثم اتجهوا إلى الغرب واحتلوا آسيا الصغرى، واشتبكوا في عدة معارك مع جايجينس ملك ليدية وقتلوه. وقد طردهم الباتيس من ليدية فيما بعد.

يحمل أحد أنهار أواسط آسيا حتى اليوم اسم نهر موطنهم الأصلي في بلاد اليمن - جيحون أي مور وقد مر ذكره معنا، وتحمل إحدى أهم مدن المنطقة اسمهم - سمرقند أي مدينة سومر. كما تحمل إحدى أهم مدن المنطقة اسم قيادتهم الدينية - طاشقند، أي مدينة طاش، من تيسي مقر القائد الديني في موطنهم الأصلي - باتيسي، وهذا الأسم يتكرر في إحدى دول المنطقة

اليوم – طاجكستان، أي بلاد طاج الكبرى، وهذا الاسم الديني يبدو أنه صار علماً على العرب فالفرس القدماء يعتبرون تاز أباً للعرب ، والترك يعتبرون طاج أباً للعرب، والصينيون يعتبرون تاش أباً للعرب، مع تخبط أحياناً في لفظ الحرف الأخير والأول.



الملامح العامة لتاريخ آسيا الوسطى وقازاخستان (قبل ثورة أوكتوبر)

بقلم: م. إ. بوغدانوفا
ترجمة: يوسف حلاق

تحاول هذه الدراسة إلقاء الضوء على تاريخ آداب شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان معاً أي الآداب الطاجيكية والأوزبكية والقراقلبقية والتركمانية والقازاخية والقيرغيزية. وهذا ليس من قبيل المصادفة. فآداب هذه الشعوب لاتجمعها وحدة العملية الإقتصادية والإجتماعية التاريخية

---

* يوسف حلاق: باحث من سورية، يهتم بالترجمة، له عدد من المؤلفات في حقل الترجمة، من ترجماته: «نحن ـ رواية»، «وداع متيورا ـ رواية».

وحسب بل القرب الجغرافي أيضاً. فعلى امتداد قرون عديدة عملت شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان معاً في الحقول وارتحلت معاً في السهوب وكافحت معاً مستغليها وغزاتها. ان كل الآداب الآنفة الذكر باستثناء، الأدب الطاجيكي تعود إلى شعوب ناطقة بالتركية، أما الأدب الطاجيكي فعلى الرغم من انتمائه إلى شعب يتكلم إحدى اللغات الإيرانية إلا أنه ظل على امتداد حقبة طويلة على تواصل وثيق مع آداب اسيا الوسطى ذات الأرومة اللغوية التركية.

وكانت هذه الآداب، وهي تتطور بوصفها آداباً مستقلة، بوصفها آداباً قومية، على صلة وثيقة فيما بينها، وكان أحدها يغني الآخر ويغتني به من خلال هذه الصلات.

وإلى جانب ذلك ترك التفاوت في التطور التاريخي أثره في آداب شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان. فالأوزبيكيون والطاجيكيون عاشوا من أمد بعيد في ظروف الاستقرار الحضري والزراعة المتطورة بشكل رئيسي. وتطورت كتابتهم وأدبهم المكتوب القائمان على أساس الخط العربي منذ القرون الوسطى. أما القازاخيون والقيرغيزيون والقرقلبقيون فكانوا أقواماً رحلاً. القيرغيزيون حتى إقامة السلطة السوفييتية لم يكونوا يملكون عملياً كتابة متطورة. أما القازاخيون فإنهم وإن كانوا من الأقوام الرّحل إلا أنهم عاشوا في ظل ظروف تواصل أوثق مع الشعب الروسي والشعوب الأخرى (التتار وغيرهم) وبالتالي أخذ أدبهم المكتوب بالتطور منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر.

لكن على الرغم من التفاوت في التطور التاريخي فان الملامح المشتركة في تطور آداب آسيا الوسطى وقازاخستان، ولاسيما الوحدة التاريخية والجغرافية وحتى اللغوية تمكننا من تحديد جملة سمات وقوانين تميز تطور هذه الآداب حتى ثورة أوكتوبر ١٩١٧.

إنه، أولا، الدور الكبير للشعر الشعبي الشفوي في حياتها الثقافية. فالشعر الشعبي الشفوي يمثل عند تلك الشعوب التي لم تكن تملك قبل ثورة ١٩١٧ كتابة متطورة النوع الوحيد للإبداع الأدبي، وبعض هذه الشعوب

كالقيرغيزي على سبيل المثال أنشأ واحداً من أعظم الآثار الشعرية الشفوية وهو ملحمة «مناس».

لكن الفولكلور أثر تأثيراً مباشراً في تطور الأدب المكتوب حتى عند تلك الشعوب التي كانت تملك مثل هذا الأدب كالأوزبيكيين الذين أفرزوا شاعراً عظيماً مثل أليشر نافويي.

والسمة الثانية المميزة لآداب شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان قبل ثورة أوكتوبر وفي السنوات الأولى بعدها هي السيطرة المطلقة لجنس الشعر، وهذا بدوره حدّد خصائص تطور النثر وكذلك الدراما المسرحية اللذين (أي النثر والدراما) لم يظهر عند شعوب آسيا الوسطى إلا بعد ثورة أوكتوبر. فكان أن اكتسب النثر والمسرح نبرة غنائية خاصة وتعبيرية شعرية ونظام صورٍ خاصاً الأمر الذي منحها استقلالية وأصالة قومية.

والسمة الثالثة المميزة لتطور هذه الآداب كلها هو تفاعلها الأصيل الذي تجلى في أشكال جد مختلفة تجلى، على سبيل المثال، في أن التراث الكلاسيكي للشعب الطاجيكي، وهو إبداعات الفردوسي والخيام وحافظ والسعدي وغيرهم. كان على امتداد قرون تراثاً مشتركاً إلى حد ما ليس فقط بالنسبة إلى شعوب المجموعة الإيرانية اللغة وإنما إلى شعوب آسيا الوسطى التركية اللغة. وبالمقابل كانت لمؤلفات كلاسيكي الأدب الأوزبيكي أليشر نافويي الذي ألهم على حد سواء كل الشعراء، الناطقين منهم بالإيرانية أو التركية، قيمتها وأهميتها المتميزة بالنسبة إلى كل شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان:

ولقد تبدى التفاعل الأدبي بين شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان أيضاً في ٢١ عدداً من الأبطال الأدبيين كرستم من قصيدة «الشاهنامة» للفردوسي أو أبطال من قصيدة «فرهد وشيرين» لنا فويي بات قريباً من هذه الشعوب كلها.

كما كان هناك عدد مشترك من الموضوعات التي وجدت في كل من هذه الآداب تعبيراً خاصاً بها وعولجت معالجة خاصة. وهكذا، على سبيل المثال، نظم الشاعر الأذربيجاني نظامي والأوزبيكي نافويي والتركماني عندليب قصائد

في موضوع شائع بين الشعوب الشرقية ألا وهو قصة الحب التعس بين ليلى والمجنون. وفي القرن التاسع عشر ظهرت قصيدتان تنسجان على المنوال نفسه وبالموضوع نفسه في الأدب الطاجيكي.

ولقد تعزز التفاعل بين آداب آسيا الوسطى عن طريق الصلات والعلاقات المباشرة بين الشعراء والصداقة فيما بينهم. ومعروف تماماً أمر صداقة أليشر نافويي مع الشاعر الطاجيكي الكبير عبد الرحمن جامي، هذه الصداقة التي تمثل الصداقة بين الشعبين الطاجيكي والأوزبيكي. فقد وجد كلا الشاعرين وحدداً لنفسيهما في إبداعهما تقليداً مشتركاً، فقد نظما خماسيات شعرية كما فعل في وقته، أي في القرن الثاني عشر، كلاسيكي الأدب الأذربيجاني نظامي. إن أليشر نافويي وعبد الرحمن جامي برعايتهما الشعراء الأوزبيكيين والطاجيكيين ساهما في إرساء تقاليد الثنائية اللغوية وتدعيمها فيما بينهم.

ولقد ترسخت تقاليد الثنائية اللغوية في آثار شعراء آسيا الوسطى بفعل ظروف تطور الحياة الثقافية لهذه الشعوب. فمنذ القرون الوسطى تشكلت في بعض مدن آسيا الوسطى كما في مدينة هيرات مثلاً مراكز ثقافية كان يلتقي فيها الشعراء الذين يكتبون باللغة التركية الأسيووسطوية (أي باللغة الأوزبيكية القديمة) وبالفارسية. إن قرب التوزيع السكاني لهذه الشعوب واختلاطها وكذلك الأحوال العسكرية والحربية والعلاقات التجارية هذا كله ساعد على امتلاك لغتين وعلى الأخص الأوزبيكية والطاجيكية (الفارسي).

ولقد ظلت تقاليد الثنائية اللغوية في تطوير آداب شعوب آسيا الوسطى قائمة ومصونة حتى يومنا هذا، وتجسدت تجسداً موهوباً في مؤلفات صدر الدين عيني الذي كتب باللغتين الأوزبيكية والطاجيكية في آن واحد. وهو، إلى كونه رائد الأدب الطاجيكي السوفييتي، قد أرسى في الوقت نفسه مع حمزة حكيم زاده نيازي أسس الأدب الأوزبيكي السوفييتي.

لقد تطورت آداب شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان وكذلك إبداعها الشعري الشعبي الشفوي ليس في تفاعلها الوثيق فيما بينها وحسب وإنما أيضاً

في تفاعلها مع آداب شعوب الشرقين الأدنى والأوسط الأخرى. وكان هائلاً بشكل خاص دور الشاعر والمفكر الأذربيجاني العظيم نظامي الذي وُلدت بتأثيره الإبداعي مؤلفات عظيمة للعديد من شعراء آسيا الوسطى.

وكان لأعمال الشاعر الأذربيجاني نسيمي (فيما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر) تأثيرها في آداب آسيا الوسطى وقازاخستان. كما ولّدت أشعاره الغنائية الفلسفية والحلولية وبعض أعماله المناوئة لرجال الدين أعمالاً حاكتْها ونسجتْ على منوالها، كما لدى الشعراء التركمانيين على سبيل المثال.

وتتجسد في حكايا شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان وفي قصصها الملحمية البطولية والرومنطيقية، وعلى الأخص في القصائد الشعبية الأوزبيكية وكذلك في الملحمة التركمانية الشعبية على سبيل المثال موضوعات ومواقف وصور وأبطال من الحكايا الهندية والفارسية والتركية تتزاوج بشكل مبتكر مع بقايا من الأساطير اليونانية والخرافات التوراتية. وفي حكايا شعوب آسيا الوسطى عدد كبير جداً بنوع خاص من الموضوعات التي تحاكي وتستعيد الحكايات العربية لـ«ألف ليلة وليلة» وكذلك موضوعات الكتاب الهندي «بنتشاتنترا» والفارسي «كليلة ودمنة» وغيرهما.

والمثال الساطع على التبادل الثقافي والأدبي والتفاعل بين آداب شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان فيما بينها وفيما بينها وبين شعوب الشرقين الأوسط والأدنى هو تشابه مجموعة كاملة من الآثار الملحمية. تلكم على سبيل المثال سلسلة القصص عن كبور أوغلي (أو غوروغلي). ففي آسيا الوسطى تراها منتشرة بين التركمانيين والأوزبيكيين والطاجيكيين والقازاخيين، وفي القوقاز بين الأذربيجانيين كما إنها معروفة لدى الجورجيين والأرمن؛ وهي منتشرة في الشرق الأوسط في تركيا وشمال ايران؛ كما إنها معروفة لشعوب أخرى في البلقان.

كما حظيت بانتشار واسع أيضاً الملحمة المعروفة بـ«كتاب جدّي كوركود» وهي ملحمة ظهرت في القرون الوسطى وتعود لشعوب. . كثيرة ناطقة

فظروف الحياة والمعيشة المتقاربة والواحدة تقريباً، ووحدة الدين الذي هو الإسلام، والظلم الإجتماعي والقومي ولاسيما ضغط المرتكزات الإقطاعية، هذا كله كان الشيء المشترك بين هذه الشعوب والذي كان عليها أن تتعامل معه وتصطدم به وتقارعه.

وذلك هو السبب في ان المسائل المرتبطة بالصراع ضد العسف والرشوة في أوساط الإقطاعية العليا وأوساط البرجوازية التجارية التي كانت، بالاتفاق مع الإدارة القيصرية، تظلم الشعب وتنهبه هي المسائل التي شغلت المكان الأساسي في إبداعات كل كتاب آسيا الوسطى وقازاخستان وشعرائهما (مغنّيهما) الشعبيين تقريباً في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وكذلك في إبداعات الكتاب التترين والأذربيجانيين.

لقد دعا الكتاب التقدميون إلى استيعاب الأشكال الجديدة للإقتصاد والإدارة وإلى الإتصال بالثقافة والتنويرية الروسية التقدمية. وأخذت تنتشر في أدب تلك الفترة انتشاراً واسعاً أفكار التنوير وتطرح المسائل المتعلقة بإصلاح التعليم. واحتل موضوع النضال من أجل حقوق المرأة في الأسرة والمجتمع مكاناً خاصاً، كما طرحت على نطاق واسع قضايا الأسرة والتربية. وإننا لنرى هذا عند القازاخيين في أعمال أباي كونانبايف وإبّراي ألطينسّاين وكذلك في أعمال كتاب آخرين من كتاب تلك الفترة. ووجدت هذه الأفكار تجسيداً لها عند الأوزبيكيين في أعمال مقيمي وزافكي وفرْقات، وعندالطاجيكيين في أعمال أحمد دونيش وعند القرقليقيين في أعمال برداخ-شاعر. كما تجسدت هذه الأفكار والموضوعات في أعمال شاعري تركمانيا الشعبيين مسكين قليتش ودوردا، وعند القيرغيزيين في أعمال الأكين (الشاعر والمغني الشعبي) توغولوك مولدو.

ولم يتوثق تفاعل آداب الشعوب الناطقة باللغات ذات الأرومة التركية في روسيا القيصرية والتفاعل الثقافي الواسع بين هذه الشعوب ويتوطدا فقط بقرابة

بالتركية. ويرى الدارسون لهذه الملحمة انها وصلت الينا في شكلها الذي اتخذته في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في بلاد ماوراء القوقاز وآسيا الوسطى بين شعوب المجموعة الأوغوزية. أما القسم الأعظم من الملحمة في شكلها الأولي فقد ظهر، على الأرجح، في القرنين التاسع والعاشر في المجرى الأسفل لنهر سير داريا أي في الموطن القديم للأوغوزيّين وانتقل إلى الشرق الأدنى في القرن الحادي عشر مما يدل على الصلات الوثيقة بين هذه الشعوب.

ففي سلسلة القصص التي يتألف منها «كتاب جدّي كوركود» تدخل موضوعات خرافية قديمة مختلفة. فأحد هذه الموضوعات على سبيل المثال هو موضوع الحكاية البطولية القديمة القائمة في أساس قصة بَمْسي بيرك ابن كمْ بوري التي تمثل، كما يرى الباحثون، الصيغة الأوغوزية لحكاية البطل ألبامش المنتشرة بين شعوب آسيا الوسطى والشرق الأدنى. إن حكاية ألبامش الموضوعة بشكل ملحمة بطولية شعبية منتشرة انتشاراً واسعاً بين الأوزبيكيين والقرقلبقيين وكذلك بين القازاخيين.

وبعد انضمام آسيا الوسطى وقازاخستان إلى روسيا تبدأ مرحلة جديدة في تطور آداب هذه الشعوب كما في تطور التأثيرات المتبادلة فيما بينها.

لقد أسهم دخول هذه الشعوب في قوام روسيا، التي كانت في طريقها آنذاك إلى أن تصبح مركز الحركة الثورية العالمية، في النمو الثقافي لهذه الشعوب ولرجالها التقدميين الذين أخذوا يتصلون بالثقافة والأدب الروسي الديمقراطي.

وكان الالتفات إلى الأدب الكلاسيكي الروسي وإلى تقاليد الواقعية الروسية ذا قيمة خاصة. فقد أغنى هذا التقاليد التقدمية للآداب القومية ورسّخ وعزّز بقوة جديدة المثل العليا الإنسانية والتحررية القائمةفيها وساعد في الوقت نفسه في تطوير الإتجاهات الواقعية.

غير أن هذا الإتصال لم يجر في مراحله الأولى مباشرةً من خلال الأدب الروسي، بل من خلال أدب الشعوب المتقاربة لغة وفي الدرجة الأولى من خلال الأدبين التتري والأذربيجاني.

فقد ظل الأدبان الأذربيجاني والتتري على مدى فترة طويلة إلى حد ما تحت تأثير الأدب الكلاسيكي للشرق.

وكثير من رجال الثقافة التترية درس في مدارس بخارى وسمرقند. وكان روداكي وحافظ والخيام وكذلك نظامي وأليشر نافويي النماذج التي تربت عليها الأذواق الأدبية للكتّاب والمثقفين التتريين والأذربيجانيين حتى مطلع القرن التاسع عشر.

لكن بفعل خصائص التطور التاريخي للشعبين التتري والأذربيجاني اللذين دخلا قبل شعوب أخرى كثيرة من شعوب الشرق في قوام روسيا، تمكن هذان الشعبان من الإتصال قبل غيرهما بالثقافة والأدب الروسي التقدمي.

لقد لجأ الأعلام التقدميون في آسيا الوسطى وقازاخستان، الذين لم يكن بوسع الكثيرين منهم أن يعرفوا القراءة والكتابة باللغة الروسية، إلى أعمال الكتاب التتريين والأذربيجانيين في الدرجة الأولى وكذلك إلى الصحافة الدورية.

ومما ساعد بنوع خاص على اتصال الشعب التتري بالثقافة والأدب والعلم الروسي هو افتتاح جامعة في قازان في مطلع القرن التاسع عشر. وقد أتاح هذا امكانيات واسعة لنمو المثقفين ليس بين التتر وحسب وإنما بين الشعوب الأخرى الناطقة بالتركية.

وفي عام ١٨١٠ انتقلت من بطرسبرج إلى قازان المطبعة المعروفة باسم «المطبعة الآسيوية» والتي ألحقت فيما بعد، في عام ١٨١٩ بمطبعة جامعة قازان. وكان لتطور أعمال الطباعة في قازان أهمية كبيرة في التطور اللاحق لثقافة وأدب الشعوب الشرقية التي دخلت في قوام روسيا القيصرية بما فيها شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان. ففي مطبعة قازان طبعت أعمال كثيرة من الآداب الأوزبكية والقازاخية والتركمانية وكذلك من آداب الشعوب الأخرى.

وليس من قبيل المصادفة أن يقول الكاتب القازاخي البارز غ. مُسْريبوف في معرض تنويهه بأهمية الأدب التتري والمراكز الثقافية التي انتشرت منها أفكار

العصر الديمقراطية والتقدمية ان التنويرية والعلم الروسي جاءا سهوب قازاخستان عبر مدينة قازان .

وبالفعل فقد راجت بين شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان كلها تقريباً وانتشرت التقاويم التي كانت تطبع في مطبعة قازان ويُعدّها المنوِّر التتري المعروف فيّوم نصيروف الذي تشكلت آراؤه ونظراته بتأثير من لومونوسوف ومن أفكار أوشنسكي التربوية كما انتشر الأدب التنويري والتربوي الصادر هناك .

ويكتسب الأدبان التتري والأذربيجاني أهمية كبيرة في تطور ثقافات وآداب شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان في فترة ثورة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ حين أخذت دورياتهما تنتشر . هذا وإن ظهور هذه الدوريات مرتبط ارتباطاً مباشراً بالثورة الروسية الأولى .

وعلى سبيل المثال كان للمجلة الأذربيجانية التقدمية الساخرة «الملاّ نصر الدين» التي حظيت بانتشار واسع جداً بين كل شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان أهمية خاصة . ومعروف أن محرر المجلة كان الكاتب الأذربيجاني الديمقراطي البارز جليل ماميد كولي زاده وهو داعية ومروج متحمس للأدب الروسي التقدمي . كما كان من بين أقرب المتعاونين مع المجلة أ . صابر وأ . أخفيردوف و م . س . أوردوبادي وغيرهم ممن تجسدت في إبداعهم أفضل تقاليد الأدب الروسي وتطوّرت فيه تقاليد السخرية الثورية وأفكار التنوير .

وفي هذه الفترة أيضاً انتشرت مجلتان تتريتان ساخرتان هما «ياشين»(الصاعقة) و «يلْت ـ يلْت» . وما له دلالته الواقعة التالية التي تدل على الصلات الوثيقة المتبادلة بين الشعوب الشرقية في روسيا القيصرية سابقاً التي (أي الصلات) أسهمت في قيام تبادل واسع للأفكار التنويرية والديمقراطية . فقد كان التتر يعيدون طباعة مقالات مأخوذة من المجلة الأذربيجانية «الملاّ نصر الدين» في مجلتيهما الهجائيتين «ياشين» و «يلْت ـ يلْت» . وكانت مجلة «الملا نصر الدين» بدورها تطبع بين صفحاتها مقالات لكتاب تتر مأخوذة من هاتين المجلتين وغيرهما . ولقد انتشرت المجلة . الأذربيجانية «الملا نصر الدين» ، كذلك

المجلتـان التتـريتـان «ياشين» ، «يلت ـ يُلت» انتشـاراً واسعـاً بين القـازاخـيين والتركمـانيين والأوزبيكيين والقيـرغيـزيين والقـرقلبيقيين والشعـوب الأخرى الناطقة بالتركية.

وتحتل الصحيفة الإشتراكية الديمقراطية الأولى «الأورال» التي صدرت باللغة التترية في أورنبرغ، وهي مدينة تقوم على تخوم الشرق والغرب وتمثل بوابة فـريدة إلى الشـرقين الأدنى والأوسط، مكانـةً مـرمـوقـة في تطور الأفكار الديمقراطية والثورية.

كانت شعوب آسيا الوسطى وقازاخستـان، وهي تقرأ باللغـة التترية مؤلفات غ. توكاي وغ. ابراهيموف وش. كمال وف. أميرخانوف أو مؤلفات كلاسيكيي الأدب التتري والبشكيري م. غفوري تتصل في الوقت نفسه بشكل غير مباشر، عن طريق إبداعاتهم بأفضل تقاليد الأدب الروسي الكلاسيكي.

وفي هذا المجـال يتـجلّى بين الكتّـاب التتـر بنوع خـاص دور الشـاعـر الديمقراطي البارز مؤسس الأدب التتري الواقعي الجديد غ. توكاي.

لقـد طرح غ. توكـاي في مؤلفاته على نحـو حاد وواضح القـضـايا الإجتماعية الكبرى لذلك العصر: النضـال ضد الفئات المستغلة والحكم الإستبدادي، الدعوة إلى اليقظة القومية وإلى الكفاح ضد مخلفات الإقطاعية وضد نفاق رجال الدين وظلاميتهم ومن أجل الحقوق الإنسانية للمرأة. وقد انعكس هذا كله في غنائيّاته الإجتماعية وأعماله الهجائية. لقد تشكل إبداع توكاي بتأثير مباشر لأفضل تقاليد الشعر الشعبي والأدب في بلده، إنما هناك، من ناحيـة أخرى، جـوانب فكرية وفنية كثيـرة في إبداعه تشكلت بتـأثيـر من إبداعات كلاسيكيي الشعر الروسي ـ بوشكين، ليرمنتوف، نكراسوف.

إن حياة الشعوب المضطهدة في الشرق التابع لروسيا القيصرية سابقاً والتي كانت تتعرض إلى استغلال جائر من قبل الإقطاعيين المحليين والبرجوازية الوطنية وإلى ظلم السلطة القيصرية الإستبدادية هي التي اشترطت وأوجدت هذا التواصل الواسع والعلاقات المتبادلة بين هذه الآداب.

وتجولّت في جمر لذّته الرهيبة . .
باكياً فوق الطلولِ
ويسائل الأحجار والأنهار والعشب الجميل
فقد نأت
يبست مفاتن خضرة الواحات ،
في مدن الوحول

* * *

طفلٌ يداعب قلبهُ
وصبيةٌ تركت جدائل شعرها
في الريح . . .
قفصٌ يحاور بلبله
وقصيدتي ،
ذهبت إلى آفاقها (لتضيءَ)
رؤياه إذا انفجرت ،
لتمسك خصلة ،
تبقى تلوح على المدى
جرحاً يهزّ المسألة

* * *

وأتيتكم في النارِ
أحملُ سفريَ المدفونَ في صدري
وخيمة موقدي تمتدّ في الصحراءِ
تلتمسُ المسالك دائراتٍ كي تمرّ على مشارف لحدها
وأتيت من أشعاركم
يامعشر الأقلامِ

اللغة التي استطاعت هذه الشعوب بفضلها أن يقرأ أحدها الآخر ويفهمه بل بوحدة الأبجدية . فكل الأعمال الطباعية وكل المراسلات بين شعوب الشرق كانت تجري على أساس الخط العربي (كان يمكن أن تكتب الكلمات دون أحرف صوتية أي حركات) مما مكّن كل شعب من هذه الشعوب أن يقرأ مايكتبه الآخرون ناطقاً الكلمات وفق الخصائص الصوتية والصرفية للغته الأم هو .

وهكذا استمرت الأفكار والآراء التقدمية لكتاب شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان الديمقراطيين الذين تربوا على أفضل تقاليد ثقافتهم وأدبهم تتكون وتتشكل منذ أواسط القرن التاسع عشر إنما بتأثير الفكر الديمقراطي الثوري الروسي وكذلك افكار التنوير الروسي من خلال عملية تبادل وتفاعل واسعة . وفي هذا التفاعل بين الآداب القومية تتجلى إحدى الخصائص الأساسية للعملية الأدبية لعموم روسيا .

ونرى من مثال تاريخ آداب شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان كيف ان بعض الشعوب تعرفت مباشرة وبعضها الآخر بشكل غير مباشر - عن طريق أدب شعوب أخرى - على الأدب الروسي الكلاسيكي وتمثلته وواصلت في أدبها تقاليده . ومن الطبيعي أن يكون كل شعب استوعب هذه التقاليد بدرجة مختلفة عن الآخر وعلى نحو مختلف . وكان مستوى أدب مايتوقف في تطوره على مدى العمق والروح الإبداعية في تمثله لتجربة الأدب الروسي .

وبالمعنى الحقيقي للكلمة فإن الآداب الآنفة الذكر بوصفها آداباً قومية ، وكذلك بوصفها آداباً تضم كل الأجناس (النثر ، الشعر ، المسرح ، النقد) لم تتشكل وتكتمل إلا بعد ثورة أوكتوبر عام ١٩١٧ .

ابــــداع

شعـــــر

قصيدة القلم

مفيــد خنســة*

أيّانَ تبتدىء السنابلُ رحلة الرؤيا
إلى حقل الأميرِ؟
أيّان هذا القمح محمولاً يجيء على؛
مواويل السجين؟!!
أيّان تفتتحُ الكواكبُ مهرجانات المدى
رتقاً لمنعطف الحصير
أو كيف تحتملُ الدفوف إلى تباريح الأنينِ

---

*مفيد خنسة: شاعر من سورية، يكتب الشعر والمقالة الصحفية. من أعماله: ديوانه «سفر الينبوع».

أيّان جدولُ سرها المكنون يروي صبوتي
عند الغديرِ
يروي ويغرق في الخيال؛
فأنتشي سكران يسحرني جنوني
ياأصدقاء الشعر، إني قد صحوت على سريري
صبّوا الكؤوس فقد أتيت إلى امرىء القيس الأسير
صبّوا الكؤوس فإنّ في بابِ المدى
بعضَ القصائد من نهايات الدهور
صبّوا الكؤوس ؛ لصاحبي؛ وتوزّعوا في شرفة
الكوخ الصغير
وتمتعوا بالوعد من خمرٍ حملتُ جراره
وتعتّقت أنخابه
الأنوار من عنبي وتيني
أفقٌ يباعدُ بين منتزه الخيال وصبوة اللقيا
وقامة عاشقٍ هجر السفوحَ
إلى انحناءات الجداول،
كالضباب، مسرّحاً أشلاءه النشوى
مع الغابات، يحلمُ بالهطول . . .
مرّت سحائب عمره مثل الندى
وتعشّقت أفق البراري والسهولِ
من ياترى حمل الخناجرَ؟
شكّها في قلب فارسها؛
وأدمى شهقة الحلم الذي نسجته من وحي الغيومِ
هي شرفةٌ خلعت ستائر بهوها . .

مركبٌ يخصبُ الوجدَ قبل ارتدادِ
الوميض إلى طرفهِ،
عصا في اليمين؛
قاربٌ آخرٌ؟
أم تراها تشيرُ إلى غامضٍ
يستبيح الضياءَ
لينفتق الكون في ظلمة الخلق
منكشفاً في الكتابْ

* * *

تتفتح الأقلام منشدة رؤى الأنسام في
الروضِ المسيّجِ بالورود؛
ويدلف الليل الملثّمُ بالضباب على السفوح،
وكوكبي،

ألقى عصاه مع المغيب، وها عطاردُ مُشجبٌ لقميصه؛
والمشتري؛
سحبت ظلال رحيله الزهرى
لترقص عند منعطف الكواكب
مدرك قلمي قصائد رقصة الكون الفسيح
ومنشدٌ زحلٌ عتابا الكوكب المفتون بالسفن؛
المجرات،
الخزائن من هدىً، وضياء ونورٍ وابتهالاتِ المسار
ليبلغ الحلم الدوائر؛ والكرات مع اكتمال قصيدة القلم المبارك؛
سوسنيٌ مرجُ قريتنا البعيدة
تزدهي بالسنديان

هل نفذت أصابع سحر جمر الرفضِ؟
ماذا أصابكم؟
أقلامكم هجرت قصائدها
لتمضي في الرياح إلى مؤامرة السلام

* * *

ويمرُّ في الأوراق
كوكبُهُ المغلّبُ في صناديق المنادي
« أنا زائرٌ
آتٍ إلى طرف المدينة ؛ فاتحاً
وأنا الطبيب أنا المداوي»

* * *

ويليق بالكوخ البعيد على المدى
أن يستضيف الوردَ،
في لألاء شرفة عاشقيه

* * *

ويليق بالكوخ البعيد على الربا،
أن يستدير كسنديانات المزار
ولزائرٌ، حذرٌ يداعب طفلةً
فرشت ذراع جنونها،
ولناهدٌ وجلٌ يباشر بالوثوب إلى القباب
مع اللسان

* * *

جرادٌ على سفنٍ طاف حول الشواطىء
طابت له أرضنا ثمّ عاد

وخطَّ لأحفاده
أنّ أرضاً أتاكم بها دون خلق السماء
فسيروا إلى خضرة الشجر المزدهي
في سفوح البلاد
وعيثوا فساداً
فميعادكم ههنا،
ثم أهمل تلك الوصيّة . . .
طافت مياه البحارِ
وغطت تخوم الشواطىء . . .
قلنا :
هو الماءُ أفنى الجراد
حمدنا الذي يحرق «الجربات»
ويذرو بها كالرماد

* * *

حافياً يخرجُ الشاعر المرتجى . .
ثم لفّني، وأمرّ على شفتيّ،
لساني،
من ريقه
قلت :
أبغي المزيد
جلستُ على راحة الكف
قلتُ :
المزيد
فياسيّدي مشغفٌ بانكشافك ثم أين العذارى

مررتُ «بسقط اللوى»
فرماني وغاب

* * *

لتسكنني لعنةٌ من كتابْ
وتوقظني شهقة في جوابْ

* * *

ولقد أتيت كواكبي مستبصراً لغة الجرادِ
وقد عرفتُ بأنّني المسكون
تلك خطيئتي
فأنا أصارحكم لأنّي واحدٌ منكم
وأخشى أن يحاصرنا الجرادْ.

* * *

أقبلت،
هل تشاور منعطف القلب،
أم تهيأ طقس القيامة؛
في ثغرها لججٌ من فتوحات أقلامنا
بيدرٌ فوق ريف الحواجب؛
يخفي بريق التألّق
نحرٌ تطاول في هدهدات النهود التي نفرت
في اتساع المدى
واحةٌ للتشهي؛
زنابق تنمو على طرف الثوب
تلهو على كتفٍ ينثني رافضاً لوقار الطقوس
أقبلت

والمرايا، تظلّل أوراقها في خريف الأناشيد
والملتقى
خصرها،
أيُّ فلاحة،
تزدهي بالتعرج في حانيات الجسد
أشتهي لولب الفخذ؛
مرتجفاً في رشاقة رقصته،
حارقاً؛
يتربّع في «كرنفال» الكمالُ

* * *

يشتاقها،
مرّة تتمايل بين الأصابع
أو تستفزّ برودته
تزدهي في التعرّي
لتملأ ذاك البياض نقوشاً؛
ومسترسلاً بالهطول
لتنفذ أحشاؤه؛
باكياً لاقتحام المدى بالضبابْ

* * *

جرأة النمل قتّالة
حين، يدخلُ أبوابَه
خشيةالجند،
من وحيها،
هدهدٌ قد أضاء لعرش مكابرةٍ

لبغداد أنشودة مرّة علّبتها الشواطىء
كانت لهيباً وومضاً وقهراً وذلاً
وهدهدةً في البلاد
لو أنّ المعري خطا في الرمال
تساءل كيف الجياد تصول بساحاتها
أو تجيء إلى شامخات التلال
وفرسانها نكسوا راية الحربِ
واستوطنت في خيام التشرد
تبكي الخيول التي بررّوها،
وأصبح فرسانها يركبون الحمير
فنجمة داؤود في القدس خفّاقةٌ
كيف نمضي !! إليها؟
ونحني الرؤوس!!
لعلّ أمير السلام على الأرض يرضى
هو النفط عوّضنا عن دمانا
فصرنا نباعُ كما لاتباع الشياة
لأعترف الآنَ
أن الذي كان مابيننا شبه أسطورة
أوحكايا قديمه
وأعترف الآن أني ارتكبت الجريمه

ولم يعد في بيدر الجيران نور جُهم،
ولاخبز الشعير – معرّض الأكتاف –
في تنّورهم ذو هيبة
أكداس حنطتهم غزاها النملُ
أودعها رهينة ضعفه،
وغدت مخافرُ جنده عبر التلال
تشيدُ للأوكار متراساتها
حطّابةٌ هي ضيعة الإنسان
تحمل وزر غابات البلاد؛
قبائل النمل الكثيفة في حقول الزرع مقبلةٌ
وفودٌ زيّنت هجراتها
وطغى مع النمل الجراد

* * *

قمرٌ على شجرٍ يغيب
وقلبُ أمّي جمرةٌ،
وفضاءُ أغنيتي مدىً؛
تتجدد الآفاقُ
قامات من الأغصان تورق في القمر
والتلة الوسنى تهزّ سرير راويها،
وترضعُ نخلها
تغفو ململمة ستائر عريها
ورق تثاءب،
أخرجت أثداءها، وصمت على قلمي
يرتّل سفرها

بيروت وافدةٌ؛
ترش دمشق مسك الوجد في الشرفات
تفتح نافذات القلب،
والحبق الأليف تُضوعُ من أنسامه قمم
الجنوب
بيروت تدخل،
كلّ بيت، كل قلب
قريتي كنست أزِقّتها،
زواريب البيوت، وزينّت أطرافها بالسنديان،
خرجت إلى بيروت تكشف عشقها
طبخت لها الديك الكبير الأحمر البلديّ
فوق البرغل المغمور بالزيت المصفرِ،
مشبعاً بالحمص «الفوعي»
والبصلُ المحبّبُ يملأ الأطباقَ
سهرت،
وأفرغت الخوابي خمرها
رقصت وغنّت حبّها
حطابةٌ هي ضيعةُ الإنسان
تمضي قريتي منسية فوق الجبال

* * *

دخل الجزيرة؛
والضبابُ مهاجرٌ في عبُ سترته الجميلةِ
لم يكن في هيئة الشطآن أيّة لعنة؛
أو كوكبٌ يدنو إلى تلك الجزيرةَ

هل أضاء له المكان؟
وخيّمت أشلاؤه فوق الرمالِ على الورود ندىً
وباقاتٍ من النعناعِ
أو أسرٍ من الحبق الأليف
هجر السنابل قمحُها
وغفا اليتيم على غصون الموج
يحلمُ بالرغيف
دخل المدينة
كان متتحلاً ضياء بيوتنا
فانو سنا خطف الإشارة
وارتمت تلك المدينة في الظلام
ألقى السلام على الرفاقِ
على الذين مضوا إلى غاياتهم
ألقى السلام ولم نردّ
ففاض نور ضيائه
في الأفق يملأ حاجبيه
دخل المقابر
حين صادرنا الكلامُ
وقادنا القلمُ الجريء لكي نوقّع صفقةً أخرى
نبيع دماءَنا عبر البنوكِ
وحول بيّاراتهم
نشتاق للقيا على سفح الجزيرة
من جديد؛
هلاّ قرأنا فاتحات القمحِ والحطب القديم

نشتاق للقيا
فلي في الأرز أغنيّة يردّدها الصباح
لي في الجليل قصيدةٌ
كتبت مطالعها الجراحُ
لي في الجنوبِ
وفي الجزيرة سرّ عشق لايباحُ
سأعترف الآن،
بعد رحيل السنابل والاقحوان
أنّ الذي كان مابيننا،
شبه أسطورة وحكايا قديمه . . .
وأعترف الآن أني ارتكبت الجريمه
لو أن الذين طوتهم مقابرنا ذات يومٍ
يجيئون؛
كيف نساومهم مثلما نفعل الآن في الغرف المظلمه
عصيٌّ على القلب أن يترجّلَ عن صهوة الريح
ومضاً جميلاً يؤجج في عتبة الكون
زيت المصابيح،
كي تمضي ثم الأرض أرجوحةً ثم تمطر بيروت سجيّلها في الفراش
عصيٌّ على الدمع أن يتواثب فوق الجراحِ
ونحن نباعُ - بأسواقهم - كالخراف
فأيٌّ الكواكب باح بأسرارنا في المدى
ليجيء الجراد
وغاباتنا كيف لاتبدأ الآن خضرتها
وهي في مأمنٍ من سلامٍ مريب

ابـــداع

قصـــة

الآخـر.. الآخـر

محسـن خضـر

حشرجتـه المسموعة اختلطت بأنفاسه اللاهثة.. لمت من اختاروه لمراقبتي. تميزه أيضاً عينان حمراوان وكرش متدلٍ من تحت سترة باهتة رثة.

أما عرجه الخفيف فيميز مشيته ويكسبها طابعاً خاصاً. أدركت مأزقه فحاولت ألا أرهقه.

محسن خضر: أديب وقاص من من القطر المصري، له عدد من المساهمات القصصية في الدوريات العربية.

تعمدت إبطاء خطواتي محافظاً من ناحيتي على فارق المسافة بيننا وحاول بدوره ألا يكشف نفسه . وأعراض الربو تنبىء عن وجوده .

أعترف أن ظهوره المفاجىء بدد حالة الملل في حياتي وأكسبها طعماً مغايراً . تصور أن تجد نفسك أمام قطار مسرع ، أو تحوطك عصابة ، من قاطعي الطريق ، أو يقتحمك خطر يهدد وجودك الحي ، كيانك الشخصي ، اتزانك المألوف .

حفظت ملامحه إلى الدرجة التي رسمت وجهه عشرات المرات على الورق في المنزل والشركة . أتسلى عشرات المرات بمراقبته من جانب نافذة مكتبي بالشركة أو من وراء ستائر نافذة غرفة النوم .

أعترف بتفانيه في عمله ، وأمانته في أداء مهمته إلى حد الغباء المفرط ، يضايقك أحياناً غباء المقربين منك وخاصة إفراطهم في التعبير عن مشاعرهم وتفانيهم للتأكيد على إخلاصهم لك . يستوي الحبيب والصديق والأخ .

نتبادل المواقع : يراقبني في الطريق وأراقبه من داخل شقتي أو عملي ، أليس من حقي أن أتلصص عليه كما يفعل ، وأرصد حركاته وعاداته ولوازمه الدقيقة بالمثل ؟

سأذكر ملاحظتين دقيقتين عن عاداته : فهو يدخن السيجارة حتى مبسمها ويكاد يلتهمها التهاماً ، ويميل إلى وضع يده على كرشه في حركات دائرية صغيرة كأنه يدلكه إذا بدا مستغرقاً في التفكير . .

سرى بيننا اتفاق ودي هادىء : لا أغادر المنزل بعد منتصف الليل حتى أتيح له الفرصة للعودة إلى منزله والاستسلام لنوم يمتص إرهاق اليوم الطويل . . لا يخلو الأمر من معايشة ، أقرر فجأة دخول السينما وأحرص على الجلوس في أفخم مكان بالقاعة لإحراجه ودفعه للجلوس بالقرب مني متكبداً خسارة فادحة ، و يومها لم أمتعه بتكملة الفيلم حتى نهايته ، وانصرفت خارجاً ليندفع ورائي كاظماً غيظه ، ويبدو أن سبابه طال جدي الأكبر الذي لا أعرف اسمه .

لم أهتد للوقت الذي يقدم فيه تقريره لرؤسائه عن تحركاتي، وبينما يهجع ظلي عند الغروب في بيتي إلا أن الرجل يظل مترصداً إياي حتى يتأكد من إطفاء أنوار بيتي فينصرف مطمئناً.

دفعت أفكاراً شريرة في أيام ظهوره الأولى في حياتي: أمسك بخناقه، أشبعه ضرباً وركلاً، أو أطلق ساقي للريح فيفقد أثري، لماذا لا أستنجد بالمارة طالباً الغوث متهماً الرجل بسرقتي.

بعد تفكير عولت على التظاهر بتجاهله، و استراح بدوره إلى تجاهلي المصطنع، وكأننا اتفقنا على قواعد اللعبة: أتظاهر بالتجاهل ويتظاهر بدوره بتجاهل تجاهلي.

لأي لعبة في الحياة قواعد ينبغي الاتفاق عليها، لميلادنا قواعد، ولحبنا قواعد ولانكسارنا قواعد، ولنجاحنا قواعد، حتى لخيانتنا أو موتنا قواعد ينبغي احترامها.

لم أمر بهذه الخبرة المثيرة من قبل، ولكنني بالسليقة توصلت إلى قواعد اللعبة، أستسلم للمراقبة، وأتظاهر بالجهل لتمضي اللعبة إلى نهايتها ولاتفقد متعتها.

تعمدت أن أعمد إلى السير بدلاً من استخدام الباص كما تعودت في ذهابي وعودتي من الشركة، ووجدت في ذلك متعة أكبر فالآخر لن يتردد في متابعتي على قدميه، ستزيده مشقة الطريق إرهاقاً عوضاً عن متاعب الربو وتأثير التدخين...

هاجمتني فكرة خبيثة عند عودتي من عملي في أحد الأيام ترصدت المرأة الفاتنة التي اعترضت طريقي، قررت مغازلتها، ناورت ودرت واقتربت وابتعدت ولنت واخشوشنت حتى اضطرت المرأة للاستغاثة، و لم يجرؤ على التدخل، ادعى التجاهل، وجدتها حيلة مثيرة ستتسلل إلى تقريره اليومي عني.

وفي يوم آخر عرجت فجأة على المسجد، و شاركت في الصلاة

جماعة، وأتبعتها بالسنن وبما تيسر من الركعات، وبالطبع اضطر الرجل للدخول، ومشاركتي الصلاة من خلف خشبية هروبي من باب آخر للمسجد.

تحول الموقف في الأسبوع الثاني إلى لعبة مثيرة أملك خيوطها وأحدد قواعدها، وتحول الآخر إلى تابع أوجهه، وأحدد ردود أفعاله وأملي عليه إرادتي وقراراتي.

أستطيع أن أقدم تقريراً تفصيلياً عن الرجل الذي خبرته وسبرت أغواره، وخاصة أن تأثير توجيهي الهادىء للرجل وتحكمي في خطواته، تراكم بمرور الأيام وعكسته ملامحه المرهقة.

لاأحب السينما، ولكني سحبته ورائي إليها، ولا أطيق لعبه كرة القدم، ولكني قدته نحو الاستاد في ظهر الجمعة التالي وكبدته ثمن تذكرة الدرجة الأولى مضطراً لملاحقتي حتى لايفقد أثري وتقع الواقعة، وكعادتي لم أمهله لنهاية المباراة، وخرجت في منتصف الشوط الثاني فخرج ورائي لاعناً مسقط رأسي وكل شجرة عائلتي.

بدأ الملل يتسلل إلي في بداية الأسبوع الثالث رغم أنني تعودت وجود الآخر في حياتي، ومعلماً ثابتاً فيها، وعلامة معتادة في أيامي الضجرة.

السبت كان، مبتدأ الأسبوع الثالث لظهوره.

بدأت رحلة العودة عند الثالثة ظهراً.

وخز قدمي اليمنى عزوته إلى صلابة حذائي الجديد الذي اشتريته مؤخراً.

تلبد وجه السماء فجأة، أعلنت عن غضبها طاردة قرص الشمس أعلى ميدان التحرير، أصاب الميدان ارتباك تبدى في الهرولة والتخبط الذي اعترى المارة. اضطررت للاحتماء بأقرب سقف صادفني، كان المقهى الذي اقتحمته غاصاً بالزبائن.

نقر زخات المطر فوق الاسفلت ونوافذ السيارات تداخل مع إيقاع

الأقدام المهرولة في تآزر مدهش.

القاهرة المنهكة التي غلبت الزمان والخصوم توهن أمام دفعة مطر. كان البلل يغطيني خلال ثوان قبل دخولي المقهى.

المقعد الخالي الوحيد في ركن المقهى جذبني كالمغناطيس، تنبهت فجأة إلى وخز قدمي. أين اختفى الرجل؟ نسيته في انهماكي بالهروب من المطر، ظهر الرجل في نفس الوقت، يكاد يكون هرماً مبتلاً، أفقده البلل اتزانه فبحث عن منقذ، خلا المقعد المجاور حتى خلته فعلاً متفقاً عليه بينهما.

أشرت للرجل الآخر تنبه، هرول في لهفة احتل المقعد المجاور. شكرني. جلبة المقهى غطت كلماته، طلبت من النادل الذي قصدني كوبين من الشاي وأشرت إلى الرجل الآخر، بدا ممتناً ومرتبكاً، وحياني بحرارة عندما ارتشف الرشفة الأولى من الكوب الساخن باعثة إحساساً بالدفء أخرج علبة سجائر، بحثت عن كبريت، بادرته بقداحتي، ناولني واحدة فأخذتها ممتناً وأشعلتها.

ركن كلانا إلى مقعده نزعت حذائي لأتخفف من الألم وأخرجت قدمي المحشورة فشعرت بالدماء تجري في عروقي. ما أسعدني بلا حذاء حتى في وجود هذا الآخر بجواري..

* * *

الايقاع في النقد العربي من المفهوم الى المصطلح

يوسف اسماعيل

تدخل جلّ الألفاظ المتوافرة في الثروة اللغوية، قبل تعيينها لأطر مفهومية، ذات دلالات اصطلاحية خاصة، في مرحلتين: مرحلة التعبير الوضعي السكوني، ومرحلة التعبير المجازي المتحرك. وتشكل الرحلة الأولى صوأرة البحث من استقرار المعنى، بينما تشكل المرحلة الثانية صورة الحركة والاستعارة والانتقال الدلالي؛ حيث يصير الناس إلى النسخ والتجوّز في العبارة؛ فيعبرون عن المعنى بغير اسمه الذي جُعل له في مرحلة

يوسف اسماعيل: أديب وباحث من سورية، يهتم بالدراسات الأدبية والأدب المقارن.

الوضع، ملتمسين أي تعلّق دلالي بين المرحلتين ـ الوضعية والمجازية ـ ولو كان يسيراً؛ فتحدث الاستعارات والمجازات[١] وتدخل الألفاظ بذلك في حالة الالتباس والغموض والتشويش، وتوسّع الدلالة وتضييقها[٢] إلى أن يستقر بعضها مرة ثانية بدخولها ضمن الحقل المجازي في مرحلة التحديد العلمي للمدلول الاصطلاحي[٣]

غير أن بعض العلوم تبحث عن مصطلحاتها داخل الجذر اللغوي واشتقاقاته في مرحلة التعبير الوضعي السكوني[٤]

ينطبق هذا على لفظ «الإيقاع». فالقاموس العربي يذكره بحالته الاصطلاحية في علم الموسيقى، بمعنى إيقاع ألحان الغناء وتبينها[٥] وتكاد لاتخلو أغلب كتب الموسيقى في الثقافة العربية القديمة من ذكره بوصفه مصطلحاً في علم الموسيقى.

ويكشف التدقيق في معناه الاصطلاحي عن سمة جوهرية فيه، تربطه مع أغلب مشتقات مادة «وقع». فابن سينا (ـ٤٢٨هـ) يقول: إن الإيقاع (تقدير مالزمان النقرات)[٦] وفي هذا عنصران: النظام والصوت.

ويقول ابن منظور (ـ٧١١هـ): وقع بمعنى سقط. ويقال سمعت وَقْع المطر، وهو شدةّ ضربه. والوَقْعة في الحرب صَدْمة بعد صَدْمة... وأن يقضي في كل يوم حاجة إلى مثل ذلك من الغد.. والوقعة، المرة من الوقوع (السقوط) وأنجو من النَّجو، الحَدَث: أي آكل مرة واحدة، وأحْدث مرة في كل يوم... والوَقْع والوقيع: الأثر الذي يخالف اللونَ. والتوقيع: رَمْيٌ قريب، وإصابة المطر بعضَ الأرض وإخطاؤه بعضها. والتوقيع في الكتاب: إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه. وقيل هو مشتق من التوقيع الذي هو مخالفة الثاني للأول. والتوقيع في السير شبيه بالتلقيف، وهو رفعه يدَه إلى فوق[٧]

نلاحظ في المعاني دلالة مشتركة، تشير إلى تشكّل نظام ما، من فعل جزئي، يقوم على خرق الثاني للأول، بشكل متتابع إلى مالانهاية. فهو في الحرب مرة تلو مرة، وقضاء حاجة واحدة في كل يوم، وفي الوقيع خرق للتتابع لوني، يتكرر بشكل دائم. وهو في المطر إصابة بعض الأرض

وإخطاؤه بعضها بشكل متكرر، أي خرق لوني أيضاً. وهو في الكتاب خرق لنسق السواد في الصفحة. وفي السير رفع اليد اليسرى في مخالفة اليد اليمنى، لخلق نظام السير.

إن المشترك الدلالي الثابت في ذلك إذن، هو نظام ما، يخلقه نفي الثاني للأول بشكل متكرر. وفعل النفي هنا دلالة على الصراع والتعارض داخل النظام نفسه... النظام الذي يتطور بإثبات الشيء وخفيه في الوقت نفسه. وهذا يربطنا بمفهوم «دوسوسير» والبنيويين بشكل عام، عن التعارض الثنائي في مفهوم النظام[٨]

أما مايعطي هذا المشتق اللفظي أو ذاك دلالته الاصطلاحية، فهو المضاف إلى فعل النظام. وينتمي إلى الحقل الدلالي؛ فهو، في علم الموسيقى مثلاً، الصوت. ولذلك نرى أن دلالة مصطلح الإيقاع في علم الموسيقى، هي نظام صوتي.

في ضوء ذلك يمكن القول: إن المعنى الاصطلاحي للفظ «الإيقاع» يحمل عنصرين: المشترك الدلالي الثابت، والدلالة المضافة المتغيرة. وعليه فإن الإيقاع قد (استعير من الحركات المنظَمة للأمواج)[٩]. ويَجْمع «هنري ميشونيك» العديد من التعاريف لهذا المفهوم. وجميعها تراه، في دلالته العامة، تعاقبا انتظامياً لوحدة أو وحدات، وفق وضع معين وعدد محدد، ومدة زمنية معينة[١٠]

ذلك بمجمله ماشاع بين الباحثين من أن الإيقاع ظاهرة صوتية، ومعناه الاصطلاحي وُقّف على المادة الصوتية، لايتعداها[١١] وعلى أساس ذلك فسروا غيابه من النقد العربي الكلاسيكي بشكل عام، وعلم العروض بشكل خاص.

ولعل أسباب وقوع ذلك اللبس تتجلى في أمرين:

الأول: انتشار لفظ الإيقاع ـ بمعناه الاصطلاحي في علم الموسيقى ـ في جلّ الثقافة العربية الكلاسيكية.

الثاني: عدم الوقوف على تكوينه الثنائي؛ المشترك الدلالي الثابت، والدلالة المضافة المتغيرة.

وذلك أدّى في الفهم العام إلى تغليب الدلالة المضافة المتغيرة في معناه على المشترك الدلالي الثابت. وبدا - في بعض الآراء المعاصرة - ذا طبيعة صوتية في جوهر معناه، ولذلك فهو أعم من الوزن، الذي درُست تحته موسيقى الشعر العربي[١٢]

يدل غياب المصطلح من الثقافة النقدية العربية على أنه لم يدخل في الحقل الدلالي للشعر، إلا أنه ورد مرّات قليلة في بعض تلك المصادر بدلالته الموسيقية، كما هو المعنى في قول ابن طباطبا (-٣٢٢هـ): (وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه)[١٣]. فربط بين الإيقاع والطرب. ويبدو قول إخوان الصفاء أقل التصاقاً بالمعنى الموسيقي: (إن الغناء مركب من الألحان، واللحن مركب من النغمات، والنغمات مركبة من النقرات والإيقاعات، وأصلها كلها حركات وسواكن. كما أن الأشعار مركبة من المصاريع، والمصاريع مركبة من المفاعيل، والمفاعيل مركبة من الأسباب والأوتاد والفواصل، وأصلها كلها حروف وحركات وسواكن)[١٤] ففي النص إشارة إلى التركيب والبناء في الغناء والشعر.

وربما كان ذكره عند السجلماسي في القرن الثامن الهجري[١٥] أكثر ابتعاداً عن علم الموسيقى لأنه - أي السجلماسي - ربط بين الوزن والإيقاع، آخذاً بالمفهوم الزمني للوحدة الإيقاعية التي فسرها القول السابق لإخوان الصفاء، حيث يعد الإيقاع تنظيماً للشق الزمني منه[١٦] يقول السجلماسي: (الشعر هو الكلام المُخيَّل المؤلَّف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة، فمعنى كونها موزونة، أن يكون لها عدد إيقاعي)[١٧].

وتحدّث الجاحظ عن طبيعة الحرف، فذكر الإيقاع: إن من (أبرز صفاته - أي الحرف - اثنتان: الجهار إذا كان فخماً، جيد النغم، عذب الإيقاع، والدقة إذا كان خافت الترجيع غير مستساغ)[١٨]

يلاحظ أن ورود المصطلح في بعض المصادر العربية لم يعطه شرعية الانتقال الدلالي من حقل علم الموسيقى إلى حقل علم الشعر، بل إن دلالته الموسيقية هي التي استُعيرت للدلالة على الجانب الصوتي في التأليف والنظم. ولذلك عدّة أسباب، يرتبط أولها بالعلاقة بين المفهوم والمصطلح في الحقل الدلالي للنقد العربي الكلاسيكي وشروط تولدهما.

إن الألفاظ في علم المصطلحات وحدات مادية صوتية، قابلة للدخول في أبنية تركيبية متعددة، أما المفاهيم فهي وحدات فكرية[١٩] لاتحمل في ذاتها تشكيلاً مادياً، ولاتدخل في أبنية تركيبية، وهذا يعطيها قابلية كبيرة للتغيّر المستمر بالتوسيع والتضييق، وذلك عكس المصطلحات التي تتحدد دلالتها بين أهل العلم؛ حتى تفضي إلى اللبس والتشويش[٢١] وتتولد بالمواضعة المبررة ـ فردية[٢٢] كانت أم جماعية[٢٣] والاصطلاح المدروس[٢٤]

وعليه فإن اللغة تحاول بشكل دائم ملاحقة المفاهيم لبلورتها ضمن أطر اصطلاحية، غير أن المفاهيم بطبيعتها المعرفية الشاملة، تتمرر بشكل دائم[٢٥] وقد يخلق هذا في الثقافة حالتين: تضخماً لفظياً أو ثروة مفهومية.

تحدث الأولى في الحالات التي تتعدد فيها الألفاظ للمعنى الواحد، أو في الحالات التي تكثر فيها المصطلحات في بعض العلوم بدرجة لاتتناسب مع حجم المفاهيم المؤطّرة داخل تلك الثروة المصطلحية؛ مما يخلق مشكلة توصيلية داخل الحقل المعرفي. وهذا ماينطبق على علم العروض العربي، والبلاغة العربية.

وتحدث الثانية عن قصور الثروة المصطلحية الكائنة، وعدم قدرتها على تأطير الثروة المفهومية المتوافرة، في حقل من الحقول المعرفية[٢٦] ممايؤدي إلى استعمال الجمل الطويلة، والتعابير الغامضة، والمعاني المجازية للتعبير عن المفاهيم المجردة، والآراء الناضجة في حقل معرفي ما. وهذا مما ينطبق على النقد العربي الكلاسيكي للشعر عامة، وعلى ماينطوي في ذلك النقد تحت مفهوم الإيقاع الشعري في النقد العربي الحديث بشكل خاص.

إن التأطير العام في النقد العربي الكلاسيكي حصر موسيقى الشعر - كما هو معروف - في علم العروض. غير أن جميع الأبواب الأخرى التي اهتمت بمستويات القصيدة تحت عناوين متعددة مثل، اللفظ والمعنى، وسر الفصاحة، والمحسنات اللفظية، وعلم الصوتيات بشكل عام... لم تخل من حديث عن ألوان من الإيقاع الشعري بألفاظ غامضة، وتعابير مجازية، نذكر منها على سبيل المثال: عذب الإيقاع، جيد النغم، فخم، خافت، تنافر الحروف أو انسجامها، إطراب النفس وإيناس الحس، يطيب لحنه ويثقل في التأليف، تستلذه المسامع، وتتآلف الألفاظ وتتناسب، وتظهر سهولة المخرج وكثرة الماء وجودة السبك، والشعر ضرب من النسج وصحة التأليف، ببداعة اللفظ ورواءته، طراز خلق، المماثلة، الحلاوة والطلاوة والمرارة والوزن... الخ

وفي هذا دلالة على الثروة المفهومية الناضجة في النقد العربي: إلا أن الطاقة اللفظية للغة كانت بطيئة التوليد للجهاز اللفظي؛ نتيجة النشاط المعرفي المكثف الذي ساد قرون نضج النقد العربي. وحين بدأت تهدأ ثورة الإبداع، ومال النقد إلى الشرح والتفصيل والإيجاز، تحولت مسألة فيض الثروة المفهومية إلى مشكلة التضخم اللفظي.

وفي خضم ذلك توزع مفهوم الإيقاع، والتصورات الذهنية الناضجة حوله في أبواب متعددة؛ كانت تدرس اللغة والمعنى أو الأصوات، وفي ذهن الناقد صورة مثلى عن التنافر والانسجام تتمثل في الشعر العربي، يلجأ إليه للاستشهاد، وبذلك أصبحت الكتابة في اللغة وعلومها مركزية في الدرس النقدي على حساب نظرية الشعر.

يضاف إلى ذلك أن النقاد العرب ركزوا في حديثهم عن الفرق بين النثر والشعر على أمرين: الوزن والتخييل، وهذا يعني أن من جاء من النقاد بعد عمل الخليل بن أحمد (-١٧٥هـ) مائل بين العروض وإيقاع الشعر العربي. ولذلك جاءت الجهود النقدية قراءة لعروض الخليل، ولم تطمح -

بأحسن صورها إلى غير الإضافة والتعديل[٢٧] دون أن تمس الأساس الذي أقام عليه الخليل مشروعه، أو تتلمس جوانب إيقاعية خارج إطار الوزن. ولو حدث ذلك لتغيّرت نظرة النقد العربي فيما بعد إلى الفرق بين النثر والشعر بشكل عام، وإيقاع الشعر العربي وعناصره بشكل خاص. غير أن ذلك لم يحصل، بل إننا لانعرف في تاريخ النقد محاولة واحدة تقدم على إدراك العروض العربي إدراكاً موسيقياً[٢٨] وعليه فإنهم ـ أي النقاد القدماء ـ لم يدركوا أن العروض ليس إلا نظرية من نظريات الإيقاع الشعري[٢٩]

يعني ذلك بمجمله، أنه لم تتبلور نظرية نقدية شاملة لمفهوم الإيقاع الشعري[٣٠] وعناصره. وهذا أدى إلى الحفاظ على مصطلح الوزن للدلالة على إيقاع الشعر، ولكنه لم يحل دون تذوق النقاد العرب لعناصر إيقاعية، وتبدّت في الشعر خارج إطار الوزن، ولكنها لم تشكل تأطيراً نظرياً تحت مصطلح الإيقاع. أي أن غياب المصطلح لم يمنع من حضور المفهوم، وذلك تحت أبواب اللغة وعلومها، وعلم الصوتيات.

ولن نحاول هنا لوي عنق النصوص لتبيين ذلك، وإنما سنعمد إلى التأويل، لعلنا نتلمس إجابة غير مباشرة؛ فقراءة النقد العربي الكلاسيكي، وإن كانت تُخرج الدارس في نهاية المطاف إلى عناوين عريضة، إلا أنها لاتستطيع إبقاءه حيادياً حيال كلمات متناثرة في ثنايا النصوص، ترتبط بعنصرين إيقاعيين: التأليف والمادة الصوتية. والعنصران ينتجان تجانساً صوتياً خارج إطار الوزن.

والشعر يتألف من مجموعة من الحروف المختلفة صوتياً، ولكن الشاعر يطبق في قصيدته مجموعة من أنظمة التشابه الصوتي على خط من التحالف الدلالي، وهذا يخلق قدراً كبيراً من التجانس الصوتي. ولذلك فإن تكرير الأصوات حالة ضرورية في تركيب الشعر تنشأ نتيجة الوزن ومساره الدوري في الدرجة الأولى[٣١] كما تنشأ نتيجة وعي ظاهر بالقيمة

الموسيقية للتكرير والتنويع في المادة الصوتية، وقد تأتي بفعل إدراك القيمة التعبيرية في بعض أشكال التجانس الصوتي، كما يمكنها أن تأتي بوصفها ظاهرة جمالية في الشعر؛ تسوده في فترة من فترات عصوره، وعند فئة دون أخرى.

ويلعب التأليف دوراً رئيسياً في خلق التجانس الصوتي، وبدونه لن نحصل على إيقاع شعري، وإنما على فوضى لاتشكل نصاً شعرياً، وفي أرقى درجاتها ستخلق نصاً نثرياً، يأخذ فيه المسار الطولي(٣٢) دوراً جوهرياً لهيمنة الوظيفة التوصيلية على بقية الوظائف، التي تؤديها الرسالة(٣٣).

وقد أدرك النقد العربي الدور الرئيس الذي يحتله ذلك التأليف في خلق القيمة الموسيقية للأحداث، بخاصة حين تكون متضادة، كالأصوات الحادة، والغليظة، حيث يأتي الامتزاج ليصيّر منها لحناً موزوناً تستلذه المسامع(٣٤) وهذا يعني أن النقاد العرب كانوا يدركون طبيعة الأصوات العربية وطاقاتها اللحنية، ولذلك تناولوا في نقد الشعر ضرورة الابتعاد عما يسبب التنافر بين الحروف في الكلمة، وبين الكلمات في الجملة، وأثر ذلك على إطراب النفس(٣٥). كما تحدثوا عما يثقل ويتنافر في التأليف، كالحروف ذات المخارج المتقاربة، وكالجمع بين متضادين إذا كان فيها استثقال، ولذلك يندر أن نجد كلمة مؤتلفة من حرف واحد مكرراً من حرفين متلاصقين في مخرجهما، كما أن الإدغام قد أحال المتماثلين، وكثيراً من المتقاربين إلى صورة الحرف الواحد. بل إن حس التأليف بين الحروف والكلمات، لخلق التجانس الصوتي، كان من بين المعايير النقدية التي حكم فيها الآمدي (-١٧٠هـ) بين أبي تمام والبحتري، يقول: (ينبغي أن نعلم أن سوء التأليف ورداءة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقاً... وذلك مذهب البحتري)(٣٦)

وهذا يدل على أن التفاضل الجمالي لايقع في الحروف والألفاظ، وإنما يقع في التأليف بينها، على الرغم من أن للألفاظ المفردة في الأذن نغمة

(لذيذة كنغمة أوتار، وصوتاً منكراً كصوت «حمار» وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم)[٣٧]. غير أن ذلك الإيقاع المفرد للكلمة الواحدة لايشكل تجانساً صوتياً لخلق قيمة جمالية موسيقية؛ إلا إذ دخلت تلك الإيقاعات المتنافرة في ضرب من النسيج، تأتلف فيه المتنافرات، وتندغم في المتماثلات.

إن الإحساس بقيمة مجمل مستويات ذلك التأليف الصوتي، هو في جوهره تمسك بالقيمة الجمالية التي تحققها البنية الصوتية على مستوى الإيقاع الشعري. تلك القيمة التي بدأت تبرز بشكل لافت للانتباه تحت ألوان شتى من المحسنات اللفظية، خاصة في العصور المتأخرة.

فابن أبي الأصبع (-٦٥٤هـ) يضيف، في حديثه عن موسيقى الشعر، إلى الوزن والقافية أشياء مثل، التسميط، والمماثلة، والتجزئة والسجع والترصيع والتصريع، والتشطير والموازنة والازدواج[٣٨].

ويحاول اسماعيل بن الأثير الحلبي المصري (-٦٩٩هـ) تلمس علة جمالية لكل لون بلاغي يعرض له، وهي في الجناس، ميل النفس إلى سماع اللفظة الواحدة، إذا كانت بمعنيين، وتوقها إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذلك اللفظ[٣٩].

ونجد إدراك نقاد العصور المتأخرة للعلة الجمالية، في المحسنات اللفظية، في انقسام النقاد إلى فئتين: فئة تقول بالمحسنات اللفظية، وفئة تقول بالمحسنات المعنوية؛ فابن حجة (-٨٣٧هـ) المدافع عن المحسنات المعنوية بشكل عام، وعن التورية بشغل خاص، يرفض المحسنات اللفظية التي لاتقدم برأيه وظيفة للمعنى؛ فالجناس محسن لفظي لاصلة له بتحسين المعنى، وإنما فيه طنين صوتي، يشكل السامع ويلهيه عن الفطنة السريعة إلى المعنى[٤٠] وفي هذا الرأي على الرغم من معارضته للمحسن اللفظي، إدراك لما في ذلك المحسن من دور في خلق الإيقاع الشعري.

بعد أن توضح لدينا أن غياب مصطلح الإيقاع من النقد العربي الكلاسيكي لم يمنع من حضور بعض عناصر المفهوم، كعلم العروض والتجانس الصوتي، أصبحت إعادة قراءة ماكتبه النقاد العرب. حول تعريف الشعر، وربطه بالوزن ضرورة يحتمها الحسّ المعرفي، والتواصل الخلاّق مع التراث النقدي.

لقد فسّر النقاد في العصر الحديث تلك الآراء النقدية التي عرّفت الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى بالدلالة الحرفية للمفردات، وليس ذلك فحسب، بل إنهم اجتثوا تلك التعريفات من سياقها المعرفي في نظرية الشعر عند العرب، وجعلوا منها مادة يسهل تكريرها في كل مناسبة لإدانة النقدالعربي الكلاسيكي، واتهامه بالقصور على مستوى التفريق بين الشعر والنثر، من جهة، وعلى مستوى الفاعلية الشعرية، من جهة أخرى. وكان من الأجدى لو فُسِّرت تلك الآراء في ضوء إعادة تشكيل الصورة الشاملة لنظرية الشعر عند العرب. لأن ذلك سيقي الناقد من الوقوع في القطيعة المعرفية بينه وبين النص في الدرجة الأولى، وبين النص وسياقه المعرفي في الدرجة الثانية.

وانطلاقاً من ذلك فإن حضور بعض ضروب الإيقاع في النقد العربي تحت أبواب مختلفة، تحرضنا على فهم الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى ضمن السياق الآتي: إن الوزن يسيطر في الشعر العربي القديم على النص. ويعمّ جميع جوانبه أفقياً وعمودياً، ولايتغير من موقع لآخر، ولايحضر في نص دون غيره.

ويصحب ذلك الإيقاع القار - أي الوزن - إيقاع متغيّر، يبني نسيج القصيدة، يغيب ويحضر في موقع دون موقع، ونص دون نص. يحضُر بكثافة في هذا المقطع. ويندرة في ذاك المقطع، ويمثل الإيقاع القار بالنسبة إلى الإيقاع المتغيّر، المصدر الذي يحتضنه ويستقطبه، كما يستقطب الأصل الفرع، والكل الجزء. وعليه يجوز اعتبار الوزن أصلاً، وضروب الإيقاع الأخرى فرعاً.

وفي الإطار نفسه فهم عبد الله الطيب العلاقة بين الوزن وضروب الإيقاع الأخرى، إلا أنه لم يحاول إعادة ذلك إلى رؤية النقد العربي القديم، ولو كان فعل ذلك لأغنانا عن القول بضرورة قراءة تعريفات الشعر قراءة جديدة. يقول: (هب الوزن بمنزلة دقات ما، والقافية بمنزلة صوت يصبغ هذه الدقات... فإن اتحاد وزن العروض في البيت الذي تقع فيه مع جرسها يجعلهما معاً بمنزلة آلة بعينها تُحدث صوتاً بعينه على نسق معلوم، ثم إذا تكررت الأبيات آخذاً بعضها برقاب بعض، وكل منها فيه ألوان من التنويع... الناشئ من السكتات والزحافات والحركات... كل ذلك بمنزلة دفْع من التأليف الموسيقي يشرف عليهن صوت واحد متكرر يكون لهن بمنزلة الإطار... ويربط بينهن برابط الوحدة والانسجام، ويصبغ أنغامهن المختلفات بلونه الواحد المنيف عليهن، فإذا أضفت إلى كل هذا ماتحدثه ألفاظ التعبير نفسها من تلوين للحركات والسكنات بأجراسها وإيقاعها وأصباغها البيانية، تبينت مقدار الربط والانسجام والوحدة التي يحدثها اتحاد الوزن برنينه المتصل المنتظم لجميع ذلك)[٤١].

إن ذلك السياق النقدي الذي جَعل من الوزن إيقاعاً قاراً، ومن ضروب الإيقاع الأخرى إيقاعاً متغيراً، يشكل جوهر النظرية الشعرية لمفهوم الإيقاع في النقد العربي القديم.

ووفق تلك النظرية يمكننا القول: بما أن الثابت / الأصل هو الأعم والأشمل من المتغير / الفرع، فإنه يجوز أن ينتسب الموصوف إلى الأصل على اعتبار اشتماله على الفرع، فيقال: إن الشعر كلام موزون مقفى. وتكون دلالة الوزن تشمل الوزن - أي بحور الخليل - وضروب الإيقاع الأخرى.

يضاف إلى ذلك أن ربط الشعر بالوزن «الإيقاع القار» لايعبر عن إهمال بقية المستويات النائية في الشعر، وإنما يدل على مركزية المستوى

الإيقاعي بين المستويات الأخرى، ولهذا يجب ألا يدفعنا ذلك التفسير إلى الحط من قيمة الموقف النقدي الذي كان وراء ربط الشعر بالوزن، وإنما يجب أن يثير فينا الفضول في معرفة الدور الذي يلعبه المستوى الإيقاعي في القصيدة عند النقاد العرب. هل هو مشكل خارج عن المحتوى؟ فارغ تمتلئ به الأدلة الحاملة لمعناها، معارض للمعنى؟! أم أنه لايكون خارج المحتوى، وإنما يمر مرور الذات في اللغة، مرور المعنى، فيبلغ كل صامت، وكل صائت؟!

هذا مايجب أن تجيب عنه دراسة مستقلة، متخصصة. وإذا كانت الإجابة أن الإيقاع في النقد العربي، يتجاوز البحر الشعري، وليس شكلاً مستقلاً عن المعنى، بل تشكيلاً جديداً للمحتوى فهو إذن القصيدة ذاتها، جوهرها، ومركزها الذي تنتجه جميع عناصر الفاعلية الشعرية. وبذلك يمكننا القول: إن الموقف النقدي الذي عرّف الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى كان يرى كما يقول الرمزيون: الشعر موسيقى قبل كل شيء[٤٢] ولذلك ربط الشعر بالوزن.

* * *

لا تكاد تخلو دراسة نقدية حديثة حول الشعر من ذكر لفظ الإيقاع، بوصفه مصطلحاً يرتبط بعلم الشعر. بل إن مجموعة من الدراسات أوردته ضمن عنوانها[٤٣] ويعود ذلك الاهتمام إلى:

١ـ إحساس الدارسين بضرورة تطوير البحث في الشعرية العربية، وخاصة مايرتبط منها بالإيقاع[٤٤]

٢ـ التثاقف الحضاري بين النقد العربي الكلاسيكي والمدارس النقدية الأجنبية، ومايلعبه من دور بارز في لفت الانتباه إلى ضرورة إعادة النظر في معطيات النقد العربي القديم بشكل عام، ونظرية الخليل وأساسها بشكل خاص[٤٥]

٣-الحركة الشعرية الحديثة، وما رافقها من مفاهيم نظرية حول بناء القصيدة، خاصة في المستوى الإيقاعي. حيث كان أول المستويات التي انعكس فيها التغير.

ولكن الرؤية الناقصة لعنصري المصطلح - المشترك الدلالي الثابت، والدلالة المضافة المتغيرة - وتعدد أطراف الاجتهاد، ومصادرها، أدّت إلى اتسامه - أي مصطلح الإيقاع - في كتابات الدارسين بالغموض والتوسيع والتضييق. ولم يعد يمكننا الاستقرار على حدوده وأبعاده الدلالية. بل إنه بدأ يستعمل بمعنى استعاري تصويري، ولذلك لايمكننا استعماله كمصطلح علمي إلا بنزع الدلالات الفنية التي ألصقت به(٤٦)

وعلى الرغم من ذلك سنحصر الدلالات الأساسية التي شملها المفهوم في شتى التيارات المعاصرة بثلاثة عناصر:

أولاً: الإيقاع والوزن: سيطرت تلك العلاقة على مفهوم الإيقاع في الدراسات النقدية على بقية العناصر، كما تعددت الاجتهادات بشأنها.

فمنهم من قال: إن الإيقاع غير الوزن. وذهب إلى أن الوزن ليس إلا صورة محققة من ضروب إيقاعية مشتركة، وأنه لاينفي إمكانية استنباط أوزان أخرى تقعّد ضروباً أخرى من الإيقاعات المشتركة، فـ(كل وزن إيقاع وليس كل إيقاع وزناً)(٤٧)

ومنهم من قال: إن الوزن قالب؛ أي فضاء صوتي محدد، في حين أن الإيقاع ليس إلا المبدأ الموسيقي للنظم الشعري.(٤٨)

واختلف الدارسون في طبيعة إيقاعات الوزن ونعتها، كما اختلفوا في مفهوم الإيقاع والمرجع الذي يحيل عليه؛ فاقترن الوزن في أغلب الدراسات بنعت الإيقاع الخارجي، مقابل الإيقاع الداخلي الذي تُرك للموازنات الصوتية في الشعر(٤٩)

ولعل السبب في ذلك التقسيم يرتكز على اشتراك جميع النصوص الشعرية(٥٠) بالوزن. يضاف إلى ذلك الاعتقاد أن العروض جاهز قبل

المعنى؛ وعليه فهو شكل فارغ يحتاج إلى محتوى، كما أن الفارق بين الشعر والنثر - في رأي أصحاب ذلك التقسيم - يكمن في الموسيقى الخارجية - أي العروض - بينما يشتركان في الموسيقى الداخلية التي هي أدخل في النظم والتركيب، وتساير الشعور المعبَّر عنه، أو الفكر المبطَّنة به، فإذا ثار الانفعال جلجلت وارتفعت، وإذا هدأت انبسطت وخفتت[٥١] كما أن الموسيقى الداخلية تحكمها قيم صوتية باطنية أرحب من الوزن والنظام المجردين[٥٢]

من الملاحظ أن ذلك التقسيم ومبرراته، يحمل خطله في جوهر الموقف النقدي - لدى أصحابه - حيث يُقسِّم العمل الشعري إلى قطبين: الشكل والمحتوى، وعلى الشاعر دائماً أن يحاول خلق الانسجام بينهما.

يضاف إلى ذلك أن تمييز أصحاب ذلك التقسيم بين النثر والشعر بالعروض الخليلي، أوقعهم في حيرة أمام قصيدة النثر التي تخلت عن العروض الخليلي، ووضعتهم أمام السؤال من جديد، ماالذي يميز بين النثر والشعر . . . وللإجابة كان يتحتم عليهم أمران: تجاهل قصيدة النثر، وهذا يعني الحكم على أنفسهم بالخروج من دائرة البحث النقدي المعاصر، أو الاعتراف بها، وهذا يتطلب إعادة النظر في أغلب المفاهيم النقدية التي حكمت آراءهم السابقة، وأولها بناء القصيدة، وثانيها مايميز النثر من الشعر.

لقد أثبتت نظرية المستويات[٥٣] نجاعتها في حل ثنائية الشكل والمضمون، وقدمت فهماً جديداً لبناء القصيدة، تعمل فيه جميع العناصر بتداخل بنَّاء على إشادة النص الشعري إيقاعياً وتركيبياً ودلالياً، وعليه فإن الإيقاع كشكل لم يعد مقابلاً للمضمون أو خارجاً عن المعنى أو وعاء فارغاً يحتاج إلى المحتوى ليملأه[٥٤] وإنما أصبح الشكل مضموناً للخطاب الشعري، واكتسب تكاملاً جديداً يميز مع غيره من العناصر الخطاب الشعري من الخطاب النثري[٥٥]

ولخص كوهن تلك العناصر في نظرية الانزياح؛ فأبان عن أن النظم ـ أي الوزن ـ يلعب كأحد العناصر المميزة، دوراً في خرق قاعدة من قواعد اللغة، أو مبدأ من مبادئها؛ إلا أنه لايشكل علاقة الفصل بين الخطابين[٥٦]

ولذلك فإن تقسيم الإيقاع الشعري إلى موسيقى خارجية، وموسيقى داخلية، فكرة غير صائبة فللإيقاع مستويات في الوزن والصوت والتركيب والدلالة، ولايمكن الفصل بينها، لأنها مجتمعة تميز بين النثر والشعر.

وشمل الإيقاع الخارجي عند بعض الدارسين الوزن والموازنات الصوتية على حد سواء وبهذا الاعتبار أصبح الإيقاع الخارجي (حركة صوتية تنشأ من نسق معين من العناصر الصوتية في القصيدة. ويدخل ضمن هذا المستوى كل مايوفره الجانب الصوتي من وزن وقافية وتكرار في المقطع الصوتي الواحد أو في الكلمة أو في الجملة، ومن محسنات بديعية وماإلى ذلك، بل هو اختيار الكلمات وترتيبها والمواءمة بين الكلمات والمعاني)[٥٧] بينما يدخل الإيقاع الداخلي في بناء القصيدة. فهو حركة موقّعة في نسيج القصيدة، ولايمكن إدراكها من خلال حاسة السمع أو البصر، وإنما من خلال فهم متكامل لنمو الحركة داخل البناء الكلي للقصيدة[٥٨]

إن هذا التمييز بين الإيقاعين: الخارجي، بارتباطه بالصوت، والداخلي، بارتباطه بالحركة البانية، دفع أحد الدارسين إلى اقتراح مصطلح «التوقيع للدلالة على الحركة البانية بدلاً من مصطلح «الإيقاع الداخلي»؛ لأن الإيقاع ـ برأيه ـ ظاهرة صوتية، والحركة البانية مرتبطة بالتنظيم الداخلي للنسيج الدلالي[٥٩]

ويعود خطل ذلك الاقتراح إلى اجتزاء عنصري المصطلح: المشترك الدلالي الثابت ـ أي النظام ـ والمضاف إلى المشترك الدلالي الثابت ـ أي الصوت ـ بل وقلبهما، إذ عدّ الإيقاع ظاهرة صوتية تُحصر بالمادة الصوت ولايتعداها.

وقد عُكس الأمر عند بعض الدارسين؛ فنُعت الوزن بالإيقاع الداخلي للاعتبارات التالية(٦٠)

١- تربط الكتابة العروضية بين الوزن ورسم الكلمات؛ فبعض الحروف تكتب ولاتدخل في إيقاع الشعر، وبعضها الآخر لاتكتب وتدخل في إيقاع الشعر.

٢- لايؤثر تغير الحرف والصوت على الوزن، لأنه لايمكن خلق أصوات الكلمات التي تقوم بدور التجلي المادي للوزن.

٣- يرتبط الوزن ببنية الكلمة ولايشترط تطابق المفردة العروضية مع المفردة اللغوية.

٤- إن الصورة العروضية للوزن ليست أكثر من تجل مادي لتنظيم الحركات والسكنات، إذ يمكن استبدالها بأشياء أخرى كالأرقام الحسابية مثلاً(٦١)

إن تلك الاعتبارات لاتفصل الوزن عن النص، فهو إيقاع داخلي بوجه من الوجوه، ولأنه غير متنوع، كالذي سمي «إيقاعاً داخلياً» دعاه بعضهم بالإيقاع العام(٦٢)

لقد ربطت معظم الآراء الماضية مفهوم الإيقاع بالوزن حتى غلب على أذهان الكثيرين وبدا أن هذا هو ذاك بعينه، وأن المصطلحين: الإيقاع والوزن، مترادفان، وربما فسّر ذلك الصلة الحميمة بينهما، وهي صلة الأصل - أي الوزن - بالفرع - أي التنويعات الإيقاعية الداخلية - كما رأيناها في النقد العربي القديم، أو صلة الكل - كل ضروب الإيقاع - بالجزء - أي الوزن - كما رأيناها عند بعض الدارسين المعاصرين يضاف إلى ذلك الحضور الدائم للوزن في الشعر العربي القديم، مقابل الحضور العرضي المتغيّر للتنويعات الإيقاعية الصوتية بشكل خاص.

ثانياً: الإيقاع والموازنات الصوتية: قد تكون الوحدة الصوتية التي يمكن تسميتها بالنواة الإيقاعية صفة جوهرية أو ثانوية في صوت أو مجموعة

أصوات مطابقة لجملة أصوات الوحدة الدلالية الدنيا أو غير مطابقة. مفيد ولامشروط. وهو عمل صوتي في النص تحسّ به النفس ولايقننه الدرس، أو هو كما قال اسحق الموصلي عندما سئل عن النغم: (إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولاتؤديها الصفة)[٦٣]

ولذلك لم يخرج الدارسون المعاصرون المادة الصوتية من مفهوم الإيقاع، وإنّما عدّها بعضهم وكما رأينا - جزءاً من الإيقاع الخارجي، وعدّها بعضهم الآخر جزءاً من الإيقاع الداخلي.

وعليه يمكن القول في السياق على مسافات متقايسة بالتساوي أو بالتناسب لإحداث الانسجام، وعلى مسافات غير متقايسة أحياناً لتجنب الرتابة.

ويظهر محمد النويهي في دراسته حول الشعر الجاهلي رائداً في هذا المجال من بين الدارسين المعاصرين؛ لدراسته المبكرة، وتأصيلها النظري، وجانبها التطبيقي، فهو يبحث داخل التشاكل الصوتي عما سمّي في النقد العربي القديم بـ «النظم» إلا أنه لم يؤطر رأيه بوعي نظري متقد)، تحتل فيه مسألة التأليف والتركيب بين الحروف والكلمات أهمية مركزية في خلق إيقاع القصيدة. يقول: (لايحقق الشعر موسيقيته بالإيقاع العام الذي يحدده البحر فحسب (بل يحققها أيضاً «أولاً» بالإيقاع الخاص لكل كلمة، أي كل وحدة لغوية، لاتفعيلة عروضية للبيت. و «ثانياً» بالجرس المؤتلف الذي تصدره الكلمات في اجتماعها في البيت كله، ثم في تتابعها في البيت بعد البيت، في كل قصيدة أو قسم من القصيدة، والانسجام بين جانبي الإيقاع والجرس، هو الذي يصدر مانسميه بالنغم الشعري، وهو اجتماع الأصوات اللغوية تحت تنظيم الإيقاع والجرس، هو الذي يصدر مانسميه بالنغم الشعري، وهو اجتماع الأصوات اللغوية تحت تنظيم الإيقاع)[٦٤] وهو بهذا الرأي يعيد إلى المشترك الدلالي الثابت - أي النظام - في مصطلح الإيقاع دوره الرئيس، إذ يربط بين المفردة وغيرها، وبينها وبين وقعها السياقي؛ فالقيمة

الموسيقية للكلمة لاتقتصر عليها وهي مفردة بل تمتد إلى موضعها من الجملة الشعرية ومابين الكلمات المتعاقبة من تنسيق وتجاوب في النغم أو تنافر مقصود فيه)[٦٥] وينطبق الأمر نفسه على الحرف، لأن الأثر (الصوتي الشامل لايصدر من مجرد اختيار الحروف بل يصدر من ترتيبها)[٦٦].

وتكشف آراء النويهي، بالإضافة إلى التأليف وعلاقته بالتشاكل الصوتي، عن ارتباط الأخير بالمضمون الشعري؛ فترديد الحروف - برأيه - يتجاوز وجوده الإيقاعي المحض إلى وظيفته العضوية في «أداء المضمون» ومن ذلك (ترديد الحرف الواحد في كلمتين أو كلمات متتابعة أو متقاربة)[٦٧]؛ لأن الشاعر يصلنا بمضمون فكره وعاطفته ليس بما للكلمات من معان فحسب، بل وبمالها من خصائص موسيقية أيضاً[٦٨] حيث نجد تموّج الإيقاع بين العلو والهبوط واللين والشدّة، متلازماً مع تموج الفكرة والانفعال[٦٩].

وبين قطبي التنظيم والدلالة، يبدو التشاكل الصوتي مادة أولية تحتاج إلى عناصر أساسية كي تصهرها في بناء القصيدة. فهي - أي المادة الصوتية - تحمل طاقات تعبيرية كبيرة، كالأصوات وتوافقاتها والكثافة والاستمرار والتوقف والفواصل والتكرير. إلا أنها تبقى بعيدة عن دورها الحيوي، في طور الكمون، إذ لم تُستغل وظيفتها العضوية، في بناء القصيدة، حين تشكّل مع بقية العناصر الإيقاعية جسد القصيدة، وتتحقق على جميع مستوياتها؛ التركيبية والمعجمية والدلالية، وهذا ماسيحققه الفهم الجديد للإيقاع.

ثالثاً: الإيقاع وبناء القصيدة: مع نشاط النقد المعاصر توسّع مفهوم الإيقاع بالارتكاز على المشترك الدلالي الثابت - أي النظام - وأصبح جزءاً من عملية البناء، ولايمكن فصله عن بقية المستويات الأخرى؛ الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي. وأصبح حركة موقعة في بناء القصيدة،

لايمكن فهمها إلا من خلال فهم متكامل لنمو الحركة داخل البناء الكلي للقصيدة. أي أنه - الإيقاع - الأثر المشترك لجميع تلك المستويات. وبهذا يشكل العنصر المهيمن الذي تتحد به أشكال الأساليب الشعرية[٧٠]

ولأن العنصر الثابت - النظام - في مفهوم الإيقاع يعود ليحتل مكانه، تبدأ الانطلاقات المفهومية في دراسة الإيقاع من الموقع الصحيح، حيث يتضح أن الإيقاع نظام . . . وهذا يبعده عن الارتباط بالجانب الموسيقي، ويقربه من الارتباط بالجوهر اللساني للشعر[٧١] بعد أن يأخذ أساساً بنائياً؛ نتيجة العثور على ضروب إيقاعية ونظمية غير الوزن، بوصفه إيقاعاً قاراً[٧٢]

وفي ضوء المفهوم الجديد فإن ارتباط الإيقاع بالمستويات البنائية يتشابك ليدخل في نسيج كل مستوى على حدة، وفي تشكيل بناء المستويات مجتمعة، فهو على المستوى الصرفي يمتد إلى المقاطع، لأن المقاطع لاتعمل على مستوى كل صوت على حدة، وإنما على مستوى كل مجموعة من الأصوات في إطار وحدة، هي المقطع.

أما على المستوى النحوي، فيرتبط بنمط الجملة وعلاقتها بالتنغيم[٧٣]. ويبقى المستوى الدلالي عنصراً مهيمناً في هذه العلاقة، حيث تتضح وظيفة الإيقاع، بوصفه عنصراً بانياً للعملية الشعرية.

فالقصيدة نظام معقد من الأبنية، ومهمة الإيقاع في القصيدة (أن يدرك مجموعة الصراعات في داخل النظام[٧٤] الإيقاع المعقد؛ في كل عنصر إيقاعي صراع داخلي بين عناصر الثبات، وعناصر الانتهاك في المقاطع والنبر، والتنغيم، وبين كل عنصر من هذه العناصر والعناصر الأخرى، صراع آخر . . . هو الذي يكوّن النظام الإيقاعي. وفي داخل النظام الإيقاعي نفسه صراع آخر بين عناصر الثبات، التي غالباً ما تكون تقليدية، وبين عناصر الانهتاك أو الحرية التي يفرضها الشاعر محققاً حريته الخاصة)[٧٥]. وفي النهاية يتضح أن النظام الإيقاعي هو الذي نظّم هذا الفيض من الأصوات والمعاني وسمّي بالقصيدة.

وبهذا الفهم يصبح الإيقاع إشارة ظاهرة إلى شيء غير محسوس. أي أن الإيقاع «علامة»[٧٦] تغطي نصاً آخر، أو كما يرى الشكليون الروس: إن الإيقاع مثله مثل الصور الرمزية، يقصد به الكشف عن النمط التحتي للحقيقة العليا. أي عن غور المعنى الكامن[٧٧]. والأخير متعدد ومتنوع؛ ينبع تعدده من الطبيعة الإشارية للإيقاع. بل إن النظام الإيقاعي أكثر النظم الإشارية تعقيداً في القصيدة[٧٨].

في ضوء ذلك، وبعد أن أصبح الإيقاع نظاماً يرتبط ببناء القصيدة، ويقوم بوظيفة دلالية، تعطي القصيدة تميزها، بوصفها خطاباً شعرياً، من بقية أنواع الخطاب، جاز الحديث عند بعض الدارسين عن «إيقاع الفكرة» وعن إيقاع نظام النقط، مساحات البياض[٧٩].

وعليه يمكن القول: إن الإيقاع لم يعد تعبيراً عن البنية الزمانية في الخطاب الشعري، وإنما أصبح أيضاً تعبيراً عن البنية المكانية، ومما يعزز ذلك أن البنية المكانية انعكاس للبنية الزمانية، وتغيرها مرتبط، في أحد مستوياتها، بتغير البنية الزمانية، مثال ذلك الشعر الحر؛ فحين تعددت التفعيلات، وكُسر قانون التساوي بين الشطرين، وفق بحور الخليل، حلّ السطر مكان البيت، ودخل التضمين إلى جسد القصيدة كعنصر بناء، بعد أن كان عنصر هدم في النقد الكلاسيكي، بل إنه تحول في بناء القصيدة المعاصرة إلى عنصر خلّاق يعمل على تشكيل الوحدة العضوية في القصيدة. ثم تحول الفضاء البصري للقصيدة من التناظر الهندسي إلى مايمكن أن أسميه بـ «التوازي الهندسي» حيث يأخذ البياض في الورقة مساحات غير محددة، وينبني السطر فوق السطر، مشكّلاً المقطع الشعري، بتلاحم دلالي مع البياض.

الهـــوامش

١)- الفارابي، أبو نصر - كتاب الحروف - تح: محسن مهدي. دار الشروق. بيروت، ج١ ص١٤١
٢)- انظر في قوانين التطور الدلالي عند:
- أنيس، إبراهيم - دلالة الألفاظ - ١٩٦٣م ط٢. القاهرة، الفصل الثاني.
- غاليم، محمد - التوليد الدلالي في البلاغة والمعاجم - ١٩٨٧م، ط١، دار توبقال. المغرب، الفصل الثالث.
٣)- المسدي، عبد السلام - قاموس اللسانيات - الدار العربية، ١٩٨٤م. تونس. ص٤٥
٤)- غاليم، التوليد الدلالي، ص٢٢
٥)- ابن منظور - لسان العرب - دار صادر بيروت. ١٩٥٥م. ص٤٠٨، م٨. وانظر أيضاً:
- وجدي، محمد فريد - دائرة معارف القرن العشرين - دار المعرفة. بيروت. ط٣، ١٩٧١م ص١٩٤
- خياط، يوسف - معجم المصطلحات العلمية والفنية - دار لسان العرب، بيروت، د. ت، ص٧٢٨
٦)- ابن سينا - الموسيقى (الشفاء) تح: زكريا يوسف. القاهرة ١٩٥٦م ص٨١. وانظر أيضاً.
- أبو منصور الحسين بن زيلة (ـ٤٤٠هـ) الكافي في الموسيقى. تح: زكريا يوسف. القاهرة، ١٩٦٤. ص٤٤
٧)- ابن منظور - لسان العرب - م٨. ص٤٠٢-٤٠٨
٨)- فضل، صلاح - البنائية في النقد الأدبي - مصر. ط٢، ١٩٨٠ ص٢٥ وانظر أيضاً: - جان بياجيه - البنيوية - منشورات عويدات. بيروت ص٣٠
٩)- ٣٢: Bewviniste,Probleiues, de liwgwstique, géuerate. P
١٠)- Henri Les choninic:Cutique, de rythwe.Op. cit. p : ٧١ ، ١١٥ ، ١٧٦ ، ٥٢٢
١١)- الطرابلسي، محمد الهادي - في مفهوم الإيقاع - مجلة حوليات الجامعة التونسية. كلية الآداب، ١٩٩١، العدد ٣٢، ص١٢.
١٢)- المرجع نفسه، ص ١٢
١٣)- ابن طباطبا، محمد - عيار الشعر - تح: طه الحاجري وزغلول سلام. القاهرة، ١٩٥٦. ص٢٢
١٤)- إخوان الصفاء - رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء - دار صادر. بيروت. الرسالة الخامسة. ج١. ص١٩٧.

١٥)ـ السجلماسي، أبو محمد القاسم بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري ـ المنتزع البديع في تجنيس أساليب البديع ـ تحقيق ودراسة: علال الغازي. مكتبة المعارف الرباط، ص٢١٥

١٦)ـ حنفي، محمود ـ الموسيقى النظرية ـ القاهرة. ١٩٧٢م ص٩

١٧)ـ السجلماسي ـ المنزع ـ ص١١٣

١٨)ـ الجاحظ، عمرو بن بحر ـ البيان والتبيين ـ تح: عبد السلام هارون، ١٩٦٠، ط٢، ج١، ص٥٨

١٩)ـ terminologiy Génève:Iso: Vocqbulany o ١٩٦٩ـ Iso/R . ١٠٨٧)

٢٠)ـ الفاسي، عبد القادر ـ اللسانيات واللغة العربية ـ دار توبقال. المغرب، ١٩٨٥، ط١، ج٢، ص٢٢٨

٢١)ـ التهانوي، محمد علي ـ كشاف اصطلاحات الفنون ـ تح: لطفي عبد البديع. القاهرة ١٩٦٣م. ج١، ص ج

٢٢)ـ ابن جعفر، قدامة ـ نقد الشعر ـ تح: كمال مصطفى، ١٩٦٣. ط٢، ص٦٨

٢٣)ـ المسدي، قاموس اللسانيات ـ ص١٣

٢٤)ـ (Felher.A.) ١٣٠: Terminogy mowuol Iufrwotion

-Mogrowue andvnisist. Internatinal ceutre For Term

١٩٨٤ nology (INFOTERM) Pari

٢٥) الفاسي ـ اللسانيات واللغة العربية ـ ج٢، ص٢٢٤

٢٦)ـ صمودي، حمادي ـ التفكير البلاغي عند العرب ـ منشورات الجامعة التونسية ١٩٨١م ص١٢٠

٢٧)ـ عن استدراكات القدماء على عروض الخليل، انظر: ـ العلمي، محمد ـ العروض والقافية. دراسة في التأسيس والاستدراك ـ دار الثقافة. المغرب. ١٩٨٣م ص٥٢

٢٨)ـ إن أول محاولة قامت على إدراك العروض العربي إدراكاً موسيقياً، كانت على يد «جويار» تحت عنوان نظرية جديدة في العروض العربي ـ صدرت سنة ١٨٧٧م انظر في آرائه عند:

ـ إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر. بيروت. ط٤، ١٩٧٢

ـ شكري عياد، موسيقى الشعر، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦٨م.

ـ كمال أبو ديب، في البنية الإيقاعية، نحو بديل جذري لعروض الخليل، ومقدمة في علم الإيقاع المقارن ـ بيروت. ط١، ١٩٧٢

٢٩)ـ جديد، ابن يوسف ـ نظريات الموسيقى الشعرية في القصيدة العربية ـ بحث لنيل درجة الماجستير من معهد اللغة والأدب العربي ـ جامعة الجزائر ٨٨ ـ ١٩٨٩. مرقون في كلية آداب الرباط ـ جامعة محمد الخامس ـ المغرب تحت الرقم ٤١٦ جدي.

٣٠)- يلفت الانتباه، في النقد العربي القديم، موقف حازم القرطاجني من الوزن، إذ يخرجه من دائرة العروض إلى مجال الإيقاع؛ باعتباره مظهراً لمعاناة الشاعر الإبداعية. انظر: - لوموني، مصطفى - في البنية الإيقاعية للشعر الجاهلي - بحث لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط - المغرب. تحت الرقم ٨١١,١ لو، ٨٧-١٩٨٨ ص٤٨

٣١)- جان كوهن - بنية اللغة الشعرية - تر: محمد الولي ومحمد العمري. دار توبقال. المغرب. ط١، ١٩٨٦م ص٩٦

٣٢)- المرجع نفسه ص ٩٦

٣٣)- ياكبسون، رومان - قضايا الشعرية - تر: محمد الولي ومبارك حنون. دار توبقال. المغرب. ط١، ١٩٨٨م ص٢٢-٣٣

٣٤)- إخوان الصفاء - الرسالة الخامسة، ج١، ص١٩٥

٣٥)- قلقيلة، عبده عبد العزيز - النقد الأدبي في العصر المملوكي - القاهرة، ط١، ١٩٧٢. ص١٢٦ عن: ابن جابر الأندلسي (-٧٨٠هـ) في - المعيار في نقد الأشعار - مخطوط في دار الكتب المصرية تحت الرقم ٦١١٤هـ ولم يذكر قلقيلة رقم الورقة.

٣٦)- الآمدي، الحسن بن بشر - الموازنة بين الطائيين - تح: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ط٣ ص٣٨٣

٣٧)- ابن الأثير، ضياء الدين الجزري - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - تح: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٩٣٩، ج١ ص٣٤٥

٣٨)- ابن أبي الأصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن - تح: حفني شرف. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ١٩٦٣م ص٢٩٥-٢٩٢-٢٩٨-٢٩٩-٣٠٨-٣٨٦-٤٥٢.

٣٩)- قلقيلة - النقد الأدبي - ص٨٣ - عن أحمد بن الأثير - جواهر الكنز - ورقة ١٩

٤٠)- الحموي، ابن حجة - خزانة الأدب - وغاية الأرب - دار القاموس الحديث - لبنان. د. ت ص٤٢٥

٤١)- الطيب، عبد الله - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها - الدار السودانية ١٩٧٠م ج١ ص٦٠١

٤٢)- مندور، محمد - الأدب ومذاهبه - مصر. ط٣. ص١٥٠

٤٣)- انظر على سبيل المثال:

- جمال الدين، مصطفى - الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة - العراق ١٩٧٠
- كشك، أحمد - القافية تاج الإيقاع الشعري - القاهرة ١٩٨٣
- البحراوي، سيد - العروض وإيقاع الشعر العربي، محاولة لإنتاج معرفة علمية - مصر ١٩٩٣

٤٤) أبو ديب ـ في البنية الإيقاعية ـ المقدمة :
٤٥) جديد ـ نظريات الموسيقى الشعرية ـ ص٤٥
٤٦) OBrik: Ryhwe et syntaxe eu Théerie ole lo litt.
١٤٣rature OP citr :
٤٧) علي ، عبد الرضا ـ الإيقاع الداخلي في قصيدة الحرب ـ من أعمال مهرجان المربد العاشر ، بغداد ، ١٩٨٩م ص٤٣
٤٨) خير بك ، كمال ـ حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر ـ دار الفكر . بيروت ، ١٩٨٦م ط٢ ، ص٢٨٦
٤٩) انظر :
ـ ت . س . إليوت ـ موسيقى الشعر ـ تر : محمد النويهي ضمن كتابه ـ قضية الشعر الجديد ـ ١٩٧١م ط٢ ص١٩ـ٢٥
ـ ضيف ، شوقي ـ الفن ومذاهبه ـ دار المعارف . مصر ١٩٦٥ ص١٨٥
ـ بكار ، حسين ـ بناء القصيدة العربية في ضوء النقد الحديث ـ بيروت ، ١٩٨٢م ط٢ ، ص١٥٨
٥٠) يستثنى من التعميم قصيدة النثر .
٥١) قلقيلة ـ النقد الأدبي ـ ص٢٥٢
٥٢) إليوت ـ موسيقى الشعر ـ ص٢١
٥٣) فضل ، البنائية ـ ص٣١٩
٥٤) كوهن بنية اللغة الشعرية ـ ص٣٢
٥٥) إيخنباوم ، بوريس ـ نظرية المنهج الشكلي ـ ضمن كتاب ـ نظرية المنهج الشكلي ، نصوص الشكلانيين الروس ـ بيروت ١٩٨٢م تر : إبراهيم الخطيب ص٥٢ـ٥٣
٥٦) كوهن ـ بنية اللغة الشعرية ـ ص٥١ ومجمل الفصل الثاني .
٥٧) سويف ، مصطفى ـ الأسس الفنية للإبداع الفني ـ في الشعر خاصة ـ دار المعارف . مصر ، ١٩٥٩م . ط٢ ص١٦ . عن : ١٢٣ : Covoluell. C: Illuoicn and readlity.P
٥٨) الصكر ، حاتم ـ مالاتؤديه الصفة ، بحث في الإيقاع والإيقاع الداخلي في قصيدة النثر خاصة ـ ضمن أعمال مهرجان المربد . بغداد ١٩٨٩م ص٢١
٥٩) الطرابلسي ـ في مفهوم الإيقاع ـ ص١٨ـ١٩
٦٠) داو ، عبد الجبار ـ إيقاع الشعر الحر بين النظرية والإبداع ـ من أعمال مهرجان المربد العاشر . بغداد ١٩٨٩م ص٤ .
٦١) أبو ديب ـ في البنية الإيقاعية ـ ص٥٥
٦٢) النويهي ، محمد ـ الشعر الجاهلي ، منهج في دراسته وتقويمه ـ مصر . الدار القومية للطباعة والنشر . ص٣٩ ج١ .

٦٣). الآمدي - الموازنة - ص٣٨٥

٦٤). النويهي - الشعر الجاهلي - ص٣٩-٤٠، ج١

٦٥). المرجع نفسه ص٦٥ ج١

٦٦). المرجع نفسه ص١٠٥ ج١

٦٧). المرجع نفسه ص٦٥ ج١

٦٨). المرجع نفسه ص٣٩ ج١

٦٩). المرجع نفسه ص٤٠ ج١

٧٠). إيخنباوم - نظرية المنهج الشكلي - ص٥٢

٧١). كوهن - بنية اللغة الشعرية - ص٣٢

٧٢). إيخنباوم - نظرية المنهج الشكلي - ص٥٣

٧٣). البحراوي - العروض وإيقاع الشعر - ص١٣١

٧٤). النظام هنا يحمل ثنائية تعارضية كما طرحه البنيويون عن «دوسوسير».

٧٥). البحراوي - العروض وإيقاع الشعر - ص١٣٥

٧٦). انظر مفهوم العلامة عند:

- أمينة رشيد - السيميوطيقا، مفاهيم وأبعاد - مجلة فصول - العدد الثالث، ١٩٨١م ص٤٦-٤٧

- السرغيني، محمد - محاضرات في السيميولوجيا - دار الثقافة - المغرب - ط١، ١٩٨٧م ص٥-٦-٧

- بارت، رولان - مبادئ في علم الأدلة - تر: محمد البكري، المغرب، ١٩٨٦، ص٦١

٧٧). فضل - البنائية - ص٧٢

٧٨). البحراوي - العروض وإيقاع الشعر - ص١٣٦

٧٩). الصكر - مالاتؤديه الصفة - ص١٣

مــع الروائــي نجيب محفــوظ

نــزار نجــار

قرأت له في يفاعتي، وتأثّرت به، فهو عصامي، وصل إلى قمة الإبداع بصبره وجلده، وأناته وتحمّله، اسمه الحقيقي نجيب محفوظ عبد العزيز السبيلجي، غير أنه اشتهر بعدئذ بنجيب محفوظ، وعلى حدّ تعبير الأستاذ «عزّت السعدني» نائب رئيس تحرير الأهرام. نجيب

* نزار نجار: أديب وقاص من سورية، له مساهمات عدة في مجال الدراسات الفكرية وخاصة في مجال التراث العربي وأدب الأطفال.

محفوظ هو الهرم الرابع في مصر، ولا مناص من زيارته في مبنى الأهرام العريق، في الطابق السادس، وإلاّ فإنك لن تعرف مصر جيداً، ولكنْ. .
- لماذا نجيب محفوظ؟

نجيب محفوظ نال تقدير القراء قبل أن ينال تقدير النقاد والدارسين أي أن أول من اكتشف محفوظ هم قراؤه الذين أحبّوه، وتعلّقوا بما فيه من صدق وعمق وأصالة فنية عالية. . فمنذ سنة / ١٩٣٢/ بدأ الكتابة ومايزال يعيش من أجل أدبه كما يعيش القديس من أجل رسالته، إنّه مثل تشارلز ديكنز بالنسبة إلى الانكليز، وتولستوي بالنسبة إلى الروس، وبلزاك بالنسبة إلى الفرنسيين. . إنه الأب الحقيقي للقصّة العربية المعاصرة، أهمّ ما يميّزه كفنان هو جدّيته وإيمانه القوي الرائع بدور الفنّ في خدمة الحياة، هو كاتب ملتزم لم يتخلّ لحظة واحدة عن التزامه بالتعبير عن هموم الناس، والتزامه ينبع من صدق الرؤيا والجرأة في التعبير.

كل سطر من رواياته يشي بهذه الحقيقة الجليّة والتي أعدها المصدر الحقيقي لكل هذا الاهتمام الذي يمنحه النقاد والفنانون لأدبه.

إنه لايقل في مكانته الأدبية عن أي أديب عالمي وربّما يفوق الكثيرين منهم.

• عالمه ورواياته:

أدب نجيب محفوظ يتحرّك داخل إطار عالم واحد، لكنّه يتحرّك وينمو ويتجدّد في اتصّال مبدع، إنّه عالم واحد من الرموز والكنايات والتصوّرات والقيم والشخوص والأجواء والعناصر والأحداث، في أدبه ثوابت عديدة تحدّد التضاريس النفسية والاجتماعية والفكرية الأساسية لعالم أرحب. .

وما أكثر هذه الثوابت التعبيرية المكرورة التي نتعرّف بها إلى عالم نجيب محفوظ:

- الحارة- المقهى- الكازينو- طريق الجبل- الخلاء- الخرائب-

المقابر- الجوزة- النافذة- السطح- السكارى الفتوات- الأشقياء- الأفندية- مثقفو الطبقة الوسطى- موظفو الأرشيف- المسطول- العاهرة- الأعمى- الشحاذ- العملاق- ضخم الجثة- الشيخ المتدين- رجل الطريق- صاحب الزاوية- الشرطي- السلطة- الساعة الواحدة- اللحظة الواحدة التي لاعمر لها- الماضي- الحاضر- الذهول- الحلم- الانتظار- الشوق- الطمأنينة- الانتقام- المعارك- القدر- . . . - . . . . . .

* البدايات كانت على صفحات مجلة الرواية والرسالة، (تخرج من قسم الفلسفة عام ١٩٣٤) كتب أقاصيص متنوعة جمعها في كتاب همس الجفون لكنّ أول قصّة طويلة كتبها هي رادوبيس، ترجم قبلها عبث الأقدار وهي قصّة فرعونية، كأنما ينوي أن يكتب التاريخ الفرعوني كلّه قصصاً كما فعل في رادوبيس وكفاح طيبة. ولم يكن يفكر في ذلك الوقت في كتابة أية قصّة واقعية معاصرة . .

في رادوبيس تتجلى واقعية المؤلف ومنطقه وتسلسل أفكاره وبراعته في الوصف، على الرغم من أنه كان يروي ما يشبه الأسطورة. (الناشرون رفضوا طبعها لأنه ليس من مشاهير الكتّاب، وكذلك فعلوا مع قصة كُفاح طيبة، لكنه تغلّب على ذلك واستطاع نشرهما عن طريق لجنة النشر للجامعيين دون أجر) (أهمل النقاد الحديث عن هذين العملين إهمالاً تاماً. ولم ينتبه إليهما أحد . .) . .

في عام ١٩٤٥ ترك نجيب محفوظ القصص الفرعوني وكتب القاهرة الجديدة، وتقع حوادثها في دواوين الحكومةوتصوّر الانحلال الخلقي الذي سيطر على بعض العقول التي أفسدتها فلسفات أسيء فهمها، وظهرت سخرية الكاتب بالأوضاع في ذلك الوقت لاذعة وبدت في هذه القصّة موهبته القصصية التحليلية في هذا اللون الجديد، كان هناك احتكاك مباشر بالحياة العملية في الوظيفة الحكومية. زوّدته بكثير من الخبرات السياسية والاجتماعية، وأطلعته على خفايا الدواوين الحكومية وعلاقات الموظفين

بكبار المسؤولين، وهي أول رواية اجتماعية بعد (عبث الأقدار ورادوبيس وكفاح طيبة)، لوحة للمجتمع المصري في الثلاثينات، فيها أصداء كثيرة من خبرات الكاتب في الجامعة وفي الوظيفة الحكومية، لوحة حافلة بالأحداث والشخصيات والألوان (عالج فيها الفقر والفساد) بطلاها محجوب عبد الدائم وإحسان شحاتة. يسقطان حين يقبلان الارتباط بزواج زائف يملك مصيريهما الوزير قاسم، الرواية كلّها نموذج للفساد السياسي والخلقي المتفشي بين كبار الموظفين وصور محسوبية- ورشوة. ونفاق وانتهازية، ورذائل وعهر.. وهذان اللونان (الفقر والفساد سيظلان هما الغالبان على لوحات الكاتب أو رواياته لفترة طويلة) وأنا أعتبر أن هذه الرواية هي المسودّة الأولى التي سيعدل فيها الكاتب وينقّح مرات عديدة ليقدّمها بعد ذلك في (زقاق المدق- حميدة وعباس) وفي (السمان والخريف- ريري وفي (ميرمار- زهرة).. كانت نقطة التحول في أدب نجيب محفوظ ثلاث روايات (بعد القاهرة الجديدة) خان الخليلي- زقاق المدق- بداية ونهاية.. عكست بصور مختلفة الآثار المدمّرة التي أحدثتها الحرب العالمية الثانية في حياة مصر، ونجيب نفسه يعتبر قصة «خان الخليلي» نقطة التحوّل الحقيقة في أدبه لأنها القصّة التي جذبته إلى الجوّ الذي يحبّه وإلى الناس الذين يكشفون له كنوز نفوسهم، (عرض فيلم خان الخليلي في بعض العواصم الأوروبية، استنكر المشاهدون مشاهد الرقص والسمر في المخبأ أثناء الغارة، لكنّ الجمهور لم يفهم أن الحرب فرضت على مصر، دون أن يكون لها رأي أو مصلحة في هذه الحرب) صورّت خان الخليلي السلبية والضياع في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية.

أمّا زقاق المدقّ فتعرضت إلى مأساة مصر أثناء الحرب إذ انتهكت قوات الاحتلال شرفها وكرامتها وخيراتها، فدفعت بفريق من أبنائها إلى عمليات انتحارية بقصد الانتقام في حين اكتفى الباقون الفرجة كأن الا - لايفهم في شيء (عباس الحلو دافع عن حميدة فقتل، و حسين كرشة أعن

أصدقائه وشقيق حميدة من الرضاع متفرّج) و(فرج قاد حميدة إلى السقوط) (١٩٤٩) في بداية ونهاية: مجتمع مهترىء (تنتحر نفيسة وينتحر حسنين، حسن ينتهي إلى الانحراف والاتجار بالمخدرات، حسين شاهد أمين على المجتمع المهترىء والسقوط المريع، حزين على نفسه وعلى الملايين، ليس فرداً لكنه أمة مظلومة) مرّر الكاتب رواية فريدة في هذه الفترة هي رواية (السراب) (١٩٤٨) لقد ابتعد نجيب محفوظ عن الحي الذي تعلّقت به روحه شاب مصاب بعقدة أوديب، سببت له عجزاً جنسياً، وعلى الرغم من أن كثيرين كرهوا بطل هذه القصة لأنه أثار اشمئزازهم لكنّ آخرين تحدثوا عنه بعطف ورثاء..

الثلاثية: (١٩٥٦-١٩٥٧) بعد سبع سنوات جاءت الثلاثية تطلّب هذا العمل منه كل خبراته الفنية والاجتماعية والنفسية تطلّب فهماً لتاريخ مصر وأهدافها القومية- ويمكن القول إنّه وضع فيه كل حياته بما فيها من فكر وعاطفة وطموح في ألف ومائتي صفحة، ومن سنة ١٩١٧ إلى ١٩٤٤ رصد حياة ثلاثة أجيال من أسرة السيد أحمد عبد الجواد ثم جيل أحمد عبد الجواد ثم جيل ياسين وفهمي وكمال- ثم جيل الأحفاد أحمد شوكت- عبد المنعم- رضوان.. عاد نجيب في هذه الثلاثية إلى الجوّ الذي يحبّه، إلى جوّ الحسين، عرض فيه شخوصاً متباينة كل التباين، أحبّهم جميعاً، لم يتحيّز لأحد منهم، كلّهم قريبون إلى قلبه، الطيبون والشريرون سواء، إن غاية مايريده من شخوص رواياته أن يعبروا عن نماذجهم البشرية بإخلاص، يقول نجيب محفوظ:

- أعتقد أن فيها وجهة نظر مؤكدة تجدها في خط سير معيّن للأحداث يمكن تلخيصه في كلمتين بأنّه الصراع بين تقاليد ضخمة ثقيلة وبين الحرية في مختلف ألوانها السياسية والفكرية، وتنتهي الثلاثية بعطف معين لايخفى على أي قارىء، و لن يصعب على أيّ ناقد تبيّنه، ووجهة النظر في العمل الفنّي تعرف بالإحساس إذ ماأسهل التعبير المباشر عنها ولاأعتقد أنّ أحداً قرأ الثلاثية دون أن تتمركز عواطفه في شيء معين واضح..

الثلاثية عمل ضخم ليس من السهل الإحاطة به في دراسة أو محاضرة، عمل مناهض للتخلف والرجعية مؤيّد للعلم والاشتراكية (وإن كان صوت الراوي فيها خافتاً)!

بعد الثلاثية مباشرة كتب نجيب محفوظ أولاد حارتنا (١٩٥٩)رواية كاملة تسجّل رحلة المجتمع البشري مع الدين والإيمان منذ بدء الخليقة حتى سيادة روح العلم، ويمكن القول: إنها ملحمة شعبية يتجادل فيها الناس بالعصي والأيدي والألسنة والأغاني، أدهم- جبل- رفاعة- قاسم، ملحمة متخيّلة تمزج الأسطورة بالواقع، وهؤلاء الأبناء قاموا بثوراتهم وهم على صلة ما بالجبلاوي- الجدّ المختبيء وراء جدران البيت القديم قدم الحارة- الأبناء والأحفاد وكلهم سلالة الجبلاوي، الجدّ العتيد، الذي هو أصل الحياة وهم ورثة الوقف القديم يعانون الإذلال، يعانون من تسلّط ناظر الوقف وعصي الفتوات، ويتلمسون عبر أشجع أبناء الحارة حلاً أو حلولاً لهذا الظلم القائم..

قراءات متعدّدة لنص مفتوح، المقصود هنا بالحارة تاريخ البشرية وصراعها مع التخلّف والقهر، و هي تبشّر برمزية مسطّحة بانتصار العلم، تكتشف في العلم الخلاص، هي مقدّمة في تكثيف شاعري، وفكر يتنفس كالجسم ويدور حول نفسه كما تدور الأرض، وربّما تصبح هذه الرواية مدخلاً للمرحلة الفكرية الإبداعية الجديدة التي قدّم خلالها الكاتب (اللص والكلاب- السمان والخريف- الطريق- الشحاذ- ثرثرة فوق النيل- ميرامار) خمس روايات بعد الثلاثية.

يمكن أن نسميها المرحلة الفلسفية، أثمرت هذه الروايات خرج بها عن دائرة الواقع المحلّي الاجتماعي إلى مسائل إنسانية تتعلّق بالوجود وبالإنسان، ثرثرة فوق النيل رواية أفكار لاأشخاص، (رواية فكرية تتحرك فيها الأفكار لاالأشخاص) أو هي بحث داخلي في الإنسان.. (أنيس زكي: عيناي تنظران إلى الداخل لا إلى الخارج كبقية عباد الله..)

رواية السمان والخريف- ١٩٦٢- ختام المرحلة الواقعية الاجتماعية، ثم مجموعة دنيا الله القصصية- ١٩٦٣- كبداية للمرحلة الفلسفية الجديدة في أدب نجيب محفوظ، مرحلة التطلّع إلى الواقع المأساوي للإنسان بالنسبة إلى الوجود، مرحلة يختلط فيها الواقع بالرمز..

بالمقارنة مع أبطال همس الجنون الذين يسعون سعياً مراً إلى الوظيفة، تلك كانت كل أحلامهم ومصدر زيفهم الاجتماعي وانتهازيتهم. شخصيات دنيا الله لاتعاني مثل هذه المرارة من أجل الحصول على وظيفة، كلهم لديه الحد الأدنى من الحياة لكنهم يتمردون على حياتهم، أبطال دنيا الله يتساءلون: أهذه هي الحياة التي سعينا من أجلها؟

ماجدوى الحياة، لماذا كانت بهذه الرتابة والمحدودية.

• **شخصيات رواياته:**

شخصياته تنتسب في غالبيتها الساحقة إلى فئات ومراتب الطبقة الوسطى من تجار وموظفين وطلبة وحرفيين وعناصر من المثقفين أو هي على الأغلب الأعم من عناصر فقيرة لكنها غير عمالية ولافلاحية، وإن كانت أقرب الى طبقات الفقراء الدنيا مثل الخدم والمتسولين والبلطجية.

ذلك كله بسبب نشأته المدنية، هو ابن حي الجمالية حي تجاري حرفي ديني معروف وسط القاهرة، ويبدو أن هذه النشأة ملأت وجدانه بصور الشخصيات من الفئات المتوسطة في الحياة.

شخصياته الوطنية تؤمن بالحرية والعلم والعدل الاجتماعي نشأته القاهرية (يعرف من أحوال القاهرة أكثر مما يعرف من أحوال المدن الأخرى) أستثني مدينة الاسكندرية.

- (حي الجمالية أو شياخة الجمالية ظل يأسرني داخله مدة طويلة من عمري حتى بعد أن سكنت خارجه، وهذا الحي هو مصر، تفوح منه رائحة التاريخ لتملأ أنفك وتظل أنت تستنشقها دون ملل) شخصياته أبناء عائلات متوسطة. تمتحن شبح الفقر، نتيجة شلل أو موت العائل الوحيد، تبدأ

عملية البحث عن مخرج، شبكة مكثفة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة في المدينة البورجوازية، وعبر سلسلة أحداث متتابعة محكمة البناء تستعير وتهضم كل مهارات الرواية الوثائقية والطبيعية.

- محجوب عبد الدايم: يواجه محنة الفقر بشراء وظيفة في الهيئة الاجتماعية مقابل أن يصبح قواداً لعشيقة أحد أعمدة النظام السياسي.

- أحمد عاكف: يدفن طموحه وحبه وعمره في عزوبية جافة. موظفاً صغيراً في أقبية احدى الوزارات. يتعزى بقراءة الكتب الصفراء والفلسفات القديمة، يستغرب تضحياته التي لا تتعدى حدود أسرته، أوقف تعليمه الجامعي لكي يتم أخوه الأصغر تعليمه، ومقابل ذلك يخطف الموت أمل هذه الأسرة المتوسطة، ويستيقظ أحمد عاكف على خواء عمره كله!.

- حميدة: تحلم بالأضواء والثراء خارج حدود الزقاق المعتم. انتهت بأن تصبح المومس والضحية والمرفهة عن جنود الاحتلال

-كامل رؤبة لاظ: هذا الكائن الصغير الذي لا يعرف أبعد من حدود جياة الوظيفة والبيت، يعاني العقم والتبلد ويفجع في حبه وزوجته وتدمره الخيانة والأنانية وضيق الأفق وقلة الحيلة..

- حسنين: الملازم الصغير يرنو الى الانتساب الى طبقة أعلى، يكتشف شقيقته (نفيسة) في بيت للدعارة، ينكر أخوته للأخ الأكبر حسن المطارد. رغم أنه مدين له بنفقات تعليمه. لقد تخطى ظروف اسرته، ولكن بعد ان قضي عليها وبالتالي كان عليه ان ينتحر.

- كمال عبد الجواد: ابن احد تجار شارع بين القصرين يعاني تناقضات الواقع المادي والاجتماعي والنفسي، يعاني صراعات الأسرة في حياتها اليومية. وهو موظف صغير.. (الموظف الصغير كان ومايزال قرة عين كتاب الرواية والقصة في مصر كما كان قرة عين جوجول وغيره من كتاب القصة والرواية في العالم.. وإذا صح قول فرانك او كونور بأن القصة هي فن الجماعات المسحوقة أوالمغمورة فإن ذلك ينطبق على قصص نجيب محفوظ وعلى رواياته)..

- شخصيات الثلاثية رسمت بدقة وبراعة (أمينة - عائشة - خديجة كمال - ام حنفي - ياسين - فهمي - احمد شوكت - عبد المنعم - رضوان) حتى إن القارىء يخرج فوراً بعد انتهائه من مطالعته للثلاثية بصورة شاملة للشخصيات، مكتملة البناء تحمل قيم المجتمع المصري وخصائصه وتنطوي على قيم إنسانية.

- شخصيات رواياته تتوزع بين الانتهازيين والمساومين وتجار الفرص الاجتماعية، والثوريين الذين يطرحون افكاراً تتغير وتتعمق مع تغيرات طبيعة المرحلة التاريخية وماتطرحه من مهمات. والمتدينين الذين لهم أفكار حالمة عن عدالة تعانق مابين الأرض والسماء.

- شخصيات خمارة القط الأسود والمجموعات التي تلتها ذات طابع أسطوري الأحداث تدور في كل العالم والهموم مطلقة وعامة.

ولكن.. لماذا يتعامل نجيب محفوظ مع الطبقة الوسطى في كل رواياته؟

- لأن هذه الطبقة تقدس التقاليد وتتوارثها أباً عن جد..

وتتشبث بها.. أنا من حي الطبقة الشعبية الوسطى، التي تموج حياتها بالكثير من التناقضات والمشكلات، والتي هي النبع الصافي والغزير لموضوعاتي.. كل عمل كتبته في حياتي، قصة أم رواية أم حوارية، كان مستوحى من واقعي وحارتي، سواء ظهر بصورةواقعية أو بصورة مناقضة للواقع أو بصورة رمزية أو فانتازية.. لهذا فأنا اعتبر كل فن هو فن واقعي مهما تعددت مظاهره كما اعتقد ان اي فن يفقد صلته الحقيقة بالواقع ليس من الفن في شيء.. فحتى أحلامنا الجنونية هي واقع بالنسبة لنا في حالة جنون.. إن حارتي التي اتحدث عنها هي من الحياة. الحياة المتصلة بجذور الحياة الشاملة، المحتفظة الى ذلك بقدر من أسرار العالم المنطوي..

وفعلاً، من خلال طائفة من الشخصيات، طائفة من المواقف استطاع نجيب محفوظ ان يحرك حياة كاملة تجري على صفحة الزمن، حياة تمثل

فترة وتجسد فكرة، وتصف معاناة النفس البشرية في محاولة تناغم مع الحياة من حولها. . روائيون كثيرون بحثوا عن البيئة الملائمة. التي يمكن ان ينعكس عليها مايجري في الحياة. جعلوها مرة في المدينة ومرة في الريف، لكن محفوظ اتخذالحارة الصغيرة حارته التي تقع وسط القاهرة. البيئة الملائمة ليعرض عليها معركة التغيير ومأساة الانسان.

انعكس في رواياته صراع الماضي والحاضر، صراع المادية والمثالية، العلم والدين، صراع الثوري والوصولي، صراع الاتقياء والمدنسين، صراع الفضيلة والعهر والشذوذ. صراع المجتمع والسلطة، لوحات متنامية، دورات حياة. . مجالات رحبة باتساع رحابة الحياة. .

لم تكن الرواية - على يديه - الا تقطيراً للعالم الذي نعيش فيه وتركيزاً له، وهي تلهث خلف اعمق رغبات الانسان، رواياته هي الشعب بآلامه وآماله وغنائه واناشيده واحلامه، ومن يطالع هذه الروايات يعرف كيف كان هذا الشعب يحيا ويعيش ويغني وينشد ويحلم في مائة سنة.

بدا لي أنه من أكثر الكتاب الراسخين حساسية للمشكلات الفنية والفكرية في العالم، وهو أقدر الكتاب على التطور، ونتاجه يختزل مراحل تطور فن الرواية في العصر الحديث (دخل نتاجه بعد الثلاثية في مرحلة غنية بالتجديد والتجريب). وامتاز بمزيدمن العمق واقلال من التفاصيل، تخلص من الثرثرة والحشو والاسلوب التقريري المباشر والحكم والمواعظ وبدأ فنه بمزج بين نقد الحياة وطرح التساؤلات الانسانية الصادقة وقد شبه نفسه بمن ارتفع فوق المدينة في طائرة فأضحى لايميز التفاصيل الدقيقة ولكنه يرى رؤيا اوسع واشمل (اولاد حارتنا وماتبعها من روايات).

الأدب وثيقة تسجيلية يمكن الاستئناس بها، ولكن من المغامرة غير العلمية الاعتماد عليها، إن أحداث الأدب تقع في التاريخ القديم أو المعاصر، حتى الأدب المجرد لايخرج عن حدود التاريخ المرنة. ولكن أي تاريخ وأي تسجيل. .

إنه لايعتمد على المراجع او الاحصاء ولكنه يعتمد اولاً وأخيراً على القلب، العاطفة، الوجدان . .

الأدب وثيقة تسجيلية للأديب لا للتاريخ او الواقع . . الأدب ثورة على الواقع ، ليس تصويراً للواقع بل ثورة عليه، غاية مافي الأمر أن هذه الثورة قد ترتدي شكلاً صريحاً ثورياً كما في الأدب الحديث أو ترتدي لباس الواقع الظاهر بعد أن تحدث فيه - خفية - كل تغييراتها . .

مثلاً ، بين القصرين لايمكن اعتبارها وثيقة تسجيلية :

- أنا لم أكتب الثلاثية لأؤرخ لمصر . . ولم أكتب القصص التاريخية الصريحة - عبث الأقدار - رادوبيس - كفاح طيبة لأقدم تاريخاً بأمانة ومادفعني للكتابة في الحالتين حبي لأماكن وأشخاص وقيم . .

أنت لاتعرف تاريخ انكلترا في القرن التاسع عشر دون مراجعة روايات ديكنز وترولوب وثاكري، وتاريخ فرنسة دون استشارة روايات بلزاك وفلوبير وموباسان وستندال ، وتاريخ روسية دون تفهم روايات غوغول وتولتسوي وديستويفسكي ، ولاتستطيع أن تعرف مصر دون الرجوع الى روايات محفوظ . . لأن الرواية فن قومي، وهي من أبرز التعبيرات الفنية عن نضْج الإحساس بالشخصية القومية المتميزة، الرواية فن تصوير البيئة الاجتماعية ونقدها وكشف سلبياتها، بقصد تغييرها ودفعها الى مزيد من التقدم والازدهار (سيرفانتس في اسبانية - جوركي في روسية - مالرو في فرنسة).

حقق نجيب محفوظ قفزة للرواية العربية نتيجة لحسن استيعابه لروح مصر وشعب مصر وواقع مصر، ولحرصه الشديد على تصوير هذا الواقع ونقده بقصد تطهيره من السلبيات وتطويره، واستطاع ان يحقق ذلك من خلال اشكال فنية ناضجة متطورة نتيجة لتعمقه في دراسة اشكال الرواية الأوروبية ، إنه يعانق الانسانية في أرحب آفاقها . . الرواية تتحول بسحر الخلق الفني لعمل وجداني . وموقف أكثر مما هي مخيلة وملاحظة، وتتحقق بتوافق نغمات الادانة والتعرية لواقع يتآكل . .

ويلاحظ الباحث ان هناك بوناً شاسعاً بين رواياته الأولى وآخر رواياته التي كتبها (رحلة ابن فطومة) وقصص (أم أحمد - صباح الورد - اسعد الله مســـاك) مـــروراً بالمرايا - والحب تحت المطر - والجـــريمة - والكرنك - وحكايات حارتنا - وقلب الليل - وحضرة المحترم - وملحمة الحرافيش - والحب فـــوق هضبـــة الهـــرم - والشـــيطان يعـــظ - ويوم قـــتل الزعـــيم --إلى اخره . .

ففي رواياته الأولى كان يقدم شخصيات ونماذج اجتماعية تعبر عن البيئة دون رمز أو تبطين . ويلعب السرد الدور الرئيس في البناء الروائي ، بينما تغيرت ملامح الشخصيات وتطور تكنيك الرواية بعدئذ الى مدارات جديدة تأخذ من الرمز شفافيته ومن الحوار حيويته، ومن النجوى الداخلية صورها المليئة بالمعاني والدلالات .

أما من حيث الشكل الخارجي فهو يحاول الإفادة من شمولية الأدب التسجيلي ومن بساطته وعفويته في التعبير، غير أن ذلك لايوقعه في متاهات التسجيلية البحتة وتلافيفها التي تغرق في سيول السرد، بل إنه يوظف التسجيلية ويستخدمها لتمنح العمل الروائي بعدين أساسيين : أولهما البساطة المفعمة بالرموز والدلالات، والغنية بالاضاءات السياسية وثانيهما العفوية المتسقة مع الواقع، تلك العفوية هي التي يمكن ان توصف بأنها مختمرة بالرؤية السياسية والاجتماعية والفكرية والفنية .

-أنا من الذين يؤمنون بأن الانسان يتأثر بكل مايقرأ فهو جهاز استقبال لاقط يختزن المعلومات والمرئيات والأفكار والذكريات ، وأعتبر تكويني الأدبي مديناً لذلك الحقل العالمي المليء بالأشجار والأثمار . . دون التخصص أو الانتماء الى مدرسة بعينها . . ولذلك كنت مستعداً - دائماً - لتغيير اسلوبي ، إذا تغيرت النظرة او المضمون او الظرف . .

(لذا اقتصر في قراءاته على مايسمونه بالروائع -اكتفى من كل كاتب بكتاب أو اثنين).

- إنني لم اختر على هواي موضوعاً ما، وإنما الموضوع يفرض نفسه علي . .

-إنني لم أفكر في تغيير الشكل او التكنيك لمجرد التغيير، أو حباً في الحداثة، أو مباراة لمدارس معاصرة، وإنما يجيء الشكل كفن بمعنى الظل للموضوع. وليس هناك انفصال بينهما. وأنا أرفض اعتبار الشكل موضة، فالشكل ضرورة كالموضوع . وإذا خرج عن نطاق الضرورة كان مجرد فشل فني جوهري . .

ان بعض الاشكال في بعض قصصي لم تأت لحتمية فنية، بل كمحاولة للتعبير عن أشياء يتعذر التعبير عنها لأسباب سياسية او اجتماعية).

تساؤلات:

- هل نجيب محفوظ كاتب سياسي؟

-نعم، له رأي واضح ومحدد تاريخياً، وله موقف متماسك ومستمر اجتماعياً ، وله نظرة شاملة فكرياً، مهما بدا كل هذا متسربلاً احياناً في حيل الرواية التي لاحصر لها وفي ثنايا فنها الماكر . .

في الثلاثية عالج القضايا السياسية والوطنية من الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ الى الحرب العالمية الثانية .

في السمان والخريف - وثرثرة فوق النيل - وميرامار عالج قضايا ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ .

(معظم كتاباتي كانت نتيجة لخيبة أمل كبرى، أغلب احلام شبابي ومثلي العليا وعدتني بها ثورة يوليو ١٩٥٢ ، يوم جاءت، كالعدالة والاستقلال والديمقراطية والحرية، وهل يمكن أن أنسى شعار (ارفع رأسك يا أخي) وهذا مادعاني يوماً الى التوقف عن الكتابة عقب الثورة، على أساس أنني لاأكتب إلا إذا شعرت باختلال بيني وبين المجتمع) .

عالج محفوظ قضايا الحياة والناس في ظل الحرب العالمية الثانية (خان

الخليلي - زقاق المدق) ظهرت لمحات سياسية في (عبث الاقدار - رادوبيس - كفاح طيبة) تعرض لأهم الأحداث في علاقاتها المؤثرة في حياة الأفراد العاديين وصنع من الحياة الوطنية العامة والحياة اليومية الخاصة نسيجاً يظهر به ، ومن خلاله معنى ارتباط حياة الأفراد بحياة الأوطان (نضال المواطنين في الشوارع والمدارس والمكاتب ، والمقاهي في سبيل الحرية ضد الحماية الانكليزية يصورهم جنباً الى جنب وهم يناضلون داخل البيوت وفي البارات وفي منازل اللهو والدعارة في سبيل الحرية الفردية ضد الحماية الأبدية (ياسين - كمال في الثلاثية) وكان محوره الفكري السياسي في أغلب رواياته هو محور الحرية . . .أسألك ماهي انتصارات العرب الحقيقية منذ الحروب الصليبية وموقعة حطين)؟

يصدم الباحث عندما يجد أن هذا التاريخ سلسلة من الذل والهزائم المتلاحقة ، تتخللها - طبعاً - انتفاضات او ثورات تمنى عادة بنكسات، فماذا تتوقع لأدب قوم هذه أحوالهم منذ تسعمائة سنة . . لو اتسم هذا الأدب بالفرح . فإنني اتهم اصحابه بالجنون وعدم المسؤولية والاحساس . .

المطلوب منا تشريح الواقع الأليم وتذكر أمجاد الماضي على سبيل حث الهمم) . .

- لماذا لم تنعكس قضية الصراع العربي - الاسرائيلي في اعمالك مع انها قضية خطيرةماسة بوجود الانسان العربي في كل مكان؟

-ألجأ الى معالجة القضية في مستوى تجريدي كما فعلت في (تحت المظلة) أما المعالجة الواقعية فهي صعبة لأننا لانعرف الواقع معرفة تامة . .

نحن كعرب أصحاب قضية وأصحاب هدف، الهدف هو الحضارة لأننا نعيش التخلف، والقضية رمانا بها الاستعمار وسياسة المصالح الدولية بين القوى الكبرى فحدثت مأساة فلسطين، القضية استوعبتنا الى درجة انها انستنا الهدف، مع أنه مهما كانت أهمية القضية فالهدف يبقى الأول والأخير، لأنه الحياة، ووجدت أن قوانا وأموالناتضيع في القضية ، مثل

العائلة الصعيدية التي يرزقها الله بالأرض والأموال لاستغلالها من أجل الحياةفإذا بهم من أجل ثأر يتساقطون قتلى الواحد بعد الآخر حتى لايبقى سوى النساء كل هذا من أجل كرامة العائلة وتقاليد الصعيد، وتبقى الأرض بعد ذلك لاتجد من يزرعها.

في قصتي (فنجان شاي) نداء ثوري صريح للقتال والنضال المسلح ضد العدو، كما تفصح عن ادانة كاملة للقوى الاستعمارية، لامكان إلا لنوعين من الانسان، واحد يقاتل بقلب ملؤه الشر، وآخر يقاتل بقلب ملؤه الخير.. ليس ثمة وجود الا للمقاتل، لقد فهم العربي ذلك جيداً بعد أن سرق قطاع الطرق وطنه بأكمله..

- هل هناك جسورمشتركة بينك وبين الروائي ماركيز من حيث تكنيك الكتابة واستلهام الاسطورةولغة التعبير؟

- قرأت مائة عام من العزلة، وقرأت له رواية عن ديكتاتور شوى وزير حربيته وقدمه على مائدة للسفراء الأجانب (خريف البطريرك) واستعمال الاسطورة مألوف لدى الادباء في الشرق والغرب ولاجديد في هذا إذا فعله ماركيز أما عن أسلوبه فلقد تربي في مدرسة فوكنر الحديثة مدرسة تيار الوعي وأنا استعملت هذا الاسلوب عندما كانت تقتضيه بعض الروايات (اللص والكلاب وغيرها) أما الحرافيش فتتحدث عن حارة تصورت فيها العالم كله، بينما هو في روايته أخذ قرية ـ ماكوندو - وصور فيها كولومبيا - وليس العالم، وقصتي تبدأ أحداثها بالطوفان. أما عن أسلوب كل منها فإذا كنت تأثرت ببعض المدارس الأوروبية التي تأثر بها، فأنا متأثر بأشياء أخرى هو لم يعرفها مثل القرآن الكريم والتراث العربي..

(دائماً يلح على الروائي أن يكون لديه معرفة كاملة بالواقع الذي يكتب عنه).

- أنت لم تخرج في كتاباتك عن الانسان المصري فما الذي يميزه؟

-المصريون لطاف وأهل مودة، يحبون الحياة ويعشقون مسراتها،

وبخاصة المسرات الحسية، وفيهم شيء من طبيعة النمل، ذلك هو دأب الواحد منهم، وحتى لو لم تكن همته عالية، إلا أنها همة متصلة باستمرار، تثمر في النهاية عملاً ضخماً، ومن صفات المصريين العجيبة أنهم تمرسوا بالاستبداد، وهم من أقوى الناس على كراهيته وعلى الصبر عليه، إنهم يحتملونه كما يحتمل الشخص مرضاً مزمناً لايحبه ولكن يصبر عليه يخيل إلي انهم من اكثر شعوب العالم احساساً بالحاكم، وسبب ذلك أن الحاكم كان له - دائماً - وفي كل العصور اثر في كل تفاصيل حياتهم اليومية . . وتستطيع ان تقول انهم من الشعوب المتدينة جداً، ويغلب عليهم التعلق بالدين والمراسم والعادات الدينية .

وكل الاحاسيس هذه منبثقة من طبيعة أهل القاهرة وربما الوجه البحري، أما الصعيد فلأهله طبيعة عنيفة وددت لو يهتم بها الأدب، إن الصعيد يبني الوادي، وعند اهله صفات العنف والقسوة والانتقام والصلابة مايظهرهم كأن لهم طبيعة خاصة .

وإن أي نقائص في الشخصية المصرية - كالفردية وندرة الروح العلمية والسلبية في كثير من الاحيان - إنما ترجع الى ماورثته من عهود الظلام التي شملتها الاف السنين، والأمل معقود على حاضرنا ومستقبلنا أن تتحول هذه النقائص الى نقائضها . .

• أما زلت مخلصاً للفصحى في كتابتك؟

- درجت على استخدام الفصحى في قصصي جميعها، إنني أحاول أن أضفي على العربية الفصحى حيوية وثراء وتلويناً الى جانب بساطتها، وهذا الاختيار للغة الأدبية البسيطة والحديثة يجعل رواياتي في متناول فهم القارىء العادي في جميع الأقطار العربية .

- وعن الجنس الذي هو محور رئيس في عالم رواياته . . ماذا يقول؟

- الأدب الذي يسمى مكشوفاً ليس جديداً على الأدب العربي، فقد سبقنا فيه أوروبة بزمن طويل . وعندنا أنواع من الفحش حتى في العصر

الحديث ليس لها نظائر في أوروبة ، والذي شجع على هذا هو محدودية النشر، فقد كان الاعتماد أساساً على الرواة . .

الجنس في العصر الحديث وبخاصة بعد الحرب العالمية بدأ يأخذ وضعاً آخر - بدأ يعرض على المسرح ويظهر على الشاشة ويروي الرواية بطريقة يفهم منها أن هذه المسألة لم تعد من الأشياء التي تدخل تحت نطاق الاخلاق والحياء . .

- ماهو موقفي ككاتب من الجنس، الجنس كنشاط انساني لايمكن تجاهله مثل الجريمة والعقيدة والسياسة والحب . .

لكن الأدب الذي يستحق هذا الاسم هو الأدب الذي يعالج الأمور بجدية والجنس من الأشياء المشحونة باغراء الانزلاق نحو الاثارة في تناولها بسبب العنصر التجاري في الموضوع .

لذا فهناك خط يقتضي من الناقد أو القارىء ان يميزه . وهو مدى جدية هذا الكاتب أو مدى ميله للاثارة في تناول هذا الموضوع الحساس، وفي حدود تكويني وبيئتي أعتقد أنه من الضروري اخراج الاثارة من نطاق الفن - كما أرى انها تنطوي على نوع من الاستسهال . مثل اللجوء للاثارة عن طريق الرعب أو الخوف . وهذه أيضاً تخرج من نطاق الفن الى مجال التجارة، كل الوان الاثارة هذه من ضروب التجارة . والفن لابد أن يكون شيئاً آخر . . (رجوع الشيخ الى صباه شيء والفن شيء آخر) . . والحقيقة إنه امتحان عسير يتعرض له كل فنان يتناول الجنس، متى يقف عند الفن ومتى ينزلق الى التجارة . . الاثارة محتقرة عندي فنياً قبل ان تكون محتقرة اخلاقياً . اضعف كاتب يستطيع ان يشدك إذا ماكتب عن الجنس وإن لم تكن لديه أي أدوات فنية . خذ مثلاً الجنس في رواية الشحاذ له مسحة فلسفية، إذ هو بديل لنشوةمعينة هي نشوة الإيمان أو شيء ، من هذا، وكان الجنس في (الطريق) أيضاً له بعد فلسفي أو بالأحرى مسحة فلسفية المومس عندي موظفة توظيفاً اجتماعياً بحتاً، كنت أوضح من خلالها فساد أناس المفروض فيهم

عدم الفساد في (اللص والكلاب) هناك زوجة سعيد مهران، المفروض انه سيدة محترمة، وهناك رفيقة وهي مومس، وهناك رؤوف علوان وهو مثقف المفروض فيه أنه كان شريفاً وملتزماً، لكن انظر مدى اخلاص كل من هؤلاء الثلاثة او خيانته . كانت المومس اكثر اخلاصاً من الزوجة ومن رؤوف علوان معاً . المومس تدخل رواياتي لكي تشتم شخصاً محترماً تقول له انت المومس وليس أنا . .

الشذوذ الجنسي استعمله غالباً في النقد السياسي الشاذ جنسياً عندي لم يدرس كشاذ لكنه قدم كعلامة عن واقع، في رواية (مارسيل بروست) البحث عن الزمن الضائع تجد التناول الحقيقي للشذوذ الجنسيْ بصورته الحقيقية . انه يجعلك تدخل في اعماقهم وتستغرب مشاعرهم ، مثل الغيرة . . الغيرة من نفس النوع، والغيرة من الجنس الآخر ومن العلاقة السوية، كان بروست رائعاً في تصوير هذه المشاعر . وبخاصة عندما صور لنا الشاذ وقد اشتعل غيرة على رجله من امرأة تمتلك اسلحة طبيعية لايستطيع مقاومتها ولايملك ازاءها شيئاً . هذا النوع من الدراسات الفنية للجنسية المثالية لاأستطيع تقديمه . . وليس لدي في أي من اعمالي مثل هذا النوع . .

اغلب الجنس موظف توظيفاً اجتماعياً . كان يصح أن يكون هدفاً مستقلاً مثل (لورانس) لكن هذا هو المنحى الذي سرت فيه، اهتمامي في الجنس في النهاية أحد توابع اهتمامي بالسياسة، اترك المجال مفتوحاً لاستقصاءات النقد والنقاد . .

وبعد : الرحلة مع نجيب محفوظ ممتعة لكنها لاتخلو من صعوبات وإذا ماجالسته أزال جميع الحواجز والعقبات هل أقول إنه خيب ظني عندما رأيته هل أقول أنني لم أنتظر منه كل هذا التواضع، وهو عملاق بحق .

في كل روائي عربي خيوط من تجربته، عند كل قاص عربي من المحيط الى الخليج شيء من تأثيره وسحره (سواء على مستوى الشكل أو المضمون) كلنا خرجنا من معطف نجيب محفوظ؟

ذلكم الاسمر من تربة مصر . . صاحب الشامة الكبيرة الفارقة على صفحة خده . . صاحب العينين الثاقبتين اللتين يؤذيهما النور الباهر ولذلك يضع النظارة السوداء التي تستر تمعنه فينا، تخفي تمرسه بأنماط الناس الذين يمرون عليه، إنه يدقق في كل من يلقاه . . بسيط كأرض مصر، وإن أفرطت في تحتية يخجل، حتى الآن، يقولون عنه إنه لم يصطدم مع أحد، لم يدخل في معارك شخصية ولاحتى معارك فنية أدبية مع كل الذين احتك بهم، إنه مثال العلاقة الرائعة بين الانسان وأخيه الانسان إنه مثال المثابر الدؤوب الذي لايتوقف عن الابداع، حياته في أن يقرأ ثلاث ساعات مستمرة ويكتب ثلاث ساعات مستمرة، والذين يعرفونه أكثر يقولون إنه يسرق من وقت وظيفته ويكتب القصص القصيرة (كذلك شأنه حين كان في الوظيفة) ، وعلى الرغم من تجاهل النقاد له، وبعده عن الضوء أكثر من عشر سنين، وبعد أكثر من خمس روايات، ظل مثابراً ولم يتوقف. والتفت إليه العالم بعد ذلك، واحتفى به النقاد - بلا وساطة - ونال جائزة نوبل .

عندما أشرت اشارة عابرة انه لم يكتب إلا عن مصر والانسان المصري، ضحك وقال : أنا أقليمي ، الانسان العربي هو مصر . . وماهي مشكلاته ماهمومه : هي مشكلات وهموم الانسان العربي في كل مكان « كلنا في الهم شرق » اننا ننفذ الى أعماق الانسان في أحايين كثيرة، عن طريق قلوبنا بصرف النظر عن الامتداد الجغرافي.

أنا دائماً أشعر بقلق، انظر الى فوق، أي الى المستوى الذي لم أبلغه واحلم ببلوغه . وكثيراًماأتمنى لو كان من الممكن أن أعيد كتابة ماكتبت من أول كلمة . .

* * *

اللحظة الشعرية واللحظة الميتافيزيائية

تأليف: غاستون باشلار
ترجمة: سلام ميخائيل عيد

I

الشعر هو ميتافيزياء لحظية. يجب أن يعطي في قصيدة قصيرة، رؤية للعالم وسرَّ نفسٍ وكائن وأشياء، الكل دفعة واحدة. وإذا كان يتبع، ببساطة، زمن الحياة فهو أقل من الحياة، ولايمكنه أن يكون أكثر من الحياة إلا بتثبيت الحياة، إلاّ بأن يحيا،

---

* سلام ميخائيل عيد باحثة من سورية، تهتم بالترجمة، تنشر في الدوريات المحلية والعربية.

في مكانه، ديالكتيك الأفراح والعناءات. إنّه، إذاً، مبدأ تزامن ماهوي حيث يفوز الكائنُ الأكثرُ تفككاً والأكثر تشتّتاً بوحدته.

في حين تُحضر جميع التجارب الميتافيزيائية الأخرى في مقدّمات لاتنتهي، يرفض الشعر التمهيدات، والمبادىء والمناهج والبراهين.

إنه يرفض الشكّ، إنهّ في الأكثر، بحاجة إلى استهلال صمت. في بداية الأمر، إذ يدق على كلمات جوفاء، يُصمتُ النثرَ والدندنات التي قد تترك في نفس القارىء استمرارية فكرة أو تمتمة. ومن ثمّ، وبعد الرنّات الفارغة، ينتج لحظته، وكي يبني الشاعر لحظة معقدة، كي يعقد في هذه اللحظة تزامنات عديدة فإنه يقوّض إستمرارية الزمن المُقيَّد البسيطة.

نستطيع إذاً أن نجد، في كلّ قصيدة حقيقية، عناصر زمن مُوقفٍ، زمن لايتبع القياس، زمن سنسمّيه عمودياً كي نميّزه عن الزمن العام، الذي يتسرّب أفقياً مع ماء النهر، مع الهواء الذي يمرّ. ومن ذلك مفارقة يجب إعلانها بوضوح: ففي حين يكون زمن العروض أفقياً، فإن زمن الشعرعمودي. ولاتنظم العروض سوى رنّات متتابعة، وتضبط إيقاعات، وتدير حماسات وإنفعالات، وغالباً للأسف، في غير محلها، وإذ تقبل العروض نتائج اللحظة الشعرية، تسمح باللحاق بالنثر، بالفكر المشروح، وبمشاعر الحب المُختَبَرة، بالحياة الإجتماعية، بالحياة الجارية، بالحياة الزالقة، الخطيّة، المُستمرة. لكن ليست جميع القواعد العروضية سوى وسائل، وسائل قديمة. والهدف هو العمودية، العمق أو الارتفاع، إنه اللحظة المُرسّخة حيث تُبرّهن التزامنات، إذ تنتظم، على أنّ للحظة الشعرية منظوراً ميتافيزيائياً.

إذاً، فاللحظة الشعرية هي، بالضرورة، مُعقدّة: إنها تحرّك الشعور، تبرهن - تدعو، تواسي - إنّها مذهلة واعتيادية. إنّ اللحظة الشعرية هي، جوهرياً، علاقة ضدين متناسقة، ثمّة بعض من العقل دائماً، في لحظة الشاعر المشبوبة عاطفة، ويبقى دائماً قليل من الشغف في الرفض المحُاكم عقلياً. وتروق الطباقات المتتابعة للشاعر مسبقاً. ولكن لأجل الافتتان،

لأجل النشوة، على الطباقات أن تندغم في تناقض وجداني. حينئذٍ تنبثق اللحظة الشعرية.. إن اللحظة الشعرية هي، على الأقل، وعي تناقض وجداني. لكنّها أكثر، لأنّه تناقض وجداني مُحَرّض، نشيط، ديناميكي. وتجبر اللحظة الشعرية الكائن على أن يغلي أوأن ينقص القيمة. يصعد الكائن أو ينزل، في اللحظة الشعرية، من غير أن يقبل زمن العالم الذي قد يُعيد التناقض الوجداني إلى الطباق، والمتزامن المُتتابع.

وسنحقّق بسهولة، من علاقة الطباق والتناقض الوجداني هذه، إذا أردنا أن نتناول القربان المقدّس مع الشاعر الذي يحيا، بداهة، في لحظة واحدة، حدي طباقاته، لايسمى الحدّ الثاني بالأول، ولدَ الحدّان معاً. وسنجد مذ ذاك، اللحظات الشعرية الحقيقية لقصيدة في جميع النقاط التي يستطيع القلب الإنساني أن يعكس الطباقات فيها. بمزيد من الحدس، ينكشف التناقض الوجداني المعقود جيداً من خلال طابعه الزمني. بدلاً من الزمن الفحل والمقدام الذي ينقض ويُحطّم، بدلاً من الزمن العذب والمُذعن الذي يتحسرويبكي، هي ذي اللحظة الخنثى. إن اللغز الشعري هو خنثوية.

II

لكن هل تبقى هذه التعددية للأحداث المتعارضة المحبوسة في لحظةواحدة، من الزمن؟ وهل هو من الزمن، هذا المنظور العمودي كلّه الذي يميل عن اللحظة الشعرية؟ نعم، لأنّ التزامنات المُكدّسة هي تزامنات مُنظّمة. إنها تعطي اللحظةبعداً إذ تعطيهانظاماً داخلياً. والحالة هذه يكون الزمن نظامــاً ولا شيء آخر. وكلّ نظام هو زمن. إن نظام التناقضــات الوجدانيـة في اللحظة هو، إذاً، زمن. إن هذا الزمن العمودي هو الذي يكتشفه الشاعر عندما يرفض الزمن الأفقي، أي صيرورة الآخرين، صيرورة الحياة، صيرورة العالم. تلك هي أنظمة التجارب المتتابعة الثلاثة التي يجب أن تفكّ الكائن المُقيّد في الزمن الأفقي:

١ - الإعتياد على عدم إسناد زمنه الخاص إلى زمن الآخرين - أي تحطيم الأطر الاجتماعية للمدّة!

٢ - الاعتياد على عدم اسناد زمنه الخاص الى زمن الأشياء - أي تحطيم أطر المدة الظاهراتية.

٣ - الاعتياد - وهو تمرين قاس - على عدم اسناد زمنه الخاص الى زمن الحياة - ألا يعود يعرف إذا كان القلب يخفق، إذا كان الفرح ينمو - أي تحطيم أطر المدّة الحيوية.

نبلغ فقط، والحالة هذه، الإسناد المتواقت الذاتي، إلى مركز الذات، من غير حياة محيطية. وفجأة تندثر الأفقية المُسطّحة. ولا يعود الزمن يجري، بل ينبثق.

III

وللإمساك بهذه اللحظة الشعرية المُرسَّخة، أو بالأحرى لاستعادتها، ثمة شعراء، مثل مالارميه، يخاشنون الزمن الأفقي مباشرة، ويعكسون النحو، ويوقفون نتائج اللحظة الشعرية أو يحرفونها. وتضع العروض المعقدةَ حصىً في الجدول كي تُدمِّر الأمواجُ الصور الباطلة، وكي تُحطِّم الدوامات الإنعكاسات. ونُجرِّب، غالباً، إذ نقرأ مالارميه، إنطباع زمن إرتجاعي يأتي ليُنجز لحظات تامة. إننا، والحالة هذه، نحيا، متأخرين، اللحظات التي كان سيتحتّم علينا أن نحياها: إحساس غريب جداً حتى أنه ليس من نوع أي تحسّر، أي ندم، أي حنين. إنه مصنوع، ببساطة، من زمن مشغول، يعرف أحياناً كيف يصنع الصدى قبل الصوت والرفض في الإقرار.

إن شعراء آخرين، سعداء أكثر، يأخذون، طبيعياً، اللحظة المُرسَّخة. وكالصينيين، يرى بودلير الساعة في اعين القطط، الساعة غير المحسوسة حيث يكون الشغف كاملاً جداً حتى أنّه يأنف من أن يُكمل: «أرى دائماً، في عمق عينيها، الساعة بوضوح، دائماً هي نفسها، ساعة

رحبة ، احتفالية، كبيرة كالفضاء ، من غير تقسيمات دقائق ولاثوان - ساعة ثابتة غير مرسومة على الميقاتيات. . . (1)

ولدى الشعراء الذين يحققونّ، هكذا، اللحظة بيُسر، لاتجري القصيدة. إنها تنعقد، تنسج نفسها من عقد إلى عقد. ولاتتمّ دراماهم. وشرّهم زهرةٌ هادئةٌ. .

في حالة توازن قرابة منتصف الليل، ومن غير انتظار أيّ شيء من نفس الساعات، يتخفف الشاعر من كلّ حياة عديمة الجدوى، ويُحسّ التعارض الوجداني المُجرَّد للوجود والعدم. ويرى في الظلمات ضوءه الخاص روية أفضل، وتحمل له الوحدةالفكر المتوحد، فكراً من غير لهو، فكراً يرتفع، يهدأ إذ يتحمّس بنقاء.

ويرتفع الزمن العمودي، ويضمحلّ ايضاً، أحياناً، ولايعود منتصف الليل يدقّ أفقياً أبداً، لمن يعرف كيف يقرأ «الغراب». يدق في النفس اذ تنزل، اذ تنزل. . نادرة هي الليلات التي تكون لي الشجاعة فيها كي امضي نحو العمق، حتى الدقة الثانية عشرة، حتى الجرح الثاني عشر، حتى الذكرى الثانية عشرة. . حينئذ أعود إلى الزمن المُسطّح ، أكبلّ، أعيد تكبيل نفسي، وأعود إلى الأحياء، في الحياة. كي نحيا، يجب دائماً ان نخون اطيافاً.

فعلى الزمن العمودي - إذ نتزل - تتطبّق المشاق الأسوأ، المشاق التي من غير سببيّة زمنية، المشاق الحادة التي تجتاز القلب مجاناً، من غير أن تضعف ابداً. وعلى الزمن العمودي - إذ نصعد من جديد- تتوطد المواساة من غير أمل، هذه المواساة الغريبة المواطنةالأصليّة، من غير حام. وباختصار، إن كلّ مايفصلنا عن العلةوالجزاء ، كلّ ماينفي التاريخ الخاص والرغبة ذاتها، كل ماينقص قيمة الماضي والمستقبل في آن واحد، يوجد في اللحظة الشعرية.

(١) بوذلير - قصائد نثرية صغيرة.

هل نريد دراسة نبذة صغيرة من الزمن الشعري العمودي ؟ فلنأخذ لحظة التحسّر الباسم الشعرية، في الوقت الذي ينام الليل فيه ويُرسّخ الظلمات، وحيث تكاد الساعات لاتتنفس، وحيث الوحدة؛ وحدها، هي، مسبقاً، ندم! ويكاد قطبا التحسر الباسم المتعارضان وجدانياً يتلامسان. إن أقلّ اهتزاز يستبدل أحدهما بالآخر. فالتحسّر الباسم هو إذاً واحد من التعارضات الوجدانية لقلب حساس. والحالة هذه، فإنّه يتطّور، بداهة، في زمن عمودي، بما أن أيا من الآنين : الابتسامة او التحسر، ليس سابقاً. إنّ الشعور هنا قابل لأن يعكس او، كي نعبر تعبيراً أفضل، إن معكوسية الكائن هنا مجعولة عاطفية : تتحسّر الإبتسامة ويبتسم التحسّر، ويواسي التحسّر. وليس أي من الأزمنةالمُعبر عنها بالتعاقب سبباً للاخر، ذلك إذاً الدليل على أنّه معبر عنها تعبيراً سيئاً في الزمن المتتابع، في الزمن الافقي، لكن ثمة، بعد كل حساب، صيرورة من الواحد الى الآخر، صيرورة لانستطيع ان نختبرها الا عمودياً، إذ نصعد، مع الانطباع بأن التحسّر يتخفف، وبأن النفس ترتفع، وبأن الطيف يسامح. عندئذ تزهر التعاسة حتماً. وهكذا فان ميتافيزيائيا حساساً سيجد في التحسر الباسم الجمال الصوري للتعاسة، وتبعاً للسببية الصورية سيفهم قيمة تطوّق المادة حيث تعرف اللحظة الشعرية نفسها. وهذا دليل جديد على أن السببية الصورية تجري داخل اللحظة، باتجاه زمن عمودي، في حين ان السببية الفاعلة تجري في الحياة وفي الاشياء، افقياً، بأن تُجمّع اللحظات ذوات الشدّات المتنوعة.

وطبيعياً، في منظور اللحظة، نستطيع ان نختبر تناقضات وجدانية على مدى أبعد : « حين كنت طفلاً، أحسست في قلبي احساسين متعارضين : رعباً من الحياة ونشوة بالحياة. » [1] إن اللحظات التي تبتلي هذه

(١) بودلير، قلبي مُجّرد من ثيابه.

الاحاسيس بعضها بعضاً فيها تثبت الزمن، لانها تبتلي بعضها بعضاً يربطهما الإهتمام المغري بالحياة. تخطف الكائن خارج المدّة المشتركة. ولايستطيع مثل هذا التعارض الوجداني أن يقدّم نفسه في أزمنة متتابعة، ككشف مألوف بالأفراح والعناءات العابرة. إن أضداداً حيّة بهذا المقدار، أساسية بهذا المقدار تنمى الى ميتافيزياء آنية. نحيا اهتزازها في لحظة واحدة، من خلال نشوات وسقوطات تستطيع حتى أن تكون متعارضة مع الأحداث: ويأتي النفور من الحياة ليتابنا في المتعة، حتماً، كما يتنابنا الإباء في التعاسة. إن الامزجة الدورية التي، إذ تتبع القمر، تبسط على المدة المستعملة عادة حالات متناقضة، لاتمثل سوى صور ساخرة للتعارض الوجداني الاساسي. وحدها سيكولوجيا معمقة للحظة ستستطيع أن تعطينا الرسوم الخيالية الضرورية لفهم الدراما الشعرية الماهوية.

IIII

ومن المُدهش، من جهة اخرى، أن يكون احد الشعراء الذين أدركوا، الادراك الأقوى، لحظات الكائن الحاسمة هوشاعر المطابقات. وليست المطابقة البودليرية، كما نعرضها غالباً جداً، نقلاً بسيطاً قد يعطي نظام مماثلات حسية، إنها مجموع الكائن الحسّاس في لحظة وحيدة. ولكن التزامنات الحساسة التي تجمع العطور والألوان والأصوات لاتقوم إلا بإثارة تزامنات ابعد واعمق. في وحدتي الليل والضوء هاتين تجد نفسها أبديّة الخير والشرّ المزدوجة. إن ماهو « رحب» في الليل وفي الوضوح يجب، من جهة اخرى، ألا يوحي لنا برؤية فضائية. ليس الليل والضوء مستحضرين لأجل اتساعهما، لأجل لا نهايتهما، وإنّما من أجل وحدتهما. ليس الليل حيّزاً. إنّه نذير أبدية. إن الليل والضوء هما لحظات ثابتة، لحظات سوداء او مضيئة، فرحة أو حزينة، سوداء ومضيئة، حزينة وفرحة. أبداً لم تكن اللحظة الشعرية أكمل مما هي عليه في بيت الشعر هذا حيث في الإمكان جمع جسامة النهار والليل في الوقت نفسه. وأبداً لم يُجعل تعارض

الإحساسات الوجداني، ومانوية المبادىء محسوساً فيزيائياً، بهذا المقدار.

وإذ تفكر على هذ النحو، سنصل فجأة الى هذه الخلاصة: إنّ كلّ سلوك لحظي. وليس لأمر السلوك المطلق سوى أن يصنع مدّة. وهو لايحتفظ بأية علة محسوسة. ولاينتظر أيّة نتيجة. يمضي بخط مستقيم، عمودياً، في زمن الأشكال والأشخاص. فالشاعر هو إذاً، دليل طبيعي للميتافيزيائي الذي يرغب في فهم قوى الاتصالات اللحظية كلّها، وحماسة التضحية، من غير ان يترك إزدواجية الذات والموضوع الفلسفية الفظّة تقسمه، ومن غير ان يترك ثنائية الأنانية والواجب توقفه. ويُنشّط الشاعر ديالكتيكياً أحذق. ويكشف في الوقت نفسه، في اللحظة ذاتها، تضامن الشكل والشخص. ويثبت أن الشكل هو شخص وأنّ الشخص هو شكل، ويصبح الشعر. هكذا، لحظة علّة صورية، لحظة القوة الشخصية. عندئذ يُهمل مايحطم ومايُفكّك، ويهمل مدة تبعثّر أصداء. إنّه يبحث عن اللحظة. ليس بحاجة إلاّ للحظة. يخلق اللحظة. وخارج اللحظة، لايوجد إلا النثر والأغنية. في الزمن العمودي للحظة مثبتة يجدالشعر ديناميكيته النوعية. ثمّة ديناميكية صرف للشعر الصرف. إنّها تلك التي تنمو عمودياً في زمن الأشكال والأشخاص.

* * *

ميخائيل نعيمة والثقافة الروسية

د. فاخــر ميــا

لم يمضِ على وفاة ميخائيل نعيمه الكاتب اللبنانيّ الكبير. أحد المؤلفين العرب العباقرة سنة ونصف السّنة حتى احتفل بالذكرى السنوية المئويّة لميلاده. فقد اتصلت مؤلّفات ميخائيل نعيمة وحياته بروسيا وثقافتها. إنّ مشكلة تأثير

---

*د. فاخر ميا: أديب وباحث من سورية، أستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق، يهتم بدراسة الأدب المقارن.

الحضارة الروسيّة على نعيمة كانت تقف أمام كلّ باحث بدأ في دراسة كتب الكاتب اللبناني ومع ذلك لم يُعط هؤلاء الباحثون صورة كاملة لتأثير الثقافة الروسيّة على نعيمة وخاصة في مسألة تأثير أفكار الفيلسوف والكاتب الروسي العظيم ليف تولستوي عليه، رغم أن هذا التأثير يحتل مكاناً بارزاً في تطوير مفاهيم الحياة عند ميخائيل نعيمة، وكذلك في تشكيل نظريته الفلسفيّة والدينية والجماليّة.

إنّ المرحلة الروسيّة في حياة ميخائيل نعيمة معروفة جيداً. فقد بدأ انتماؤه إلى الثقافة الروسيّة في عام ١٨٩٩، وذلك أثناء دخوله المدرسة الابتدائية المفتوحة في بسكنتا، تحت رعاية الجمعيّة الامبراطورية الروسيّة الفلسطينية المسيحيّة الأورثوذكسيّة التي تمّ تأسيسها سنة ١٨٨٢. وكانت من أهمّ الواجبات التي واجهتها الجمعيّة الفلسطينيّة مساعدة الحجاج الرّوس المتوجهين إلى الأماكن المقدّسة المسيحيّة خارج روسيا، إلى جانب التنوير والتعليم عند السكان في المنطقة. ولقد أعطى الأكاديمي «يولان كراتشوفسكي» نشاط هذه المدارس الروسية في سورية ولبنان والتي وصل عددها إلى خمسين مدرسة في نهاية القرن التاسع عشر قيمةً عاليةً. كما أصبح المجموع الكلّي لتلاميذها أربعة آلاف، ولقد قيّمها «كراتشكوفسكي» تقييماً عالياً بقوله «كانت لهذه المدارس الصغيرة المجهّزة دائماً بالفقر أهميةٌ كبيرةٌ جداً . . . . .

وكانت المدارس الروسيّة في فلسطين وسوريّة حسب مبادئها التربويّة أعلى بالمقارنة بالمؤسسات الغنيّة التابعة للبعثات الأوروبيّة المختلفة. حيث لم تلق معرفة اللغة الروسيّة عند متخرجي هذه المدارس تطبيقاً واسعاً في حياتهم، ولكن انتماءهم إلى الثقافة الروسيّة والأدب الروسي ترك أثراً لاينُسى في قلوبهم خلال معظم حياتهم(١). وفي حديث لميخائيل نعيمة عن سنيّ دراسته في المدرسة نشر في «السبعين» أكّد ميخائيل نعيمة إعجابه بالطابع «المثالي» للمدرسة. لقدأثار إعجابه الترتيب في المدرسة وبرامجها

الدراسية إلى جانب ذلك كان تلاميذها قبل كلّ شيء يدرسون اللغة العربية والأدب العربي أما اللغة الروسية فقد درسوها في الدّرجة «الثالثة» بعد الجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعيّة.

وبذلك كانت تختلف المدارس الروسيّة عن مدارس البعثات الأوروبيّة التي تمّ التركيز فيها على دراسة اللغتين الإنكليزيّة والفرنسيّة.

إن هذه الملاحظة هي شهادة على الطابع الديموقراطي للنظام التعليمي تحت رعاية الجمعية الفلسطينية، كما هي شهادة على الإحترام العميق الذي عبّر عنه ممثلو الجمعية نحو الثقافة العربيّة القومية، ناكراً بالفعل للمبادىء الشوفينية الكبرى.

بعد تخرجه من المدرسة، دخل إلى المدرسة «المسكوبيّة» أي معهد المعلمين في الناصرة، والتي تمّ تأسيسها تحت رعاية الجمعية نفسها. وقد أشار الأكاديمي «كراتشوفسكي» بالنسبة إليها قال: «نفذت إلى هنا الوصايا العظيمة للبيروجوف(٢) وأوشينسكي(٣) مع مُثُلهما العليا(٤) وذلك من خلال معاهد التعليم للجمعية الفلسطينية».

والجدير بالذكر أنّ في هذه المرحلة من تاريخ روسيا كان يسافر نعيمة إلى الخارج للعمل.

في الناصرة قرأ ميخائيل نعيمة كثيراً عن الأدب الروسيّ وخاصةً قصصاً بقلم تشيخوف، تولستوي «الجريمة والعقاب» بقلم دوستويفسكي، وحسب اعترافه في «السبعين»: / كنت كلما ازددت معرفة باللغة الروسيّة ازداد إقبالي على المطالعة فيها»(٥).

وفي عام ١٩٠٤ توجه ميخائيل نعيمة إلى روسيا وخاصة أوكرانيا بصفته أحسن متخرجي المعهد في الناصرة لكي يستكمل التعليم الروحيّ «ببولتافا».

يعترف ميخائيل نعيمة في الرسالة التي بعث بها إلى الأكاديمي «كراتشكوفسكي» في عام ١٩٣١ أنه «في التعليم الروحي استغرق في

الأدب الروسي، وفتح أمامه عالماً جديداً مملوءاً بالعجائب (٦) إن إدراك «ميخائيل نعيمة» للثقافة الروسية كان عميقاً جداً، ويمكننا أن نستنتج هذا من الصفات التي وصف بها نفسه، عندما يسمّي أكبر الكتّاب الروس/ رجلاً تمّت تربيته على الفن الرقيق لبوشكين، ليرمنتوف، تورجينيف، على الضحك عبر الدموع لجوجول، على المثل الأدبية لبيلينسكي، وأخيراً على الإنسانية العالية لأقدر وأعمق وأكمل وأكثر نفوذ نفسانيّ بين الكتاب الروس- دوستويفسكي(٧).

وفي أقلّ من سنة أتقن «ميخائيل نعيمة» اللغة الروسيّة واستطاع أن يؤلف الشّعر بها. رغم أن خبرته الشعرية الأولى ترجع إلى أيام إقامته في الناصرة. وفي «بولتافا» أصبح نعيمة شاعراً، وألفّ قصائده الاولى باللغة الروسيّة. للأسف الشديد فُقدفي بولتافا ديوانه الشّعري الأول كما تقول الدكتورة «يرينا بيليك»، حيث كان مكتوباً بالخطّ الذي قدّمه ميخائيل نعيمة هديةً إلى «أفرامنكو» أي المعلم المحبوب له ونتيجة لذلك فَقَدْنا هذه الصفحة «الروسية» الأولى للأديب العربي العظيم إلى الأبد، لأنه لم يبق منها شيءٌ حتى في أرشيف / سجلاّت/ نعيمة نفسه. وعلى أيّة حال فإنّ ميلاد الأديب العربي الكبير ميخائيل نعيمة قد تحقق ضمن إطار التقليد الثقافي الأجنبي بالنسبة له.

من الممتع أن التعليم الروحّي المسيحي الأورثوذكسي الذي حصل عليه نعيمة في بولتافا لم ينته بطريق عادي، أيّ باستلام رتبة كنائسيّة، بل دفعه إلى نظرية تولستوي البعيدة بمبادئها الروحيّة والأخلاقيّة عن المفاهيم الأورثوذوكسيّة. ولقد كتب نعيمة إلى الأكاديمي كراتشوفسكي بهذا الصدد: / إنّ امتعاضي الداخلي العميق ضد الكنيسة، وعقائدهما الجامدة جعلني أبحث عن السبب وأن أجده في المؤلفات الأخيرة لتولستوي(٨).

لابدّ من الإشارة إلى أنّ «ميخائيل نعيمة» عقب «تولستوي» لم يكن ملحداً أبداً بل كان مؤمناً بالله من كل قواه الروحية كتب نعيمة في «السبعين»

إن المساعي الأخلاقية للكاتب الروسي العظيم أصبحت شيئاً رئيساً يثير الاهتمام له :

/ لقد استهواني تولستوي المفتش عن حقيقة نفسه وحقيقة العالم من حواليه أكثر مما استهواني مؤلف «الحرب والسلام» و«آنا كارنينا»(٩) .

وفي رأينا أنّ مثل هذا الموقف من تولستوي له طابع منتشر في البلدان الشرقيّة، عامة وفي البلدان العربية خاصةً ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ نظرية تولستوي تعتمد على النظريات الفلسفيّة والمذاهب الدينيّة الشرقيّة التي كان تولستوي يعرفها باتقان . والدليل على ذلك أن أول مؤلفات تولستوي المترجمة إلى اللغة العربيّة صارت : «نظرية تولستوي» أي / خلاصة مؤلفاته الفلسفيّة / ١٩٠١/ و«إنجيل تولستوي» / ١٩٠٤/ .

ماذا يرى نعيمة في نظريّة تولستوي قبل كل شيء؟

يجيب على هذا قائلاً : / ولأنّ تولستوي لم يهتد إلى نهج يسيّر عليه حياته، أفضل من النهج الذي رسمه السيد المسيح لتلاميذه وللعالم، ولأنه رأى الكنيسة قد ابتعدت عن ذلك النهج، لذلك ثار على الكنيسة أولاً . ثمّ ثار على نفسه ليصرفها عن كل نهج غير نهج الإنجيل(١٠) .

كمايعترف الكاتب اللبناني بقوله : / لم يبق لي من كل ما زودتني به الكنيسة إلاّ ذلك الألق الربّاني الذي كان يبهرني في شخصيّة الناصريّ، وذلك السمو الروحي الذي كنت أشتشفه من خلال تعاليمه فأتمنّى لو تكون لي المقدرةُ على السير بمقتضاها(١١) .

انطلاقاً من هذه الأفكار، اعتبر نعيمة حياة تولستوي . نضالاً دائماً مع نفسه، كما وصف نعيمة مغادرة تولستوي بيته في / ياسنيابوليانا تغلباً للكاتب العظيم على نفسه .

أليس هو الذي أنكر في النهاية العالم وأمجاده؟ أليس هو الذي خسر العالم ليربح نفسه بدلاً من أن يخسر نفسه ليربح العالم كما هو «أب الناس في كل مكان»؟(١٢) .

إن هذا الكلام لدليل واضح على أنّ نعيمة قد فهم شخصية تولستوي أكثر من أغلبيّة معاصريه الروس. هذا يمكّننا أنْ نحس بتأثير نظرية تولستوي على نثر نعيمة كله، وأهمّ شيء في ذلك، لأنّ ميخائيل نعيمة قد أخذ فكرة ما من أفكار تولستوي، بل لأنّه فتّش على حقيقة الوجود، ماشياً في نفس الاتجاه مع الأديب الروسي العظيم.

كثيرٌ من أفكار تولستوي تتماشى مع النقاط المنفردة للنظريات الفلسفيّة والدينيّة الشرقيّة، وبصورة خاصة مع الصوفيّة. ولكن لاتوجد لنا برهنة على أنّ ميخائيل نعيمة كان يهتم بالصّوفية أو نظريات ثانية قبل إقامته في مدينة بولتافا. وهذا ما يسمح لنا أن نعتبر تأثير أفكار تولستوي عليه مبكّراً بالمقارنة مع كل تأثير آخر.

وفي مؤلفات نعيمة نجد كثيراً من الأفكار المشتركة مع تولستوي مثلاً: فكرة التطور الأخلاقي للإنسان، وكمال الإنسان وضرورة تغلبه على نفسه، فكرة الشر الذي يوجد داخل الإنسان، وطريق الانتصار عليه، فكرة المحبة بصفتها قاعدة وجود البشرية الأساسيّة، التصور في الدين الحقيقي، النداء إلى الزهد، إلى الاكتفاء بالأطعمة النباتية وإلى آخره.

إنَّ الشيء الرئيس الذي يختلف به الأديبان هو أنّ تولستوي وضع هذه الأفكار في مقالاته الفلسفيّة، أمّا نعيمة فأدخلها الرواية والقصص الفلسفيّة.

/ مذكرات أرقش/ التي كتبها نعيمة في سنة ١٩١٧ ولكن لم ينشرها إلاّ في عام ١٩٤٩.

إنّ تطوّر الحوادث في الرواية ممتع جداً، وتركيب الرواية قريب إلى الرواية البوليسية. تتألف الرواية من القصة الافتتاحيّة، ومذكرات البطل تتمازج فيها ذكريات حول حياته السّابقة، كما تضمّ الرواية مقالاً من الجريدة الاسبانية ويمكن للقارىء أن يفهم منه التاريخ الحقيقي للبطل: هو قاتل ولكنّ دوافع جريمته غير عادية لأنه قتل زوجته خلال ليلتهما الأولى، وذلك لعدم ارتياحه للحب، أو كما كتب في الورقة التي أبقاها في مكان

جريمته : / ذبحت حبّي بيدي لأنّه فوق ما يتحمله جسدي، ودونُ ما تشتاقه روحي/ (١٣).

في مقدمة الرواية دخل القاص مع زميله المقهى العربي في نيويورك، ويسمع من صاحب المقهى حكاية الشاب الذي وصل إليه في يوم من الأيام لكي يشتغل عنده خادماً كان لقبه / أرقش/ ، بسبب آثار الجدريّ في وجهه، وكان يعرف القراءة والكتابة باللّغة العربية والإنكليزية والأسبانية، كان يختزن كتاب العهد الجديد، امتنع عن الطعام غير الطعام النباتي وكان يكتب مذكراته. هذه المعلومات الأوليّة تسمح لنا أن نستنتج بعض الاستنتاج حول بطل الرواية وهي: كان الأرقش من ممثليّ المهاجرين المثقفين. أمّا اكتفاؤه بالأطعمة النباتيّة فإنه يدلّ على وجودٍ عنده لبعض المبادىء في حياته. كل ذلك يشير إلى أن مثل هذا البطل لابدّ أنْ يكون قريباً للمؤلّف.

يركّز الأرقش في مذكراته على أمور الحياة والموت، العلاقات بين الناس، وعلى تصوّر الإنسان على أنّه جرمٌ صغير، (وفيه انطوى العالم الأكبر) واتصالاته مع الطبيعة ... ، الخير والشر، القيم الحقيقية وغير الحقيقية عند البشرية، ويعتبر نعيمة كل هذه الأمور قريبة لتصوّرات تولستوي. ويمكننا أن نضرب على سبيل المثال موقف نعيمة وتولستوي من المال وكيفية الحصول عليه.

إنّ صمت الأرقش الدائم، ساعده في تطوّر كيفياته الروحيّة. من جهة، ومن ناحية أخرى، يكون صمته سداً يحول بينه وبين عالم الناس المملوء بالكذب والزّيف، وسعيهم إلى الغنى وجمع المال. تعارضه في هذا الصّدد شخصية صاحب المقهى الذي كان يخترق القوانين الأخلاقيّة بسهولة في سعيه إلى المال. أثار الأرقش غضب صاحبه لما وجد في المقهى محفظةً بمبلغٍ كبير وخاتم ألماس، وأرجعها إلى من فقدها.

وصف هذا الحدث في مذكراته حيث يواجه الأرقش فكرة الفضاء الشّامل الذي يملكه الإنسان، وانتماء الإنسان إلى القيم الماديّة.

إنّ هذه الفكرة قريبة إلى أفكار تولستوي.

والتي عبّر عنها في مؤلفاته الكثيرة، وبينها مقال:

/ ماذا نعمل إذن؟/، الذي كتب فيه «توجد وسيلة هي من أكثر الوسائل وضوحاً وبساطةً وسهولةً، الشيء الوحيد الممكن لشفاء الإنسان من شرّه هو ألاّ يكون المال وسيلة لاستعباد الآخرين.

أصبحت نفس الفكرة فكرةً رئيسيةً في كتاب «مرداد» ألّفه نعيمة في عام ١٩٤٧ منطلقاً من أسطورة العهد القديم عن نوح في فلك نوح حسب نعيمة كان تسعة رجال، والتاسع هو مرداد، وهو الذي أنقذ الفلك من الطوفان. وحتى في أصل اسمه «مرداد» توجد فكرة الرّد أو الرجوع إلى الأرض، فكرة التقمّص. مرداد هو معلّم الإنسانيّة الإنسان، الكامل الذي يرجع إلى الأرض حسب إرادته، وخاصة خلال المراحل الصّعبة للبشرية عندما صار أغلبية النّاس ينسون وصايا نوح والأخلاق، ويسعون بكل قواهم إلى تراكم القيم الماديّة. كانت حكاية مرداد مسجّلة بقلم أحد تلاميذه في الكتاب الذي وصل إلى المؤلف بطريقة غير مفاجئة يعني لما أصبح مستحقاً لأخذه ونقله إلى العالم بصفته مؤلفاً- معلّماً أو مؤلفاً- نبياً. مثل هذا الموقف نحو الإبداع وعمل الكاتب، يتبوأ نعيمة مكانةً عاليةً بين كتاب الأدب الرّوسي الكبار.

في فكرة مرداد المطروحة في الرواية تتبلور فكرة الامتلاك الحقيقي، كما يعتبر الامتلاك المادي عبودية. ومن هنا تأتي السّلطة على الناس التي تقوم على الامتلاك المادي حيث يعتبرها نعيمة كغيب من غيوب المجتمع المفقود الذي يؤدي بالبشريّة إلى الحروب والكوارث. يعطي نعيمة في مذكرات الأرقش وكتاب «مرداد» تصوره عن المجتمع المثالي، وهو الوجود من غير الدولة، ومن غير السّلطة، ومن غير الحدود، فإنّ الناس يدركون اتصالاتهم الأخويّة ويحبون بعضهم.

كما لا توجد فيه حروب وجرائم وأزمات على أساس الاختلافات الدينية ولاالقوميّة، و يعتمد المجتمع المثالي على كمال كلّ واحدٍ يعيش فيه.

يقترب ميخائيل نعيمةمن فكرة كمال الإنسان لأول مرّة في مذكرات «الأرقش»، و مصدر هذه الفكرة عند تصوّر العهد الجديد حول «الجياع والعطاش البرّ» وحقيقة الوجود.

وكتب نعيمة / لو انكشفت لك كلّ أسرار الكون يا أرقش ما خلا سرّ الإرادة الخلاّقة، لبقيت ريشةً في شدق عاصفةٍ هوجاء، و أعشى في جوف ليلة ليلاء/ (١٤).

إنّ طريق إدراك الإرادة الخلاّقة حسب مفاهيم نعيمة يمر عبر إدراك الإنسان / أناه/ يعني روحه وقبله ونفسه.

كما كتب الأرقش في مذكراته : / من شاء أن يعرف الطبيعة . فليعرف نفسه أولاً . ومن شاء أن يكون سيّد الطبيعة ، فليكن سيّد نفسه/ (١٥).

إذاً معرفة الإنسان لنفسه أولاً ، وبعد ذلك معرفة الطبيعة والعالم. هذا هو الكمال الذي لابد للإنسان أن يسعى إليه.

يستعمل نعيمة في «مذكرات الأرقش» الوصف إنسان يسعى إلى الكمال عبارة / طالب الكمال/ ويفني طالب الكمال أنّ تنتصر / البهيمة/ في داخله . أمّا الأرقش فرغم كلّ شوقه إلى الكمال، فإنه لايتوصل إليه لأنه لم يستطع أن يدرك وحدة الوجود، وقتل إنسان يعني هناك قاتل، ومهما كانت دوافع القتل فليس للكمال والجريمة أيّة صلة بينهما ولذلك فشل الأرقش في نهاية القصّة.

طوّر نعيمة نفس الفكرة في كتاب «مرداد» وحتى في تكريس الكتاب إلى / التواقين للتغلّب/ . كلمة التغلّب يعني تغلّب أو انتصار الإنسان على نفسه، على كل عيوبه وأشواقه. يتحدث مرداد في خطاب من خطبه عن نوح والطوفان، ويؤكد أنّ لكل إنسان الطوفان في نفسه (١٦) ويفهم نعيمة الطوفان كطوفان الأشواق الذي يحتدم في نفس الإنسان، وللحق نقول إنّ هذا الطوفان هو الذي يودي بالإنسانية إلى الكارثة العالميّة، أيّ إلى هلاك الإنسان والإنسانية.

ويؤكد نعيمة اعتباراً من وحدة وجود العالم أنّ الإنسان ثمرة المجتمع وأنه لايمكن أن يحيا دون الآخرين فتوحّده مع الخير توحُّد للحياة. ومن هنا جاء المبدأ الرئيسي للحياة، وهو قانون المحبّة: / إنّ وحدة الله قانون الوجود الوحيد الذي اسمه الثاني: المحبّة. من يعرف هذا القانون ويعيش به يعيش الحياة/ (١٧).

كتب تولستوي عن ذلك: / يحبّ يعني يُعطي نفسه إلى الله يعمل مايريده الله، والله هو المحبة، أي يريد الخير للجميع/ (١٨).

من هنا نجد في مؤلفات الكاتبين، النداء لحب الإنسان كظاهرة للإرادة الإلهية. إذاً وجود الإنسان السليم والمنسجم يتعلق بنفسه ففي الأول لابدّ له أن يفهم ويعرف نفسه.

أمّا نفس الإنسان فهو مماثل لنفس الله والإنسان فإذا فهم نفسه يفهم الله يعنى حقيقة الوجود.

ويعطي في كتاب/ مرداد/ قواعد أساسية، يمكن للإنسان اعتماداً عليها أن يتوصل إلى الكمال وهي:

التجنب من الجدال لأن الحقيقة لاتحتاج إلى براهين وتبرّيء امتلاك قلب مملوء بالصفاء والصبّر لأنّ الصبّر هو القوة لما يعتمد على الإيمان، ولما لايعتمد على الإيمان هو شكّ، حبُّ لكل ما يكرهه الإنسان، لأن كل شيء تكرهه يكرهك، الأكتفاء بالأشياء، البسيطة(١٩).

هنا نشاهد خبرةً حياتيةً للإنسان الحكيم، وكأن ميخائيل نعيمة يحس وبطريقةٍ حادة عجز الروحيّة والإنسانيّة عن الامتلاك الماديّ وفي هذا السبيل وجد نعيمة نفسه معتمداً اعتماداً قوياً على ما جاء في نظرية تولستوي، وكذلك في المبادىء الإنسانيّة البارزة للثقافة الروسيّة.

المصادر

١- كراتشوفسكي أ. يو: المخطوطات العربية- المؤلفات المختارة موسكو، ليننغراد ١٩٥٥، م١، ص: ٥٥.

٢- بيروجوف: طبيب روسي معروف/ ١٨١٠ - ١٨٨١/ .

٣- أوشينسكي: معلم روسي شهير/ ١٨٢٤ - ١٨٧٠/ .

٤- كراتشوفسكي: نفس الكتاب ص: ٥٥.

٥- نعيمة ميخائيل، سبعون، م. ١ بيروت: ١٩٥٩، ص: ١٤١.

٦- كراتشوفسكي: المؤلفات المختارة م. ٣ موسكو- ليبينغراد ١٩٥٦، ص: ٢٢٦.

٧- نفس الكتاب ص: ٢٢٦.

٨- كراتشوفسكي، نفس الكتاب ص: ٢٢٦.

٩- نعيمة ميخائيل: سبعون ص: ٢٦٩.

١٠- نعيمة ميخائيل: سبعون ص: ٢٧٠.

١١- نفس الكتاب.

١٢- نفس الكتاب.

١٣- نعيمة ميخائيل: مذكرات أرقش، بيروت ١٩٦٢، ص: ١٠٥.

١٤- تولستوي، المولفات الكاملة م. ٣٥، موسكو ١٩٣٧، ص ٢٩٥.

١٥- نعيمة ميخائيل: مذكرات أرقش ص: ٩٢.

١٦- نفس الكتاب: ص٨٠.

١٧- نعيمة ميخائيل: كتاب مرداد، بيروت ١٩٥٩، ص: ٣١١.

١٨- نفس الكتاب: ص: ١٠٣.

١٩- تولستوي: احبّوا بعضكم بعضاً. المؤلفات الكاملة، م. ٣٧، موسكو: ١٩٥٦، ص٦١.

نافذة على العالم

ترجمة وإعداد:
كمال فوزي الشرابي

آداب

** الشاعر اليوناني جيورجيوس سيفيريس G. SÉFÉRIS، حامل جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٣، نبذة عن حياته وأعماله.

ولد الشاعر اليوناني جيورجيوس سيفيريس في مدينة أزمير عام ١٩٠٠ وتوفي في أثينا عام ١٩٧١. في عام ١٩٦٣ توج حصوله على جائزة نوبل للآداب

---

* كمال فوزي الشرابي: شاعر من سورية، يعمل في مجال الترجمة، من مؤسسي مجلة القيثارة، من دواوينه: «قبل لانتهي»، «الحرية والبنادق».

هامة بلاده اليونان للمرة الأولى، وقد أشارت حيثيات هذه الجائزة إلى أن سيفيريس يعتبر أشهر كاتب بين جميع مايسمى «جيل الثلاثينات».

حين توفي هذا الشاعر الكبير سارت في جنازته جماهير غفيرة لم تلبث أن تحولت جموعها بعد دفنه إلى أول تظاهرة ضد «ديكتاتورية الكولونيلات في ٢١ نيسان».

عاش سيفيريس طفولته في منتهى السعادة بمدينة أزمير قبل أن تقع «كارثة التهجير» بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى واضطرار أسرته الى الانتقال والاستقرار نهائياً في مدينة أثينا. وكان هذا الانتقال أول رحلة له في حياته الملأى بالرحلات، وقد أشار إلى ذلك في إحدى قصائده التي أصبحت أغنية على شفاه الشعب: «أينما انتقل تظل اليونان جرحي».

أنهى شاعرنا دراسته الثانوية بتألق، وانتقل في الثامنة عشرة من عمره إلى باريس ليدرس فيها الحقوق. ويصفه لنا كاتز يماليس، بطل رواية (جبار الماروسي) لهنري ميلر بأنه كان في تلك الحقبة يحبس نفسه في غرفته ويتلو القصائد لساعات طويلة، وستؤثر هذه المعرفة التي اكتسبها من قراءة الشعر الحديث في أعماله حتى أن النقاد سيذهبون إلى الكلام بصدده على «الشعر الصافي» أو إلى مقارنة نصوصه الأولى بنصوص بول ڤاليري وجول لافورغ ورامبو.

وكان مايزال بباريس حين سمع بالحريق الهائل الذي شب في مسقط رأسه وبمصير اللاجئين البائس، وهو حدث أثر في نفسه أكثر من أي حدث آخر كما يقول. وبعد أن حصل على الدبلوم في الحقوق في الرابعة والعشرين من عمره أقام عاماً في انكلترا قبل أن يعين في السلك الدبلوماسي لبلاده.

تدرج سيفيريس في المناصب حتى أصبح سفيراً في لندن حوالي الحقبة الأخيرة من حياته. وقد تنقل في مدن وعواصم عديدة منها الاسكندرية والقاهرة وأنقرة وبيروت... على أن هذه الالتزامات المتنوعة قد سمحت

له، على الرغم من استثثارها بمعظم وقته كشاعر، بأن يحس أن في اهابه يونانياً آخر يفوق أي يوناني عادي باعتباره شاهداً صادقاً وعطوفاً على التجارب المؤلمة التي مرت بها بلاده.

بقي سيفيريس طوال حياته السياسية بعيداً عن روح التظاهرات والمطالب الاعتباطية العاجلة التي لاجدوى منها. وفي عام ١٩٣١ قرر أن يصدر أول مجموعة شعرية له بعنوان (منعطف أو نقطة تحول)، وهي تؤرخ لحقبة من الأدب اليوناني بالمقارنة مع التقليدات الابتداعية الشاحبة للشاعر كاريوتاكيس، ومع المقطوعات التشاؤمية للشاعر كافافيس. واهتم النقاد كثيراً بهذه المجموعة الأولى لما فيها من تجديد لغوي آسر، وموسيقا طريفة، وقواف مكتملة. وهي تنقسم إلى سلسلة من القصائد الموجزة ذات المنحى الرمزي والمادة المكثفة. ولحن الموسيقار اليوناني تيودوراكيس إحدى هذه القصائد وهي بعنوان «رفض» فأصبحت أغنية يتداولها الناس لعدة أجيال. ونذكر أيضاً من هذه المجموعة قصيدة «خطاب العشق» وهي تنبض بالأحلام وتعبر عن عشق قديم وعن يأس من الزمن المفقود والحياة العابرة.

في هذه المجموعة الشعرية (منعطف أو نقطة تحول) تتبلور الحاجة إلى حياة حقيقية ويتألق الحنين إلى «الفردوس الأخضر»، وهل هناك فردوس أخضر آخر غير فردوس الحب؟ يقول: «أين الحب الذي يقطع الزمن قطعتين بضربة واحدة ويحجره؟». ومع أن الشاعر يُبهَرُ بالحب إلا أنه ييأس منه لشعوره بالفناء الذي لامفر منه، وذلك في أكثر قصائد الديوان توهجاً وخصوصاً في قصيدته «حديث عن الحب».

وتكشف هذه المجموعة الشعرية عن رفض سيفيريس لغزارة الإنتاج العادي، كما تكشف عن تمسكه بالبنية المتراصة في كل قصيدة من قصائده، وعن اهتمامه الدائم بطريقة التعبير ضمن إطار من التجديد والإبتكار. ويفسر هذا كله تأثير أعماله القليلة، بأشكالها المكتملة، في معاصريه. وكان إلى ذلك ناقداً جيداً، ومترجماً ناجحاً أدخل إلى اليونان أعمال كبار الشعراء

العالمين كڤاليري، وإليوت - الذي اكتشفه عام ١٩٣١ وترجمه ترجمة شبه كاملة - وعزراباوند، وييتس، وهنري ميشو، وبول ايلوار وسواهم. . . ووقف قسماً هاماً من أعماله على الوجوه الهيلينية الكبيرة - كالقوس، كاڤافيس، پالاماس وخصوصاً ماكريانيس، البطل الأمي للمقاومة الذي بقي الشاعر يعتبره نموذجاً يقتدى به، وذلك من دون أن ينقطع عن اكتساب الخبرة النظرية والعملية من قراءة النصوص الكبرى للأقدمين الذين كان مطلعاً عليهم تمام الاطلاع. يقول: «في كل صباح اقرأ مئة بيت من ملحمة الألياذة لهوميروس»، الأمر الذي يذكرنا قليلاً بالشاعر الفرنسي بودلير في (كراسات يومياته). وجُمعت جميع هذه النصوص والمحاضرات المتعلقة بمشكلات اللغة والخلق الشعري عام ١٩٤٤ في مؤلف عنوانه (دراسات وهي جديرة بالقراءة في كل حين.

في عام ١٩٣٢ نشر على نفقته الخاصة (خزان الماء) وهي قصيدة فريدة من نوعها تتألف من مئة بيت أملاها احساس شبه فلسفي بالموت، ويتخللها عدد كبير من الصور المعتمة كصورة ذلك الخزان المرنان» بمائه الراقد، وعزلته عن الجميع، ورنينه الذي لاطائل وراءه. في هذه القصيدة يصبح تشاؤم الشاعر تأملاً في بطلان الأشياء وطريقاً مسدودة. يقول: «نحن نموت، وآلهتنا أيضاً تموت». وهكذا بلغ سيفيريس بكتابيه المذكورين كمالاً من الصعب تخطيه، وتبع ذلك صمت ثلاث سنوات حتى صدور كتابه (الأسطورة - التاريخ أو اسطورة التاريخ) عام ١٩٣٥، ويشير إلى اتجاه جديد في التفكير، ويبشر بالشعر الجديد ببلاد اليونان.

في تلك السنة ذاتها أسهم في مجلة (الآداب الجديدة) وكانت تضم أهم ممثلي الموجة الشعرية الصاعدة. وتحرر سيفيريس، اعتباراً من هذه الحقبة من القافية وتبنى الشعر الحر، ودشن غنائية خاصة بالبلاد الهيلينية، زخرفها بنصوص استعارها من قدماء الأغارقة، وذلك من دون أن ينفصل أبداً عن آفاق اليونان الأدبية المحدثة.

في قصائد مجموعته (الاسطورة - التاريخ لعام ١٩٣٥، وعددها أربع وعشرون قصيدة، ركز الشاعر، مستوحياً طريقة الأغاني الشعبية أحياناً، على أكثر العناصر قرباً إلى قلبه وهي: «الضوء الأثيني أو اليوناني»، البحر، سكان السواحل، الحب، الألم، الانتظار... وأجرى موازنة رمزية تهم يونانيي مابعد الحرب، وقد سُلبوا كل شيء، واقتُلعوا من جذورهم، وأصبحوايتغذون «بخبز المنفى المر». في عام ١٩٤٠، وقبل أن تدخل اليونان الحرب نشر كتابه (دفتر الدراسات) وفيه، على الرغم من تواضع عنوانه، قصائدها بقيت غير منشورة من أيام الشباب، كالقصائد التي بناها حول الشخصية الخيالية لـ«سترايتس البحار» الناطق باسمه والمعبر عن مقاومة المحتلين.

في عام ١٩٤١ رافق الشاعر الحكومة اليونانية في لجوئها الى مصر ومعاناتها من السنوات السود، والابتعاد عن أرض الوطن، والشعور بالسقوط والمرارة، وكلها أشياء غذت قصائد ديوانه (مذكرات بحرية أولى)، ثم ديوانه (مذكرات بحرية ثانية)، مابين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٥. وقد نشر الكتاب الثاني في الاسكندرية عام ١٩٤٤، وفيه قصائد مؤثرة تتسم في معظم الأحيان بالسخرية، حيث نقع على صدى الحرب، والآلام التي تسببها، وحقارة أولئك الذين لايهمهم إلا أن يستفيدوا من دماء الآخرين. وقصائد هذين الديوانين انعكاسات لظلام الطريق المسدود الذي كان يحس هو نفسه به «كشاعر يعيش في الفراغ» كما يعيش فيه مواطنوه أيضاً. يقول: «يالها من مهمة قاسية! لم يعد الأحياء يكفونني... / أنا بحاجة إلى سؤال الموتى لكي أستطيع التقدم في طريق الحياة...». ويقول في مكان آخر: «غابة من الأصدقاء القتلى: كانوا يشكلون عقل البلاد».

وينتقل سيفيريس بأسى نحو الماضي، فيبني قصيدة طويلة عن ملك رمزي اختفى هو «ملك أسينه» الذي ورد اسمه بشكل عابر في الياذة هوميروس، مؤكداً أنه إذا كان يتكلم مجازاً «فلأن لغة المجاز هي أعذب على السمع من سواها».

ولدى تحرير اليونان من الاحتلال النازي، كان شاهداً على «كانون الأول الأحمر» الذي كان من شأنه اشعال نيران الحرب الأهلية في البلاد. وبعد سنتين أصدر كتابه (السُّماناة، ١٩٤٧) وهو قصيدة طويلة أوحاها إليه وعيه «للمرارة الخالدة» التي يستمر فيها الوطن، وقد كتبها على طريقة تي. إس. اليوت حيث تمتزج المرجعيات القديمة والحديثة، وحيث يلتقي الماضي والحاضر في الاحساس ذاته بالأبدية، وتناوب النور والظلمة في الانطلاقة الجوهرية للحياة.

في هذه القصيدة (السماناة)، وهو اسم كان يطلق على مركب غرق في أثناء الحرب العالمية الثانية، يرى الشاعر، في جميعة، تخيلاته كافة، ويُفسر كمال رؤيته للعالم. ويشير إلى الموت في نهاية الكتاب، إلا أنه يتحدث في بدايته عن الحب الذي يطفو كشميلة أضداد في «الضوء الملائكي الأسود». يقول: «غني، يالنطيفونا الصغيرة، غني/ . . . لاأتكلم عن الماضي بل أتكلم عن الحب. / زيني شعرك بأسلاك الشمس/ يالأيتها الفتاة الغامضة/ فإن قلب برج العقرب قد أغفى/ وغادر الطاغية قلب الإنسان». ويدعو إلى الحب ولو لأُويقات قصار: «فإن من لم يسبق له أن أحب فلسوف يحب/ في الضوء». وبعد، تعود من جديد، رؤية النهاية المحتومة: «عيناك ستفرغان من ضوء النهار/ مثلما تصمت كلها معاً وفجأة زيزان الحصاد».

بعد ذلك جاءت إيحاءات السنين التي عاشها في بعض بلدان البحر الأبيض المتوسط، فمن اقامته بقبرص مثلاً عاد بكتاب عنوانه (مذكرات بحرية ثالثة) عام ١٩٥٥ وقد ألهمته إياه المأساة التي تعيشها هذه الجزيرة. يقول الشاعر بصددها: «إن الأعجوبة مازالت تفعل». ويمجد أناس هذه الجزيرة وأساطيرها وتاريخها الفني العريق حتى معاركها مع المستعمر البريطاني. وفي هذه (المذكرات البحرية الثالثة) يظهر من جديد الصراع الأبدي بين الإنسان والموت، ويتألق الصوت الضوئي الذي يطفو من أعماق التاريخ مثل أناديومين ANADYOMENE. يقول: «إن النشور قادم/

وسيشع ندى الصباح كما تتألق الأشجار في الربيع/ وسيزهو البحر من جديد . . . إذ ستصعد أفروديت من الموج . . . / بلى، نحن هذه البذرة التي تموت لتبعثَ من جديد . . . ».

في عام ١٩٥٧ عين سفيراً في لندن حيث بقي خمس سنوات، ولكن نشاطه في هذه الحقبة كان مقتصراً على المحاضرات والترجمات بينما يزداد انتشار أعماله في الخارج لتثير بضع دراسات وتحصل على بضع جوائز.

حين أنهى عمله الديبلوماسي عام ١٩٦٢ عاد إلى أثينا ليستقر فيها نهائياً. وأصدر عام ١٩٦٦ (ثلاث قصائد سرية)، وتعتبر وصيته الشعرية خلال حياته كلها. هنا يعيد الشاعر دمج جميع عناصر شعره: الضوء قبل كل شيء ولكن على أبعاد صوفية. إنه لحوار مع الموت أيضاً. يقول: «الآن تتهيأ الأرواح لتنفصل عن الأجساد/ هي ظمأى ولا تجد ماء في أي مكان/ إنها لتلتصق هنا وهناك عن طريق المصادفة/ عصافير علقت في الدبق».

وانقطع سيفيريس بعد ذلك عن نشر أي عمل له لئلا يصطدم بالديكتاتورية العسكرية البغيضة التي أطاحت بديمقراطية البلاد عام ١٩٦٩، مع أنه هاجمها في تصريحاته - فيما بعد - بآذار ١٩٧٩، وتجرأ في هذا العام ذاته على نشر قصيدة طويلة تنضح بالأسى والمرارة وترمز إلى الوضع الرديء في بلاده آنذاك. وقبل موته بقليل نشر قصيدة قصيرة تشير إلى مقتل أحد الطغاة بعد أن أسقط لها من التاريخ جواً قديماً قاتماً . . .

وكانت لوفاته عام ١٩٧١ رنة أسى عميق وصدمة ألم بليغ في جماهير الشعب اليوناني بأسره. ولقد رحل هذا الشاعر الكبير من دون أن يرى عودة الديمقراطية الحقيقية إلى اليونان، هو الذي كان أفضل من عبر عن «مأساة الوطن المغرقة في القدم»، والذي عرف كيف يوفق في أعماله بشكل كوني بين تأثير الثقافتين والعقليتين الشرقية والغربية. وخلف لنا (يوميات) طبعت على التوالي خلال عدة سنوات، وهي تضيء أعماله وتؤكدها بما فيها من صدق وإخلاص وإحساس عميق بالحياة.

أما فيما يتعلق بأسلوب هذا الشاعر ولغته فهو يستعمل أسلوباً محكماً ولغة يونانية شعبية محدثة أدخل عليها تحسينات كثيرة. لغة تدهش ببساطتها ومتانتها وصفائها. وللكلمة لديه حب المحسوس، والحذر مما هو غير شعري، وعلاقته بها علاقة شهوية حسية. لازخارف ولاتزاويق. يقول: «لا أرجو إلا أن أتحدث ببساطة، وأن تُمنح هذه النعمةُ لي. غناؤنا، لقد أثقلناه بالكثير من الموسيقا حتى غاص شيئاً فشيئاً. ولقد حمّلنا فننا أكثر مما يطيق حتى غرق وجهه في الزخرف والتزويق. حان الوقت لنقول هذه الكلمات التي يجب أن نقولها: غداً، أرواحنا سترفع أشرعتها وتمضي».

ويبلغ التواضع بهذا الشاعر الكبير حد القول: «الست فيلسوفاً، ولا أهتم بالأفكار المجردة. أصغي إلى ماتقوله لي أشياء هذا العالم. انظر كيف تمتزج هذه الأشياء بروحي وجسدي وأعبر عنها...».

أقوال بعض الأدباء فيه:

قال عنه الأديب اليوناني لينوس پوليتيس: «لم يكن سيفيريس شاعراً سهلاً، ولقد كبرت شهرته ببطء وجهد جهيد. على أنه ليس غامضاً. واللغة التي يحدثنا بها صعبة لكن صوته في هذه اللغة يظل صافياً ومباشراً. ويشعر المرء بأنه رفع الى مرتبة التعبير الكامل مالايمكن أن يقال بشكل آخر».

وقال عنه الشاعر الفرنسي المعروف إيڤ بونفوا: «بقدر ماتألم سيفيريس لوجوده اليوناني، تألم أيضاً لوجوده الكوني. وليست قصائده قصائد يونانية تتعلق بالصور وبالتاريخ الاغريقي إلا لأنه استطاع أن يضم فيها ماهو جدير بالقول على بنية ماهو كائن».

وقال عنه الكاتب اليوناني جورج سپيريد اكي: «ان صفاءه وانتقاءه للأفكار وتجسيدها، وإعادة نظمها من جديد في أثناء مسيرته الروحية وخصوصاً ماتعلق من هذه الأفكار بجوهر المشهد الاغريقي، لتكفي تماماً كي تؤمن لأعماله مكاناً مختاراً في أحضان أكثر الإبداعات قيمة ببلاد الأغارقة على مر العصور».

وقال عنه الكاتب كريستيان جيو ديتشيلي : «تبدو مسيرة سيفيريس كأنها مسيرة انسان مسرنم - من يمشي في نومه - لو كان هناك مسرنمون يتقدمون في أضواء الشمس الساطعة وقد أحرق عيونهم النور» .

وجاء عنه في معجم لاروس الفرنسي : «إنه جمع مابين الأساطير القديمة ومشكلات العالم الراهن» .

•• (مفرقعة الصغار ضد قنبلة الكبار)(*) مقال للكاتب الامريكي الكبير هنري ميلر بمناسبة امتلاك القنبلة الذرية وخطر امتلاكها والإصرار على إجراء التجارب النووية .

ما أتمنى أن أفعله هنا هو أن أعبر بلا ترتيب عن أفكاري ، وخواطري ، وعما أجترُّه ، وعما أردُّ به التهمَ عني . وليس هدفي تغيير مجرى الأشياء ، كما كانوا يقولون في الماضي . ولاأعتقد أن أي انسان أو أية مؤسسة قادرة على إصلاح العالم . ويكفي أن ننظر إلى هذا العالم من مكان وافر الارتفاع لكي لانشعر بالحاجة إلى إصلاحه . وبإمكان المفكر العاقل أن يقول مع سيلين CÉLINE : «أبولُ على هذا كله من علو شاهق» . ويبقى الصدِّيق لدى المسلمين والمعلم الروحي لدى السنسكريتيين هادئي الأعصاب من دون أن يتأثرا بهذا المشهد . ووحدهم ذوو الشطحات - حسيديو[1] التقاليد اليهودية - سيرقصون ويغنون فرحاً ودائماً لحظة يغرق العالم في العدم . ولن يرفض القديسون أبداً أن يمارسوا وصالاً ، وصالاً طيباً ومقدساً ، وذلك لأنهم مُحصَّنون وغير قابلين للفساد حتى فيما وراء الكآبة واليأس . ولا أدري لماذا جعلت الكنيسة من الكآبة خطيئة كبرى؟ وذلك على المستوى ذاته للفتور الروحي؟

لماذا المفرقعة؟ لأنها تمثل مبدأ المتعة . ولعلها كانت تصلح أيضاً - لدى الصينيين - لطرد العفاريت ، ولكنها لم تصلح قط ، كالقنبلة الذرية ، لقتل الكائنات البشرية والحيوانات والنباتات . ولقد كتب إريك غوتكيند ERICH

GUTKIND – وهو نبي طواه النسيان – كتاباً عنوانه (اختر حياتك). ولدينا الخيار ظاهرياً بين الحياة والموت. ولقد اخترنا الموت – أو بتعبير أفضل اخترنا الإبادة الشاملة أو الفناء الشامل.

وإننا لنستطيع أن نفجر هذا الموت في البحار أو في الصحارى أو في الفضاء. ألسنا «أكلة الموت»؟

أعلن معظم الكتاب المعروفين في القرن التاسع عشر وهم وليم بليك، ورامبو، وبلافاتسكي BLAVATSKY، وغوردياييڤ، ونيتشه، موت الإنسان المتحضر. وحتى اصطلاح «المتحضر» أُعيد النظر فيه. أن يكون الإنسان متحضراً يعني أن يقدم على القتل، وعلى تسميم نفسه بالكحول والمخدرات، وعلى ممارسة البغاء ورعايته، وعلى خلق فوارق واسعة ورهيبة بين الثروات. ومن دواعي السخرية أن امريكا، وهي أرض الثراء والوفرة، تأوي عدداً كبيراً جداً من الأفراد الذين يعيشون في بؤس يرغم الكثيرين منهم على أن يتناولوا أغذية ترفض حتى الكلاب والقطط تناولها.

لاجديد فيما أقوله، وأنا أدرك ذلك. وإنما أحببت فقط أن أذكِّر بهذه الوقائع المعروفة على أملٍ لاطائل وراءه بأن الوقت لم يتأخر، وإننا نحن، وأقصد «بنحن» مجموع العالم المتحضر، نستطيع أن نفتح عيني هذا العالم وأن نوقف مسيرة تدميره الذاتي. وهاقد مرت قرون والإنسان يسبح في برازه وقيئه مع شيء من البول الحامض من حصان ما أيضاً. واليوم حتى الشعب الميال إلى الروحانية وأقصد به شعب الهند قد اختار أن يصنع القنبلة الذرية أيضاً. وهذا الشعب يدافع عن السلام، ولكن من يستطيع تصديقه؟ والدولتان العملاقتان روسيا وأمريكا لاتخفيان تهافتهما على تكديس الأسلحة وبيعها لتدمِّر بها الأمم والشعوب بعضها بعضاً. ونحن ننتظر بقلوب واجفة ماسيصنعه الصينيون بعد أن امتلكوا القنبلة الذرية.

إن أبسط تعريف يمكنني أن أعثر عليه لينطبق على سلوك هذه الحضارة المدعية المنافقة هو . . . الجنون. ومنذ مدة، وبناءً على توصية من صديقي

لورنس داريل، قرأت كتاباً خارقاً للكاتب الفرنسي جاك لاكاريير عنوانه (الغنوصيون)[٢]. وقد كشف فيه أنه كان يوجد، قبل مجيء المسيح، واليوم أيضاً في بعض المناطق المعتمة من العالم، فئة أو طائفة من الناس يقوم اعتقادها الأساسي على أن كوكب الأرض إنما هو خطأ كوني. واستغربت، وأنا أرى الفظائع والمجازر والأهوال ترتكب كل يوم في شتى أنحاء المعمورة، كيف لاتجد هذه الطائفة المسالمة من يصغي إلى تعاليمها من جديد. ومن أية زاوية نظرت إلى النشاط البشري فإنني اعترف أن كل شيء في هذا النشاط تفوح منه نتانة الجنون... ولعل الشباب الذين لايعرفون وجهتهم في هذه الحياة سيستمدون بعض العزاء والقوة بقراءتهم هذا الكتاب. على أني أنبههم، كما أنبه جميع القراء، إلى أن هذا الكتاب كتاب انقلابي عميق، يدعو إلى جميع أنواع الممارسات المناوئة للمجتمع، والأخلاق، والدين في سبيل حلول أفضل...

ولكي نعود إلى موضوع التفاوت الرهيب واللاانساني بين الثروات، والخوف من المجاعات وتكاثر السكان، نتساءل لماذا لم يقترح أي شخص حتى الآن أن تحسن طريقة استعمال الطروح البشرية التي يكتفون في الوقت الحاضر بدفنها أو حرقها. كان جوناثان سويفت قد أوصى في عصره بأن يؤكل الأطفال المولودون حديثاً. وهنا لابد من الإشارة إلى أنه مامن عمل أدبي تحدث عن طرح. ويرجح أن لحم الطروح هو أطرى وألذ من سواه من اللحوم. أما فيما يتعلق بالمسألة اللاأخلاقية التي لن تتوانى الكنيسة عن إثارتها، فإننا نتساءل هل أكل الطروح - للبقاء على قيد الحياة -هو أسوأ من دفنها أو حرقها؟ ولعل رجل دين ذا قلب كبير ومحباً للإنسانية، ومن أية ملة كان، يمنح بركته هذا الطعام فتغدو فكرة تناوله أكثر قبولاً.

هناك إجراء جذري يجب أن يفرض نفسه في هذا العالم الجائع، أو أننا سنضطر عما قريب إلى أن يأكل بعضنا البعض الآخر. وإذا كان أكلة لحوم البشر يعيشون بهذه الطريقة، فلم لانطبقها نحن؟ ولا نستغربنّ بهذه

المناسبة أن تعيش الشعوب البدائية مثلنا تماماً، مع أنها حُرِمت من كلٍّ مايمكن أن يقدمه لها العلم. وأفكر خصوصاً بهؤلاء البشر السمر الذين يعيشون في صحراء كاليهاري KALIHARI، وهم أقدم سكان افريقيا، وماكتبه عنهم لورنس ڤان دير پوست من أشياء باهرة. ويشكل هؤلاء البشر شعباً منعزلاً منطوياً على ذاته يعيش في أدنى شروط البقاء. وهذا الشعب مضطر إلى ممارسة الصيد لكي يعيش. وغالباً مايُجرح الحيوان ويهرب، فينطلقون خلفه ويلاحقونه إلى مسافة خمسة وثلاثين كيلو متراً أو أكثر. وبعد أن يقتلوا فريستهم يشعلون ناراً لشوائها. ثم يأكلون منها حتى تتخم بطونهم، ثم يأخذون في الرقص والغناء ماتبقى من الليل. إنهم يجهلون كل شيء عن الڤيتامينات والحريرات والكوليسترول والسكري والسرطان وسوى ذلك من الأمراض والآفات. . . وهم لايملكون شيئاً، ويتنقلون بصفة دائمة. إنهم على وجه العموم سعداء! فما رأيكم، ياأيها المتحضرون الذين يشيد بكم العالم وتشيدون بأنفسكم؟ أروني وجوهكم السعيدة والخالية من الهموم والتجاعيد! إن أكبر عدو للشعب الكاليهاري إنما هو الجوع لا الجراثيم. أما الأعداء الذين نخشاهم نحن والذين يفتكون بنا فهم لامرئيون، يتعذر اكتشافهم أحياناً، حتى أن بعضهم لا اسم له. لقد وضع الإنسان المتحضر نفسه في ملجأ يقيه من كل شيء إلا من نزواته الخاصة المتهافتة على الشر والقتل والتدمير. . .

حين أرسلنا رائدي الفضاء إلى القمر ليجلبا لنا بضعة أحجار لاتقدر بثمن، لم نفكر قط - كما فعل پونس دوليون في بحثه عن ينبوع الشباب FONTAINE DE JOUVENCE أن نجعلهما يجلبان معهما حجراً من بلمسه يتحلى بالصدق والغيرية والعدالة - كما يقال في التعبير الفرنسي الدارج - وبذلك يؤمنان لنا السلام والصحة والفرح والنجاح. وإننا لنبحث إلى الأبد عن التقدم ولكننا ننسى الثمن الذي يتطلبه منا هذا التقدم. وحين جعل رائدُ فضاء كرةَ غولف تقفز على سطح القمر، هل كان عمله ينتمي إلى الشعر السامي أم إلى الغباء؟

مازلنا بعيدين عن العثور في محفوظاتنا على «رسالة إلى جلالته» كتلك الرسالة التي كتبها كابيثا دي باقه CAPEZA DE VACA إلى ملك اسبانيا. وإنني لأشير هنا إلى كتاب هانيل لونغ HANIEL LONG. ولا أستطيع أن أمتنع عن التوصية بقراءته من كل قلبي. ومن المؤكد أن المغامرات الموصوفة في هذا الكتاب - مادام المؤلف نفسه قد استعمل كلمة مغامرة - لاتجد نظيرتها في أي عمل قرأته. وحتى في هذا الزمن الرديء الفاجع المملوء بالجنون والفساد، ستمارس هذه المغامرات قدرتها على ادخال البهجة إلى القلوب وإلهام أكثر الناس بؤساً وتعاسة بيننا.

وبين الطروح المشوية المهيأة لبلاد الهند وافريقيا ولسكان الاپالاش شمالي أمريكا وبعض المناطق المجهولة، وبين المغامرات العجائبية لكابيثا دي باقه، يعود إلى ذاكرتي مشهد مثير وغير عادي من (ساتيريكون)(٣) فيليني، حيث يترك غني لأصدقائه ثروته مقابل أن يلتهموا جثته، وقد أقبلوا على ذلك بشهية ومتعة وبلاتوان ماإن اطلعوا على شروط وصيته.

وإنني لمتأكد أنهم كانوا سيقدمون باللهفة ذاتها وبالسرعة ذاتها وضمن الشروط ذاتها على شرب عدة أوعية من الماء القذر أو على التهام برازهم الخاص. ولم ينتظر الفقر ولا الفساد حدوث مأساة و ترغيت. وكتاب (حياة الباباوات) إنما هو سلسلة من المعايب والمفاسد وضروب التفنن في التعذيب والأعمال المنافية للأخلاق، وقد اقترفها جميعاً الأباء القديسون أنفسهم.

وهنا اذكر أنني حين استبدت بي الرغبة لجعل أفكاري تتنفس في الهواء الطلق، قلت لنفسي: «إذا نشرت صحيفة النيو يورك تايمس نصي، فهذا أمر حسن!». ولكن النيويورك تايمس لاترفض فقط توجيه أي نقد إلى الباباوات، بل هي ترفض أيضاً نشر أي كلمة تمت بصلة إلى الأعضاء الجنسية لدى المرأة أو إلى ممارسة الجماع، وحتى كلمة قذر فإنها تكتفي بكتابة الحرف الأول منها «ق . . . .». لماذا؟ لأنها صحيفة عائلية (كذا). وبمواجهة بضع

كلمات قد تكون نابية لدى البعض، تعتبر أكبر صحيفة يومية في العالم نفسها أنها ليست سوى «صحيفة عائلية»!!.

وبالمناسبة، ليس أسوأ من هذا الموقف سوى الموقف المغرق في البيوريتانية الذي تتخذه المجلات والصحف البريطانية التي لاتتجرأ أبداً على ذكر الأعضاء الجنسية لدى المرأة ومترادفاتها أو مايرمز إليها. وإني لمتأكد من أنه مامن كاتب بريطاني كتب عني مقالاً ينصفني إنْ من الناحية الجنسية أو من ناحية دعوتي إلى التحرر الانساني أو حتى من ناحية أبحاثي في علم النجوم...

والآن، ولكي أتنفس، دعوني أذكر سطراً من رواية (أسرار) لكنوت هامسون [٤]: «طاب يومك، يافروكن، هل من المسموح لمس إحدى تلالك؟»

أو اسألوا أنفسكم للحظات لماذا قارئ اليوم يفضل غي دي كار [٥] على دوستو يفسكي، ودوريس ليسنغ على السيدة موراساكي شيكيبو وروايتها حكاية غنجي [٦] أو اعتبروا وقدّروا الفارق بين الأنواع الرياضية: لاعب كرة القدم البطل، والغالي الثمن جداً، يصبح عاجزاً في الثلاثين من عمره بالمقارنة مع المصارع في روما القديمة الذي يحارب في الحلبة انساناً أو حيواناً حتى الموت: موته أو موت خصمه. أو لماذا الأطفال، بدءاً من سن الثامنة، يجدون متعة في قتل الشيوخ والمقعدين مقابل مبالغ ضئيلة من المال - أو بكل بساطة أن القصة ليست سوى قصة هزل ومزاح.

هناك سؤال آخر: كيف حدث أن أكثر الروايات عاطفية وإثارة في الأدب الانكليزي وهي (مرتفعات ويذرنغ) قد كتبتها إحدى الأديبات العذارى الثلاث من آل برونتي؟

أو: كيف ولدت الرقابة؟ إنها لقصة غريبة. فمنذ أكثر من مئة سنة بقليل فوجئ لورد انكليزي ثمل وهو يبول إلى الشارع من شرفته. لم يتلقَّ غرامة كبيرة فحسب بل صدر بسببه قانونٌ حوَّل مثل هذه التصرفات إلى

جنح حقيقية وجعل نشر الصور والمقالات الإباحية والماجنة ونقد الأوضاع الرديئة والحكام الفاسدين في الصحف وسواها - جعل كل ذلك خاضعاً للغرامة أو السجن!

(هنا أترك فراغاً مخصصاً للدعايات)

حين رأيت فيلم (ساتيريكون) للمخرج الايطالي الكبير فيليني اعتقدت أنني رأيت كل شيء في السينما. بيد أنني اكتشفت فيما بعد فيلم (ذئب السهوب). ويستند هذا الفيلم إلى رواية هرمان هيسِّه التي تحمل العنوان ذاته. ويذهب هذا الفيلم في رأيي إلى أبعد مما يذهب إليه فيلم (ساتيريكون) إذ يُحكَمُ في النهاية على ذئب السهوب بالحياة الأبدية. وأين؟ - هنا على هذا الكوكب المجنون. ياله من عقاب! وفي أثناء هذه الحياة الأبدية عليه أن يتعلم الضحك، وألاّ يأخذ شيئاً مأخذ الجد لا فيما يتعلق به هو ولا فيما يتعلق ببقية البشر. ألم يقل رابليه: «لأجل علاج جميع آلامك أصفُ لكَ الضحك!»؟ ويُشجِّعُ ذئبُ السهوب على ممارسة بعض الطقوس الروحية الهندية والطبيعية. وليس في هذا الفيلم مجون ولا إباحية، بل جمال السينما الصافية.

هنالك روح - لايمكن مسها ولارؤيتها وهي لاتفنى - ولكننا لم نعد نعرف وا أسفاه كيف نتوجه إلى حضرتها. وهي التي تسيطر على حياتنا بأكملها مع ذلك. وأحمد الله دائماً لأن هذه الروح SOUL معترف بها من قبل السود وقبائل الشيكانوس وفي كل مكان يوجد فيه شعب بدائي. وتدَّعي جماعة الاكليروس أنها تعرفها هي أيضاً ولكنها لاتدري بصددها عماتتكلم. كتب رابليه على مدخل ديره المعروف بدير تيليم THELEME: «افعل ماتشاء!»، وكان يجب أن يضيف: «الدخول مجاناً»

٥٥ (عن الحب وسواه من الشياطين) رواية جديدة

لغابيريل غارثيا ماركيز، ترجمة آني مورفان، عن دار نشر غراسيه، باريس.

تركنا الروائي في المتاهة مع جنراله المحتضر عند دلتا العالم الجديد،

وقد انهار كل أمل، وغزت هدْرةُ الحقد - وهي أفعى خرافية ذات تسعة رؤوس - الأراضي الغريبة (انظر روايته «الجنرال في متاهته»). ثم أبدع الكاتب حكايات وأساطير تركت صُوىً وآثاراً لاتمحى في طريق الأدب العالمي، كما لو أنه أراد أن يقول لنا أن إنسان الآراكاتاكا ARACATACA - وهي العاصمة العالمية للآداب - مايزال حياً. وهذا حجر أبيض هو صُوَّةُ كتاب جديد أو رواية قصيرة ذات طراوة لامتناهية نحس بها تحت بهارج العقائد والهيجانات التي حركت الماضي. أننا أمام رحلة ذات شواطىء استقصائية تتألف مع الشيطان وتعزيماته، تلك هي قبل كل شيء رواية (عن الحب وسواه من الشياطين).

وعلى الرغم من العنوان، فإن هذا الكتاب لايمت بصلة إلى أية دراسة فلسفية، ولم توضع الحاشية - الوسام من كلام القديس توما الاكويني حول استنبات الشعر على الغلاف إلا من قبيل السخرية. ويعود المؤلف كعادته إلى الماضي ليمتح منه أحداثه وذكرياته، ويستند إلى التحقيق الذي أجراه عام ١٩٤٩ حول أطلال دير حيث الأضرحة تتهاوى على رمادها، وتختلط العظام بالشعور النحاسية الهائلة بطولها ذي الاثنين وعشرين متراً، ذلك أن الزغب الذي نبت على جمجمة الطفلة المتوفاة في الثانية عشرة من عمرها قد نبت حتى الآن وخلال مئتي سنة بشكل وحشي. وهذه الطفلة ممهورة بطابع القدر الذي لايُرَدُّ أو بطابع الشيطان.

كل شيء بدأ بعضة كلب مسعور في العرقوب. ومن ابتلوا بعضات مماثلة ماتوا من القهر والغيظ والغضب. أما هي، سييرڤا ماريا، فيبدو أنها نجت لأن الشيطان يسكن أعماقها وأحشاءها. ووالدها المركيز لم يشته مثل هذه الثمرة في شيخوخته، ومجيئها إلى العالم إنما كان بسبب رغبة أمها الشهوانية بيرناردا، ولذلك تخلص منها الكونت، بعد أن ساوره الشك في صحة أبوته لها، بأن أودعها ديراً من الأديرة. وبذلك أطفأ شيئاً من غضبه المشتعل. وعلى هذا فسيكون الدير بأسواره العالية عالمها المغلق، تحت

سيطرة رئيسة الراهبات، واختلاط العبدات اللواتي وجدن في الطفلة الخلاسية يوروبا YORUBA حقيقية قادرة على الكلام والكتابة بثلاث لغات افريقية، وهي على تآلف تام مع الآلهة ومع القديسين، من يبماها -YEMA HAإلى شانغو SHANGO في أطراف جزر البحر الكاريبي. هنا يسكن الشيطان حقاً جسد هذه اليافعة المغرية التي تغوي حتى كبير الكهنة بما يلتهب في جسدها الليلي-الغسقي من نيران لاتنطفئ يظل الشيطان يذكي أُوراها...

إنها لرواية حب وألم وسحر وتعذيب، وتمرُّ أمام نواظرنا سلسلة من الصور في موجة متعاقبة ومدهشة من التعابير والصيحات وتعزيمات الشياطين... ولأن غابرييل غارثيا ماركيز مشهور بوفائه لأرضه الكولومبية المطلة على الشواطئ الكاريبية، فهو يقدم لنا رواية ملأى بالحنان والحنين، وعامرة بنار الشمس واشتعال الورد وحماسة العشاق.. ويستمد هذا الكتاب الصغير بعض مياهه من منابع ماكوندو، وبه نتذوق طعم الكاكاو، ونسمع هذيان الساعات وأحاديث البدائيين. إنه لكتاب يأسرنا ونتمتع بقراءته وذلك لأنه يلغي أمام عميد الآداب الكولومبية خريف الريش المتعب ليعاود فكره القفز من جديد كطائر ملون جميل على التألق النحاسي لسحر صبية لاتنسى.

علوم

•• (تأثير القمر في حياتنا العاطفية والجنسية)،

مقال للباحثة الفرنسية ماري بيرنز MARIE BYRNES .

في خلال الأسابيع الأربعة من كل شهر قمري، وفي حقبة معينة، وبشكل أو بآخر، ستحس ياقارئي العزيز بتأثير القمر. وقد يكون التأثير موجة من الرغبة الشهوية الحارة، أو فترة من التوتر العصبي، أو شعوراً بازدياد الطاقة والحيوية.

لا أحد يدري بالضبط لمَ يكون الأمر كذلك. ولكن أناساً كثيرين يعتقدون بأن هناك قوة تعمل وراء ذلك كله هي القدرة المغناطيسية العجيبة للقمر.

سَحَرَ القمرُ البشريةَ منذ أن رآه أوائل سكان الكهوف يصعد من الشرق ليغيب في الغرب. وعبده الانسان البدائي خوفاً منه واتقاء لشره. واستعمله كساعة وكتقويم يومي. واستطاع الباحث الامريكي الكسندر مارشاك أن يبين وجود تقاويم قمرية تغطي تماماً الثلاثمئة والخمسة والستين يوماً منذ العصر الحجري الأعلى، وذلك لحقبة تزيد عن أربعين ألف عام. وأدى القمر تجاه أسلافنا وأجدادنا دوراً يفوق بأهميته كثيراً دور الشمس. واعتقد الناس لمدة طويلة من الزمن أن أشعته الشاحبة تشكل ينبوع خصب. ونقرأ هذه الجملة المحفورة على هيكل القمر ببابل: «بهذا الضوء تحمل النساء».

ويؤثر ضوء القمر في النساء أكثر مما يؤثر في الرجال. ترانا نتأثر من ذلك كنساء بالأغاني العديدة التي تغني القمر والحب والليالي الزاهرة؟ طبعاً لا، كما سنرى فيما يلي.

لاشك في أن القمر يؤثر في أوضاعنا العاطفية والجنسية، ولايقتضي هذا التأثير وجودنا في جو وزينة يشبهان الجو والزينة اللذين تصفهما الأغاني. ويشعر المرء بهذا التأثير حتى وهو موجود في مدينة كبيرة أو حين تكون السماء مغطاة بالغيوم.

ويقول لنا العلماء أن القمر يمارس جاذبية مغناطيسية هي من القوة بحيث أنها ترفع مستوى قارة بمقدار ثلاثين سنتمتراً. أما ظاهرة المد والجزر، التي تُرى بالعين المجردة، فإنها لاتقتصر على رفع المياه في المحيطات فحسب إذ قاس العلماء بأدوات مخبرية ذات دقة متناهية ظواهر المد والجزر في آنية مختلفة الأحجام وحتى في آنية بحجم الكشتبان أو قمع الخياط. وتخضع أجسامنا ذاتها، وهي مكونة من ٨٠٪ من السوائل، لتأثير الجاذبية القمرية.

في خلايا أجسادنا تختلط المياه بالاليكتروليتات أو المنحلات بالكهرباء ELECTROLYTESبطرق مختلفة فتغير أو تعدل من توازننا الهورموني،

الأمر الذي ينجم عنه تغير في أمزجتنا. ويرى الدكتور أرنولد ليبير، وهو أستاذ الأمراض العقلية والنفسية واختصاصي بتأثيرات القمر في جامعة ميامي، أن الجسد عرضة لظواهر المد والجزر القمريين، وأن النساء أكثر تحسساً من الرجال في هذا المضمار، وذلك لأن التوازن الهورموني الأنثوي هو أكثر تحسساً بتغيرات المياه والمنحلات بالكهرباء.

على أن القمر لايغير إلامن محيطنا الداخلي، مع أن الحقل الكهربائي الذي يحيط بكل شيء في هذا العالم يؤثر تأثيراً كبيراً على مدى المراحل القمرية. وقد لاحظ العالم الفيزيائي ليونارد رافيتز أن الطاقة الكهربائية لدى العديد من النساء تتغير بشكل ملموس في الحقبة التي يكون فيها القمر بدراً، وأن تكوُّن البويضات خصوصاً يتأثر بهذه الحقبة.

ولعل مرد ذلك أيضاً، كما يؤكد علماء آخرون، إلى تجاوب النساء على الدوام لحوافز ومنبهات قديمة جداً كانت هي ذاتها تدل أسلافنا على أفضل فترة للجماع، (وفي تلك الحقبة كانت أفضل فترة هي حين تكون المرأة في قمة الخصوبة). وهذا هو التفسير الذي قدمه داروين للجواب البشري فيما يتعلق بالدورة القمرية: فالإنسان يتحدر من السمك، فلماذا لاتكون الدورة الشهرية لدى المرأة على هذا الأساس أثراً من آثار الماضي المغرق في القدم، في حقبة كانت الحياة فيها تتأثر بالمد والجزر وإذن بضوء القمر؟

وعلى أية حال، ومهما يكن السبب (مد وجزر بفعل القمر، أو الكهرباء، أو إيقاعات حيوية متناهية في القدم) فإنه يبدو أن هناك ترابطاً وثيقاً بين طلوع القمر وظهور الدورة الشهرية لدى النساء. وهناك ثلاث دراسات مختلفة - أجرى إحداها العالم سفانته أرينيوس، حامل جائزة نوبل - تشير إلى أن أكثر الفترات ملاءمة لبداية العادة الشهرية وتكوُّن البويضات بعد ذلك هما فترتا الهلال والبدر. ومن الممكن أيضاً أن يملك كل إنسان منا في جهازه العضوي «ساعة قمرية» تعمل قليلاً بحسب نظرية الإيقاعات الحيوية BIORYTHMES. وتبنى طبيب تشيكي للأمراض العقلية والنفسية هو

الدكتور أوجين يوناس هذه الفكرة. واستعملها لتنظيم جهاز الحمل الطبيعي لدى المرأة، وذلك بمعرفة الفترة التي تتكون فيها البويضات بدقة، وقد أظهرت هذه الطريقة فعاليتها بمعدل ٩٨٪.

ويمكن تطبيق هذا النظام الذي أتى به أوجين يوناس JONAS على أي امرأة وذلك لأنه مؤسس على لحظة ولادتها. ولم يعترف بهذا النظام في تشيكو سلوفاكيا فحسب بل أوصت باتباعه أيضاً مؤسسة تنظيم الأسرة منذ الستينات، وذلك كطريقة لمراقبة الولادات وكعامل مساعد على الحمل أو عدمه وتحديد جنس المولود المرغوب فيه.

هل يمكن أن تشوش حبوب منع الحمل نظام «الساعة القمرية»؟ مامن أحد حاول حتى الآن أن يجيب عن هذا السؤال، ولكن إذا لجأنا إلى البحوث القمرية الحيوية في وضعها الحالي، فمن الممكن القول أن حبوب منع الحمل تستطيع على أكثر تقدير إبطاء حركة «الساعة القمرية».

ويؤثر القمر في كل شيء على وجه البسيطة: في الرجل، في المرأة، في المملكة الحيوانية، في المملكة النباتية، وحتى في المناخ. وإذا كان تأثيره قد أخفق في عدة مجالات (منها مثلاً مجال الإلغاء الكيميائي لتكون البويضات بوساطة حبوب منع الحمل)، فإن هذا التأثير مايزال فاعلاً في مجالات أخرى. وثمة أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأن هذا التأثير يؤدي بخاصة دوراً فاعلاً في الحالات التالية:

أ ـ في حالات النزف: لعل حلاّقي القرون الوسطى كانوا على حق حين كانوا يفضلون أن يفصدوا «مرضاهم» في مرحلة نقصان القمر. ولقد درس الدكتور أديسون أندروز، وهو جراح بفلوريدا، جانب النزف الدموي الذي يسبق عملياته في مشفاه، فوجد أن النزف يحدث في ٨٢٪ من الحالات العاجلة خلال مرحلة اكتمال القمر (أي مابين طلته هلالاً وسطوعه بدراً). واعتبر أن نتائجه غير قابلة للشك أو التفنيد حتى أنه هدد بأن «يصبح ساحراً، وبأن لايجري أية عمليات إلا في الليالي التي لايظهر القمر فيها».

أضف إلى ماتقدم أن هناك علماء ألمانيين اكتشفو أن الرمز pH (وهو يشير إلى مقدار الحموضة في الدم) يتغير بحسب المراحل التي يمر بها القمر.

٢ ـ في حالات الولادة: كانت جداتنا على صواب: فمعظم الولادات يحصل في الأيام والليالي القريبة من اكتمال البدر. وقد أكدت ذلك عدة دراسات، وبخاصة دراسة ابراهام ميناكد وولتر ميناكد. وقد أكدت ذلك عدة دراسات، وبخاصة الأحوال المدنية في مدينة نيويورك خلال حقبتين من الزمن من عام ١٩٤٨ إلى عام١٩٥٧ ومن عام ١٩٦٤ إلى١٩٦٨، وتوصلا إلى نتيجة مؤداها أن معظم الولادات يقع بالضبط بعد صيرورة القمر بدراً.

٣ ـ في الحالات الانفعالية: بلى، إن القمر يغير مزاجنا، ولكن بطريقة مختلفة بحسب الأفراد. فالبعض يسجل ازدياداً في الحيوية، والبعض يشعر بتوتر عصبي. ويذهب آخرون إلى القول أنهم يشعرون بشيء من الجنون، أي أنهم أقل كبحاً لجماح أعصابهم، وأكثر إقداماً على مجابهة الخطر، وأشد تبعية لنزواتهم، وانطلاقاً إلى المغامرة.

ويمكن أن تنجم هذه التغيرات في المزاج عن تنوع «حركات المد والجزر» في أجسامنا، وعن التبدلات الهورمونية أو التحولات في طاقاتنا الكهربائية. ويرى بعض العلماء أن مغناطيسية القمر تذهب إلى حد إثارة الاضطراب أو الجنون في الموجات التفكيرية. ويبين بعض الملاحظات الطبية أن نوبات الصرع والشقيقة تظهر بشكل يبعث على الدهشة حين يكون القمر بدراً.

كذلك تؤكد التحليلات الاحصائية الخرافات والعقائد القديمة حول الجنون الذي اعتبر في الماضي «حالة قمرية». (ولنذكر هنا أن كلمة LUNATIC بالانكليزية تعني على الدوام «مجنوناً» من كلمة LUNE أي القمر بالفرنسية، وأنهم يقولون دائماً في اللغة الدارجة A LUNATIC ASILUM لكلمتي مشفى أو ملجأ المجانين بالانكليزية وبالفرنسية ASILE D'ALIÉNÉS).

وهناك دراسات أُجريت لا في الولايات المتحدة فحسب بل في أوربُا أيضاً تدل على أن عدد جرائم القتل، والانتحارات، وحوادث الطرق، والاغتصابات، والحرائق، والدخول إلى المشافي النفسية والعقلية، كل ذلك يزداد بشكل محسوس حين يكون القمر بدراً.

٤ ـ في تقلبات المُناخ: حين يكون القمر بدراً في الشتاء فأغلب الظن أن هناك هطلاً للمطر. وبحسب تقرير نشرته مجلة (علوم) يكون احتمال سقوط المطر أو الثلج كبيراً في ذلك اليوم. (وقد بُني محتوى هذا التقرير على تحليل ملاحظات أُجريت خلال خمسين سنة في ألف وخمسمئة محطة أمريكية للأرصاد الجوية).

هوامش

* هذا مقال كتبه هنري ميلر عام ١٩٧٧ أي قبل وفاته بثلاث سنوات (١٨٩١ ـ ١٩٨٠) ولم يترجم آنذاك إلى العربية. وقد رأينا أن نترجمه الآن بالنظر إلى أن حال الدنيا مازال يسير من سيء إلى أسوأ، وبالنظر إلى ماورد في هذا المقال من أفكار قيمة وخواطر طريفة ساخرة، وإلى مايسود العلاقات الدولية الراهنة من خلافات جذرية حول امتلاك القنبلة الذرية، ومعارضة الاستمرار في تفجيرها..

(١) الحسيديية HASSIDISME : الاسم الذي يطلق على التيارين الصوفيين في اليهودية: الحسيديية الوسيطة (في القرنين الثاني عشر والثالث عشر) والحسيديية الحديثة، وقد ولدت في منتصف القرن الثامن عشر بأوكرانيا، وتشكل اليوم فئات شديدة التقوى والتعصب في صميم الطائفة اليهودية.

(٢) الغنوصيون GNOSTIQUES من الغنوصية GNOSTICISME وهي نزعة فلسفية دينية تهدف إلى إدراك الأسرار الربانية.

(٣) ساتيريكون SATIRICON: رواية للكاتب اللاتيني پيترون PETRONE، كتبها شعراً و نثراً في القرن الأول الميلادي، وصور فيها بشكل واقعي تشردات شاب ماجن تحت حكم الامبراطور نيرون.

(٤) كنوت هامسون KNUT HAMSUN: كاتب نرويجي (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢). له روايات تذكي في النفس عواطفها تجاه الطبيعة والتحرر من جميع القيود الاجتماعية. من أشهر

أعمـاله: الجـوع، ١٨٩٠ / پان، ١٨٩٤/ بينوني، ١٩٠٨ . حـامل جـائزة نوبل لعـام ١٩٢٠ .

(٥) غي دي كار GUY DES CARS : كاتب يهودي فرنسي غزير الانتاج، أبدل اسمه الأصلي باسم فرنسي نبيل. كتب عشـرات الروايات البوليسية حول اقتـراف مختلف أصناف الجرائم، وممارسة أنواع التجسس والدعـارة والتجـارة بالأسلحة والمخـدرات وسـوى ذلك من الانحرافات . . . أثرى كثيراً من إقبال الجمهور السطحي الجاهل على «انتاجه الضحل الهزيل».

(٦)مور اساكي شيكيبو MURASAKI SHIKEBU : روائية يابانية (نحو ٩٧٨ ـ ونحو ١٠١٤م). لها رواية غنجي مونو غاتاري GENJI MONOGATARI . تعتبر هذه الرواية من كلاسيكيات الأدب الياباني، وهي تصور الحياة في بلاط كيوتو حوالي العام الألف للميلاد.

❋ ❋ ❋

كتاب الشهر

الـذرة من الألف الى الياء

ميخائيل عيد

من بين التسميات التي أطلقت على عصرنا تسمية «عصر الذرة». وإذا كانت المعرفة النظرية وحدهاغير كافية كي تدخلنا إلى العصر، فانهاتبقى الخطوة التي لاغنى عنها من أجل دخوله.

---

* ميخائيل عيد: شاعر من سورية، له عدة أعمال مطبوعة وخاصة في أدب الأطفال والترجمة، آخر أعماله ديوانه الشعري «غزالة النهار».

وإذا كانت الطاقة الذرية هي نافذة الأمل الأوسع على طريق تطلع الإنسانية إلى استهلاك المزيد والمزيد من الطاقة مع اتساع اماد تطور الثورة الصناعية- التقنية ومحدودية مصادر الطاقة القديمة، فإن هذه النافذة ذاتها قد توصل الجنس البشري والكائنات الأخرى، على كوكب الأرض، إلى مصير مخيف، فقد تكون الباب المؤدي إلى انطفاء الحياة على الأرض.

يحمل كتاب «الذرة من الألف إلى الياء» الرقم (١٨) من سلسلة العلوم التي تصدرها وزارة الثقافة في دمشق. وهو من تأليف ك .T. غلادكوف، وترجمه إلى العربية الدكتور المهندس مظفر شعبان والمهندس صفوان ريحاوي.

الكتاب موسوعة موجزة في موضوعه.. يقول المؤلف في المقدمة بشأن الغاية الرئيسية من كتابه: «توضيح أهمية المصطلحات العلمية الأكثر تداولاً» وشرح «المفاهيم العلمية والهندسية الجديدة المرتبطة بشكل مباشر أوغير مباشر مع الحصول على الطاقة الذرية (النووية) واستعمالها...

والكتاب مخصص لفئتين من القراء الأولى تشمل القارىء العادي والثانية «تضم القارىء الذي تمكن في، وقت ما، من قراءة كمية لا يستهان بها من النشرات والمقالات والملاحظات حول هذا الموضوع. فتشكلت لديه بالفعل تصورات أولية حول أساسيات الفيزياء الذرية، والكتابة لهذا النوع من القراء أصعب وأعقد». وقد عمد المؤلف إلى ترتيب مواد الكتاب «بحيث تأتي مرتبة لدى قراءتها بشكل متتال ابتداءاً من الأبسط علمياً- من الألف إلى الياء- في أساسيات الطاقة الذرية» (ص٥).

يتكلم المؤلف تحت عنوان «الإنسانية والطاقة الذرية» على أهمية «توفر كميات غزيرة من الطاقة الكهربائية» فالصناعة الثقلية شرهة للطاقة.. (ص١٠) ثم يتكلم على المشاريع والأحلام بتحويل الصحارى «إلى حدائق مزهرة» وإقامة بحار جديدة وجزر اصطناعية (ص١١).

وتبقى الطاقة الكهربائية «زمناً طويلاً جداً الطاقة المثالية» لكنها لاتخزن ولا «تجمع لابشكل مباشر ولابشكل غير مباشر باستثناء كميات ضئيلة جداً. . . (ص١٣).

ومع أن الطبيعة حاولت «أن تخفي» طاقة هائلة «في نواة الذرة» فقد تمكن الإنسان «من هتك آلاف الأقفال المغلقة على الطريق نحو قلب الذرة واستخراج الطاقة وسخرها لارادته» (ص١٤). وفي اليوم الذي سيتعلم فيه العلماء «التحكم بسير التفاعل النووي- الحراري سيصبح الإنسان السيد المطلق للطبيعة» وسيجد تحت تصرفه «منبعاً للطاقة غير محدود بالفعل». فثمة كميات «كافية لتغطية الاحتياجات على مر العصور والأزمان»(ص١٦). وقد تتحقق فكرة «تغيير محور الكرة الأرضية مما سيحول كوكبنا الأرضي إلى جنة مزهرة على الدوام» (ص١٧).

تحت عنوان «الحرف آ» يوضح أنه سيضطر في عدة أماكن من الكتاب إلى «استعمال بعض الرموز الخاصة على شكل أحرف أو أرقام أو معادلات». والحروف ذاتها «الدالة على العنصر» تستخدم في الفيزياء النووية كما في الكيمياء» (ص١٩).

وبغية تجنب التعقيد لدى تسمية العنصر أو نظائره «يكتب عادة الاسم الكامل للعنصر باللغة الروسية وإنما مع عدد يمثل رقمه» (ص٢٠).

ثم يعرّف المؤلف السرعة، والتسارع، والقوة، والعمل، والاستطاعة والقدرة الطاقة، والطاقة الكامنة، والطاقة الحركية، كمية الحركة أو الدفع، والفولت، الالكترون- فولت ثم «الذرة» «الشخصية الرئيسية في هذا الكتاب وفي كل العالم المادي المحيط بنا».

إن الفكرة القائلة بأن أشكال المادة كلها «تتألف من جسيمات صغيرة للغاية» ولا «يمكن تقسيمها إلى أجزاء أصغر منها ظهرت منذ زمن قديم في أذهان حكماء الشرق القديم، الهند، الصين، اليونان». وكان ذلك ثمرة «التفكير والتبصر والاستنتاج» لانتيجة «التجربة أو التعميم العلمي. . .

(ص ص ٢١- ٢٢- ٢٣- ٢٤) ثم تمكن العالم الروسي الكبير لومونوسوف «من وضع تخمينات العلماء القدماء على قاعدة العلم الدقيق». وقد ركز لومونوسوف على «أن حركة المادة بأسرها ترد إلى حركة الذرات. وهذه الحركة هي سبب كل التغيرات التي تحدث في الطبيعة بدون استثناء». وقد تنبأ «بوجود أخفض درجة حرارة ممكنة: درجة الصفر المطلق».

واكتشفت عناصر جديدة وحدد الكيميائيون «خواصها ومميزاتها» فتم التوصل «إلى الكثير من الأشياء المدهشة وغير المفهومة.. فثمة ذرات خفيفة جداً وأخرى ثقيلة جداً» «وبعض العناصر كانت تتبادل التأثير، أي التفاعل» بقوة وكانت ثمة «عناصر لاتتبادل التأثير» حتى عند «حدوث التماس المباشر ولابأي حال من الأحوال» (ص٢٥).

وزاد قلق العلماء «ففي النظام الفوضوي للحقائق تترتب قانونية معينة تدل على وجود نظام متين ولكنه غير مفهوم بعد. وعلى مايبدو فإن الفوضى الظاهرية لم تكن في الطبيعة وإنما في المعلومات الناقصة المتوفرة لدى العلماء» واستمر «التخمين حول طبيعة الذرة أكثر من ألف سنة». ثم تبين «أن ذرات العناصر الكيميائية ليست ذرات «غير قابلة للانقسام» وإنما عوالم كاملة ذات أشكال خاصة مبنية من عناصر أبسط: الجسيمات النووية والالكترونات». وتبين أن الجسيمات الأولية «ليست أولية».

وفي الذرة نواة ثقيلةمشحونة بشحنة إيجابية وحولها سحابة خفيفة مؤلفة «من جسيمات ذات شحنة سالبة» (ص٢٦) وقطر الذرة يساوي تقريباً جزءاً من «١٠٠ مليون جزء من السنتيمتر» «والشحنة الكهربائية الموجبة على نواة الذرة تكافىء بدقة مجموع الشحنات السالبة للالكترونات الموجودة ضمن السحابة الالكترونية للذرة» وبتأثير «الأسباب الخارجية» قد تفقد «الذرة بعض الكتروناتها، أو قد تستولي على الكترونات من ذرات مجاورة»(٢٧).

«والالكترونات في مداراتها تبقى ممسوكة إلى الذرة بقوى التجاذب الكهربائي بينها وبين نواة الذرة». وتزداد طاقة الالكترون مع ازدياد بعده عن

النواة «والخاصة الكيميائية الأساسية للذرة هي مقدرتها على الدخول في التفاعلات الكيميائية وهذه الخاصة تتحدد بالالكترونات الموجودة على أبعد المدارات الخارجية نظراً لأن ارتباطها بالنواة أضعف من جميع الالكترونات الأخرى». وقد يتم التحول إلى الأبسط أو الأعقد «وهذه العمليات تترافق دوماً مع استهلاك للطاقة أو توليد لها». (ص٢٨).

وكل ذرة «تمثل جملة كاملة من الشحنات الكهربائية» التي يؤثر بعضها على بعضها الآخر. واختلاف الخواص الكيميائية لهذه المادة عن تلك يفسر بتفاوت الشحنات الكهربائية الموجبة في نواة هذه الذرة أو تلك. والالكترونات في مختلف «أنواع المادة متماثلة تماماً» وهي تستطيع «أن تتحرك فقط على مدارات محددة بدقة وذلك حسب طاقتها المكتسبة» (ص٢٩). وتعتمد الخواص الكيميائية «للذرة على كمية الالكترونات الموجودة في السحابة الالكترونية وعلى توضعها فيها. ويتم إملاء وإنشاء كل دور من أدوار جدول مندليف حسب القانون ذاته الذي تم بموجبه إنشاء الدور السابق» وتكون عناصر الدور الثاني «قريبة من مواصفات الدور الأول» (ص٣٠).

«والتدفق الموجه للالكترونات الحرة، أي الالكترونات المنزوعة من ذراتها، في النواقل أو في أنصاف النواقل، يشكل ما يعرف بالنسبة للجميع باسم «التيار الكهربائي» (ص٣١) وإذ تقفز الالكترونات عبر المدارات الأقرب إلى نواة الذرة تكون الكوانتات المنطلقة ذات «إشعاعات كهرمغناطيسية «أقسى»: أشعة روتنجن (الأشعة السينية) التي تحمل طاقات أكبر بمرات كثيرة من الضوء المرئي ومن اللون دون الأحمر وفوق البنفسجي غير المرئيين».

وتعابير «بنية» «نواة الذرة» وغيرها «تحمل طبيعة شرطية تماماً». فنواة الذرة غير مرئية، وكل اكتشاف جديد في الفيزياء النووية، حتى الاكتشافات الثانوية «يجبر العلماء أحياناً على تغيير تصوراتهم» حول تركيب «هذا الجسيم الأساسي في العالم الميكروي» (ص٣٢).

وتكون الذرة «الطبيعية» محايدة كهربائياً. وشحنة النواة والكتلة «الذرية يتطابقان عددياً فقط في حالة الهيدروجين. أما بالنسبة للعناصر الأخرى فهما يختلفان بشكل واضح». ولكن «عدد البروتونات في النواة لايمكن أن يكون أكبر من الشحنة الاجمالية للنواة». فما هي هذه البروتونات التي «تغير كتلتها من عنصر إلى آخر؟ ألا توجد ضمن نواة الذرة بعض الجسيمات غير المعروفة بعد؟» (ص٣٥) وحمل اكتشاف النيترون توضيحاً وسهل «بصورة تركيب نواة الذرة» (ص٣٦) وقد أوضح وجود النظائر وهي أشكال «مختلفة من ذرات العنصر ذاته ولكنها تختلف عن بعضها بالكتلة وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف عدد النترونات الداخلة في النواة»(ص٣٧).

ويعرض المؤلف بإيجاز تاريخ المفاعلات الذرية وأقسامها وخصائصها. ويتكلم على «التحليل التنشيطي» الذي هو «أحد مجالات الهندسة النووية، ويستعمل من أجل تحديد العناصر الكيميائية الموجودة بكميات ضئيلة للغاية في المواد المدروسة» (ص٤٠). ثم يتكم على «المنطقة الفعالة من المفاعل النووي» وعلى «الفعالية» وجسيم ألفا، و أشعة ألفا، ويعرف الأنغستروم الذي هو واحدة مساعدة «لقياس أطوال موجات الاهتزازات الكهرمغناطيسية القصيرة جداً» وهو يساوي جزء «من ١٠٠ مليون جزء من السنتيمتر». ثم يشرح معنى «الاختفاء بالاتحاد» في عالم الجسيمات الذرية (الأولية) المدهش.. (ص٤٢) «فكل من هذه الجسيمات له جسيم مضاد له، أي جسيم ذو كتلة مماثلة تماماً ولكن ذو خواص معاكسة: الشحنة، اتجاه الدوران وغيرها». وعندما يصطدمان «يختفيان على الفور» متحولين «إلى جسيمات أولية أخرى أو كوانتات الاشعاع».

وبنتيجة عملية «الاختفاء بالاتحاد يتشكل عادة فوتونان (كوانت غاما) يحتويان طاقة وكمية حركة مساوية للزوج المتصادم» (ص٤٣).

ويتكلم المؤلف بشيء من الإسهاب على «الجسيمات المضادة» وعلى «المادة المضادة» فيخلص إلى القول: «واعتماداً على التناظر الموجود في كل

مكان من الطبيعة يمكننا أن نفترض أن نصف الذرات الموجودة في الكون على الأقل يجب أن تكون من المادة المضادة!» ولو وجدت المادة المضادة في مجرتنا لما «أمكنها أن تتواجد طويلاً ولاختفت بسرعة بالاتحاد مع المادة العادية، ولأطلقت كميات كبيرة من الطاقة أكبر بمقدار ٣٨ مرة منها عند انفجار قنبلة هيدروجينية» (ص٤٥).

ويتكلم المؤلف بإيجاز على «السلاح الذري (النووي)» الذي يعتمد عمله «على استعمال قدرة الانفجار المنطلقة عن تفاعلات انشطار نواة العناصر الثقيلة» أو اندماج العناصر الخفيفة (الهيدروجين). ويتكلم على «القنبلة الذرية» وعناصرها الرئيسية «هي شحنة من الوقود النووي» وجهاز الانفجار وغلاف. (ص٤٦) كما يتكلم على «البطارية الكهربائية الذرية» و«المحرك الذري» و«محطة توليد الكهرباء الذرية» و«الوقود الذري (النووي)» و«الوزن الذري (الكتلة الذرية)» و«المحرك الذري الردفعلي» ومن ثم يصل إلى «حرف الباء».

ويكون أول الكلام هنا على «تفكك بيتا (انحلال بيتا)» فباستعراض تحول نوى ذرات العناصر «المشعة إلى نوى ذرات أخرى» نلحظ أن «معظم عمليات التحول هذه يترافق مع انطلاق إما الالكترونات (جسيمات بيتا) أو جسيمات ألفا» وانطلاق «جسيمات ألفا يبدو مفهوماً أكثر». «ولكن من أين تأتي الالكترونات في نواة الذرة؟» والنواة تتألف من البروتونات والنترونات؟..

ثمة افتراض وحيد: «الالكترونات تولد في النواة نتيجة تحولات مافي النواة». أي عن طريق «سلسلة من التحولات لأحد النترونات إلى بروتون». (ص٥٥) وتفقد النواة «كمية معينة من القدرة عند كل تحول». ويختفي جزء من القدرة «في مكان ما» (ص٥٦) ثم تبين أن «تحول النترون إلى بروتون ضمن نواة الذرة يترافق مع انطلاق الكترون ونترينو، وتحول البروتون إلى نترون يترافق مع انطلاق البوزيترون والنترينو». وثمة نوعان

«من النترينو» متماثلان تماماً تقريباً . . أحدهما ينتج عن «التفاعلات التي ترافق انطلاق الالكترون من نواة الذرة أو أي جسيم آخر، والنوع الثاني ينتج عن تفكك الجسيم الأولي».

ثم يتكلم على «الآثار البيولوجية للاشعات المؤينة» إذ تجري في الخلايا الحية تغيرات فيزيائية- كيميائية تؤثر على نشاطها الحيوي وبشكل خاص على خصائصها الوراثية» (ص٥٧). وقد تعرقل تبادل «المواد مما يؤدي في بعض الحالات إلى تطور عكسي (انهيار) الخلايا العضوية».

ولحظ العلماء أن الالكترونات لدى دورانها «حول النواة لم تفقد أياً من طاقتها ولم تطلق أية اشعاعات، ولم يحدث موت جماعي للكون» وكانوا أمام مسألتين: «إما أن قوانين الفيزياء الكلاسيكية غير صحيحة وإما أن حركة الجسيمات الذرية تخضع إلى قوانين مغايرة» (ص٥٨).

وينتقل المؤلف إلى شرح معاني بعض الأسماء مثل «البيريليوم»، الذي يستعمل «كمنبع للنترونات وكمهدىء للنترونات السريعة وكذلك كعاكس للنترونات البطيئة (الحرارية) في المفاعلات النووية». ومثل «بيتاترون» وهو مسرع «للالكترونات دوراني» و«الجسيمات بيتا» وتطلق «على واحد من ثلاثة أشكال من الاشعاعات المنطلقة من نوى المواد المشعة عند تفككها، و هذه تعتبر الكترونات عادية». و«باريون» وهي «التسمية العامة للجسيمات الأولية الداخلة ضمن أثقل الجسيمات الأولية التي تشكل النكلونات والهيبرونات» (ص٦١).

ويتكلم المؤلف على «الحماية البيولوجية» وهي «جملة من الشاشات أو الغلافات الواقية التي تقوم بإضعاف شدة الاشعاعات المؤذية إلى المستوى المأمون لخلايا الإنسان» «ولعل أعقد أنواع الحماية هو المستعمل للحماية من النترونات» (ص٦٢). وتوضع «الحماية البيولوجية حول المفاعل نفسه وكذلك حول جميع العناصر التي تتبادل الحرارة معه بما في ذلك الأنابيب والمضخات. . الخ».

ثم يعرف عنصر «بور» وهو «العنصر الكيميائي ذو الرقم الذري 0 من المجموعة III في نظام مندلييف الدوري» (ص٦٣). وله استعمالات كثيرة في المفاعلات النووية. ومن ثم يتكلم على النترونات السريعة.

الحرف «ف» هو الحرف الثالث في اللغة الروسية وهنا يتكلم المؤلف على «الفراغ» «وهناك مفهومان للفراغ: فني صرف وفلسفي» (ص٦٥) وعلينا- فلسفياً- «أن نعترف أن ماندعوه فراغاً هو حقيقة فيزيائية، وبشكل خاص للمادة موجود بشكل موضوعي» وتظهر له آثار فيزيائية على كل «من الإنسان وعلى الأجهزة التي ينشئها، وبكلمات أخرى لايجب اعتبار الفراغ كخلاء مطلق، وإنما كخلفية مادية تماماً يتم عليها تمثيل أعقد وأدق الحوادث والظواهر الفيزيائية».

أما «التأثيرات المتبادلة (القوى) بين الجسيمات (الأولية)» فهناك «ثلاثة أشكال من القوى المتبادلة بين الجسيمات الأولية: القوة الكهرمغناطيسية، القوة الشديدة والقوة الضعيفة» (ص٦٦).

وتنسب إلى هذه القوى الظواهر المرتبطة بإشعاع الموجات الكهرمغناطيسية وبامتصاصها» وثمة «تأثيرات متبادلة للجسيمات الأولية ناتجة عن القوة الضعيفة» وهي تبقى «جزئياً غير ملحوظة بالمقارنة مع القوى الشديدة وحتى القوى الكهرمغناطيسية. . . (ص٦٧) والتأثيرات قد تكون بطيئة أو سريعة «قد تستغرق أجزاء من مليون من الثانية فقط» (ص٦٨) والنقطة الأهم «في جميع القوى المتبادلة بين الجسيمات هي أن الكتلة والطاقة لاتخلقان ولاتختفيان. فالكمية العامة للكتلة والطاقة اللتان تدخلان في التفاعل تساويان الكمية العامة للكتلة والطاقة اللتين تبقيان بعد التفاعل».

ويعرف المؤلف «الهيدروجين» بأنه «أخف العناصر الكيميائية الموجودة في الطبيعة وأبسطها وأكثرها انتشاراً» «وفي الشروط الطبيعية يكون الهيدروجين على شكل غاز» وجزيء «الهيدروجين يتألف من ذرتين» (ص٦٩) «ويتميز الهيدروجين على جميع الغازات الأخرى بأن ناقليته

الحرارية هي الأعظم، ولهذا السبب فقد وجد استعمالاً واسعاً في الهندسة والصناعة».

أما تعبير «الحالة المستثارة لنواة الذرة» فيطلق على الحالة التي تصل إليها نواة الذرة بعد ابتلاع كمية من الطاقة الفائضة من الخارج أو عند اصطدامها مع جسيم آخر أو عند الاستيلاء عليه» و«المدافع المتقابلة (للجسيمات المسرعة) اتجاه جديد ويبشر بآفاق كبيرة في مجال إنشاء مسرعات الجسيمات ذات الطاقات العالية جداً من مرتبة مئات وآلاف المليارات الكترون فولت»(ص٧٠- ٧١) ومن أجل «أن تتم التفاعلات بشكل متكرر، يجب أن تحتوي تيارات الجسيمات على جسيمات كثيرة وكثيرة جداً: أكبر بملايين وبمليارات المرات مما يقدر أن يعطيه أقوى مسرّع» (ص٧٢) «ومما لاشك فيه أن طريقة المدفعية المتقابلة ستصبح في السنوات القريبة القادمة إحدى الطرق الرئيسية في فيزياء الجسيمات الأولية».

ولايزال «مولد فان دي غراف» مستعملاً حتى اليوم نظراً لبساطة تركيبه وللارتفاع النسبي للجهد المولد(ص٧٣).

أما القنبلة الهيدروجينية «فهي شكل آخر من الأسلحة النووية ذات القوة التدميرية الهائلة. وهي تعمل اعتماداً على مبدأ التركيب النووي لذرات العناصر الخفيفة فتتحول إلى نواة عنصر أثقل» «حيث تنطلق كمية هائلة من الطاقة» (ص٧٤).

في باب الحرف (غ) كلام على الهيليوم وكتلته الذرية «وهو غاز خامل» وثمة كلام على «أشعة غاما (كوانتات غاما): أحد أشكال الاشعاعات المنطلقة من نوى ذرات العناصر المشعة الطبيعية وكذلك الاصطناعية، وهي تعتبر إشعاعاً كهرمغناطيسياً ذا موجات أطوالها قصيرة جداً»(ص٧٥). وهي ذات «قدرة عجيبة على الاختراق». ولا «تؤين بسهولة المواد المختلفة وحسب، لكنها أيضاً قادرة على تحريض بعض التفاعلات النووية وبشكل خاص فهي تولد أزواج الالكترون- البوزيترون وتشكل بعض الجسيمات الأولية»(ص٧٦).

وينتقل المؤلف إلى التعريف فيعرّف الهيبرونات، والنواة الهيبرية، وتتألف كل «ذرة من النواة والالكترونات التي تدور حولها»(ص٧٧). والالكترونات تنتسب إلى مجموعة الجسيمات الأولية المسماة الباريونات». والباريونات الأثقل تعرف «باسم هيبرباريونات» (ص٧٨) وجميع النوى الهيبرية غير «مستقرة على الاطلاق وهي تعيش حوالي جزء من عشرة مليارات جزء من الثانية» وقد سمح الحصول عليها بالحكم على طبيعة التأثيرات «المتبادلة (القوى) بين الهيبرونات والنكلونات مما يساهم في تطوير فيزياء الجسيمات الأولية ويوسع مجال المعلومات في فيزياء نوى الذرات العادية والجسيمات التي تتألف منها» (ص٧٩).

ويتكلم على «جهاز الكشف عن العيوب الباطنية باستعمال أشعة غاما» وعلى «عداد غاير- مولر» وتقدير العمر الجيولوجي بواسطة المواد المشعة». و«المفاعل النووي ذو التركيب المتغير» و«المفاعل النووي المتجانس» و«الغرفة الحارة (للحماية)، المختبر الحار (للحماية)» و هو «مختبر معد خصيصاً من أجل التعامل مع المواد المشعة ذات النشاط الإشعاعي العالي»(ص٨٣) وعلى «المكافىء الغرامي للراديوم» و«الجاذبية (الثقالة)» و«الغرافيت» وكلها تعريفات موجزة..

يبدأ حرف الدال بالكلام على «الديتريوم» وهو نظير «طبيعي مستقر للهيدروجين» وهو واسع «الانتشار في الطبيعة» ويستخدم استخداماً واسعاً «في التقنية النووية، وبشكل خاص لابطاء سرعة النترونات في المفاعلات النووية» (ص٨٥) ويمكن لمركباته مع الليثيوم «أن تستعمل كمادة نووية متفجرة في القنبلة الهيدروجينية».

أما «انشطار نواة الذرة (تفاعل الانشطار)» فهو «شكل خاص من أشكال التفاعل النووي، تقوم خلاله نوى العناصر الثقيلة، كالأورانيوم والبلوتونيوم مثلاً، بضم نترون إليها لتصبح وضعيتها مثارة جداً» «ونتيجة لهذا التفاعل تتحرر الطاقة»(ص٨٦).

وفي أثناء الكلام على «خلل الكتلة» يعـرض المؤلف الكثـيــر من التجارب والنظرات وصولاً إلى النسبية «التي تعتبر من أجرأ الأفكار العلمية الحديثة وأبعدها نظراً». وأهم نتائج هذه النظرية أنه «ليس هناك جسم يستطيع الحركة في الفراغ بسرعة تساوي سرعة الضوء أو تزيد عنها. وقد فرقت النسبية بين «كتلة السكون» والكتلة المتعلقة بسرعة حركة الجسم. واستناداً إلى تجارب ليبيديف الذي «أكد حقيقة الضغط الضوئي» واعتماداً «على الحقيقة المؤكدة تجريبياً عن زيادة ثقل الالكترون لدى حركته بسرعة قريبة من سرعة الضوء، وعلى غيرها من اكتشافات العصر، وضع اينشتين علاقته الشهيرة، التي أثارت الكثير من الجدل والتفسير الخاطيء، والتي تربط بين الكتلة (معيار الطاقة) والطاقة (المعيار الفيزيائي لحركة المادة». أي أن الطاقة «تكافيء كتلة الجسم مضروبة بمربع سرعة الضوء» (ص٩٠- ٩١).

«وخلل الكتلة يلاحظ ليس فقط عند اتحاد البروتونات والنترونات في نواة الذرة ولكن حتى في الحالات التي تنقسم فيها نواة العنصر الثقيل إلى نواتين» (ص٩٣).

ويتكلم المؤلف على «موجة برويل» و«إزالة الأثر الاشعاعي» «وهي طرق ووسائط إزالة المواد المشعة عن الملابس والتجهيزات... الخ»(ص٩٤) وعلى «المواد المنشطرة» أي القادرة على الدخول في تفاعل الانشطار النووي لدى قذفها بالنترونات». وعلى «التفكك» أي «تفكك الجزيئات إلى مكوناتها من الذرات، أو مجموعة الذرات، وذلك تحت تأثير درجات الحرارة المرتفعة جداً مثلاً». وعلى «الجرعة» «وهي المقدار الذي يعتبر مقياساً لتأثير الإشعاع في وسط ما». وعلى «مراقبة الجرعات الإشعاعية، دائرة قياس الجرعات (ص٩٥- ٩٦) وعلى «النواة البنت» إذ تتفكك نواة العنصر «متحولة إلى «نواة بنت» ونظراً لكون هذه الأخيرة نشطة إشعاعياً» فإنها «تتفكك من جديد متحولة إلى النواة المشعة اللاحقة، وهكذا دواليك» (ص٩٧).

في فصل «حرف الجيم» كلام على «المعادن السائلة في التقنية الذرية». فلدى كبح شظايا انشطار نواة ذرة الأورانيوم ٢٣٥ أو البلوتونيوم ٢٣٩ تتحول الطاقة الحركية آنياً إلى حرارة. ولهذا السبب من الأجدى في المرحلة الحالية من تطور الطاقة النووية استخدام الطاقة الذرية كمنبع للحرارة». (ص٩٩) ويتزايد في المراجل «البخارية الحديثة» استخدام «المعادن السائلة ذات الناقلية الحرارية الكبيرة، كالزئبق والصوديوم، وخلائطها وغيرها. وفي بعض الحالات تكون هذه المعادن ذات مزايا هائلة لاتقارن مع التبريد بالماء أو بالغازات الأخرى».

وثمة كلام على «التركيز المغناطيسي القاسي» وهو جهاز مغناطيسي خاص في المسرعات الدورية للجسيمات المشحونة «يسمح «بكبس» تيار الجسيمات المسرّعة» في المستوى الأفقي والعمودي على التتابع.. وقد سمح «بتصغير أبعاد المجموعة المغناطيسية ووزنها إلى حد كبير» (ص١٠١).

الحرف- ذ- يضم عناوين غير كثيرة. منها «النيترونات المتأخرة» فانشطار نواة ذرة اليورانيوم ٢٣٥ أو البلوتونيوم ٢٣٩ إلى قسمين عند إصابتها بنيترون يستغرق قرابة «أجزاء من المليار من الثانية» لكن قسماً من النيترونات التي تنطلق نتيجة ذلك «لايطلق مباشرة بل بتأخير زمني يتراوح بين أجزاء الثانية وحتى عدة عشرات من الثواني. وإن تأخير عنصر واحد في سلسلة تفاعل الانشطار يؤدي إلى إبطاء كامل العملية» (ص١٠٣).

ومن العناوين «الوقاية من الإشعاعات المؤينة» وهنا وضع «نظام خطط له، باحكام ويجري تطويره باستمرار، و يشتمل على عدد من «خطوط»، الحمايه المترابطة فيما بينها والتي يغطي بعضها بعضاً» (ص١٠٤) ومنها أيضاً «إبطاء النيترونات. المبطىء». و«أسر نوى الذرات للنيترونات» فعندما يقترب نيترون حر من نواة ذرة مادة أخرى إلى مسافة تأثير القوى النووية العظيمة فإما أن «يتابع طيرانه أو ينجذب إلى داخل نواة هذه الذرة» مما يؤدي إلى «تحويل نواة مثل هذه الذرة إلى وضعية مستثارة ثم إلى تشكيل ما يسمى بالنواة الانتقالية» (ص١٠٦).

فصل «حرف الياء» يبدأ «بالأيون» «فالذرة التي فقدت بعض الكتروناتها تصبح أيوناً موجباً أما تلك التي استولت على الكترونات فائضة فتصبح أيوناً سالباً، بينما يصبح الالكترون الذي انتزع من ذرته ولم ينضم إلى ذرة أخرى الكتروناً حراً».

«التأيين: «تدعى عملية تحويل الذرات المحايدة كهربائياً إلى أيونات فعالة بالتأيين».

«النظائر» هي «الذرات التوائم» (أي التي تحتل مكاناً واحداً). وثمة نظائر للعناصر المشعة وغير المشعة. لكنها قليلة لبعض العناصر وكثيرة لبعضها الآخر (ص١٠٩) «والنظائر قد تكون مستقرة (ثابتة) أو غير مستقرة (نشطة إشعاعياً) أي تفكك ذاتياً بمرور الزمن».

«الايزوبارات» هي «نوى الذرات التي تتميز بأن كتلتها الذرية متساوية ولكنها تحمل عدداً مختلفاً من الشحنات الموجبة وبالتالي فهي تنتمي إلى ذرات عناصر كيميائية مختلفة».

«الايزميرات الذرية» «قد تتألف النوى المشعة لذرات بعض العناصر من عدد البروتونات والنترونات ذاته، إلا أن ترتيبها داخل النواة قد يكون مختلفاً» وقد تتهيج «بدرجات مختلفة» ويختلف نشاطها الإشعاعي لدى تفككها اللاحق»(ص١١٠).

«اليود المشع» «إن انفجار القنابل الذرية في الجو يؤدي إلى سقوط مواد مشعة تحتوي على نظائر لليود طويلة العمر» قد تصيب الناس والحيوانات «بأمراض الإشعاع، مما يؤدي إلى الوفاة إذا كان تركيزه كبيراً» (ص١١١).

ويتكلم المؤلف بإيجاز على «حجرة التأيين» و«الإشعاعات المؤينة» والمحرك الأيوني (الصاروخ الأيوني) (ص١١٢) وعلى «حجرة الشرارة» «وهي عداد لتسجيل الإشعاعات المؤينة، حيث يتحرك فيها الجسم المشحون بين قطبين واقعين تحت توتر كهربائي عال» (ص١١٣) «الحرف k» موضوعه الأول هو «الاستيلاء k» وهو ناجم عن تفكك «يرافقه انطلاق النوترينو،

ويدعى هذا التفكك بالاستيلاء k» والتفكك يحدث «عندما تستولي نواة الذرة المتهيجة على أحد الالكترونات ذرتها والذي يدور حول النواة على أقرب مدار منها» (ص١١٥).

«الكوانتات. نظرية الكوانتات (نظرية الكم)» وقد فسرت مالم تستطع النظرية التموجية تأكيده. إلا مع افتراض «أن الأمواج الكهرومغناطيسية الصغيرة جداً، على الأقل حين تفاعلها مع المادة، تتمتع بمواصفات الجسيمات المنفردة أي أنها أجسام ذات وجود محدد ومتناه ولكنها غير قادرة على التواجد والحركة إلا بسرعة الضوء» (ص١١٦).

«الأثر الضوئي» يمثل عملية فيزيائية تسقط خلالها كوانتات من الضوء ذات الطاقة الكافية على سطح معدني بحيث تطرد من المعدن بعض الالكترونات».

«الكتلة الحرجة (للوقود النووي)». فمن أجل «تفاعل متسلسل في اليورانيوم» من «الضروري أن لا تقل كتلته عن كتلة حرجة محددة». «فالكتلة الحرجة التي يمكن معها بدء تفاعل انشطار متسلسل هي تلك الكمية الأصغرية من الوقود (النووي التي يقوم فيها كل جيل من النيترونات بشطر كمية محددة من نوى ذرات اليورانيوم أو البلوتونيوم وبحيث يؤدي ذلك بدوره إلى ظهور جيل تال من النيترونات عدده مساو أو أكثر قليلاً من الجيل السابق».

«عامل تكاثر النيترونات»: «عند انشطار ذرة اليورانيوم ٢٣٥ إلى شظيتين» يتحرر نيترونان أو ثلاثة أي يتضاعف عدد النوى المنشطرة «مع كل جيل جديد من الانشطارات». هذا نظرياً أما عملياً فثمة شوائب «تبتلع قسماً من النيترونات المتحررة عند الانشطار» وتعويضها يتم «عن طريق الخفض إلى الحد الأدنى لعدد النيترونات التي تطير خارج حدود قسم العمل في المفاعل دون أن تشطر نصيبها من نوى اليورانيوم ٢٣٥، أو زيادة كمية الوقود النووي في المفاعل» (ص١١٩).

«الأشعة الكونية» ومعظم هذه «الأشعة» ليس «إلا شظايا لاحصر لها لكوارث ميكروسكوبية: نوى ذرات الهواء التي تحطمت لدى إصابتها بالجسيمات الكونية «الأصلية» الابتدائية التي تمتلك قدرة هائلة». (ص١٢١) والكميات «الهائلة من الطاقة المنطلقة خلال سير مثل هذه الاصطدامات تولد عوائل كاملة من الجسيمات الجديدة ذات الحياة القصيرة والتي لايمكن أن تتواجد في الظروف العادية، وهذه الجسيمات بتفككها تولد فوراً جُسيمات جديدة ذات خصائص فيزيائية ومواصفات من مختلف الأشكال. ويبدو الأمر كما لو أن الطبيعة تخلق لبضع أجزاء من المليارات من الثانية جسيماتها الاصطناعية الخاصة، مزيحة بذلك الستار عن أعمق أسرار المادة».

«الكاديوم» يتصف «بقدرة فائقة على أسر النيترونات الحرارية (البطيئة)».

«الميزونات K» هي «جسيمات ابتدائية، مشحونة وحيادية، قصيرة الحياة وغير مستقرة، شديدة التفاعل مع نوى الذرات» (ص١٢٢).

«حجرات التسجيل» هي «المجموعة كاملة من الأجهزة والتجهيزات، التي تستخدم إلى جانب عدادات الجسيمات وصفائح التصوير السميكة، كوسائط أساسية لمراقبة وتسجيل التفاعلات النووية، وتحولات الجسيمات الأولية» وكذلك لدراسة هذه التحولات والتفاعلات ليس «فقط من الناحية الوصفية بل ومن ناحيتها الكمية» ومن أشهرها «حجرة ويلسون» وحجرات الفقاعات» و«حجرات الشرَر» وغيرها (ص١٢٣).

«التحري بالنظائر» هو إجراء سبُور في الأرض وأخذ عينات من التربة من أعماق مختلفة وتحليلها.. وبقياس الأشعة الذي ينُزل في الثقب يمكن تسجيل طاقة الأشعة في كل طبقة ومقارنتها «بالقياسات التي نفذت على مختلف نماذج التربة».

«لكن طبقات الأرض الحاوية على النفط والماء لاتطلق أشعة غاما» فتستبدل هذه الطريقة بأخرى. وينزل في ثقب السبر «منبع قوي للنيترونات»

فتصبح «ذرات العناصر التي تتشكل منها الفلزات» مشعة وتطلق «كوانتات غاما بكميات مختلفة». وسيلتقط المقياس هذه الأشعة ويقيسها (ص١٢٧-١٢٨).

ويعرف المؤلف «الكواركات» و«سلم كيلفين» و«الكوبالت» الذي يستخدم في الصناعة من «أجل الكشف الإشعاعي على السبائك» وفي «الكيمياء» وفي «الطب» من أجل معالجة السرطان وتعقيم الأدوية والأجهزة الطبية وغيرها.. (ص١٣٠)

ويعرف «مدفع الكوبالت» و«التسريع الجماعي للجسيمات» إذ يتم تسريع «الجسيمات بواسطة ساحات كهربائية مغناطيسية خارجية» (ص١٣١). وتسريع الجسيمات الثقيلة يتم «بالساحة الداخلية الناشئة بين مجموعة الجسيمات المشحونة: الوسط والجسيمات المطلوب تسريعها».

و«الكريبتون عنصر كيميائي (غاز خامل)» و«والعدادات البلورية للجسيمات» هي عدادات للاشعاعات المؤينة، تستخدم فيها خصائص بعض البلورات في تغيير ناقليتها للتيار الكهربائي لدى اختراقها من قبل الجسيمات المشحونة السريعة المؤينة أو أشعة غاما» و«الكسينون» «غاز خامل ثقيل ونادر» (ص١٣٤) وله نظيران مشعان «يتميزان بامتصاصهما الشديد للنترونات الحرارية» و«الهيبيرون كسي»: جسيم أولي ثقيل قصير الأجل» و«كوري» «واحدة القياس للإشعاع الطبيعي أو الاصطناعي» (ص١٣٥).

فصل «الحرف لام» فيه تعريف العناصر الخفيفة» و«الليثيوم» و«الليزر» إذ تطلق تجهيزاته ضوءاً «مترابطاً تستطيع أشعته الانتشار إلى مسافات هائلة» مدتها لاتزيد عن أجزاء من المليون أو المليار من الثانية لكن «استطاعتها هائلة جداً» ويمكن استخدامه «لفتح ثقب في قطعة من الفولاذ أو الماس» (ص١٣٩).

«الهيبيرون لامبدا» جسيم أولي حيادي قصير الأجل».

«الليبتونات» مجموعة من الجسيمات الأولية تتميز بضعف تفاعلها مع الجسيمات الأولية الأخرى».

«المسرّع الخطي» «مخصص لتسريع الجسيمات المشحونة».

«المرض الاشعاعي» «ينشأ نتيجة تعرض الأعضاء إلى التأثير الخارجي لاشعاعات ألفا وبيتا وغاما المؤينة أو إلى تيار من النترونات» وغير ذلك.

«لودميلا» اسم إحدى أكبر حجرات الهيدروجين السائل الفقاعية في العالم والمخصصة لدراسة الجسيمات ذات الطاقات العالية جداً»(ص١٤٠).

فصل «الحرف ميم» مخصص للكلام على «الساحات المغناطيسية (القوية وفائقة القوة) ففي المسرعات تستخدم «ساحات مغناطيسية قوية تبنى من أجل الحصول عليها منشآت ذات كلفة عالية» (ص١٤٣).

«النيترونات الحرارية (البطيئة) وهي تلعب «الدور الأساسي في عملية إثارة، وتطور وتفاعل الانشطار الفردي المتسلسل الذي يجري في المفاعلات النووية» (ص١٤٤).

«الميزونات» جسيمات أولية، كتلتها بين كتلة الالكترونات والبروتونات.

«الذرات الموسومة» وبها نحدد مكان «تواجد المادة» وتساعد على حل المسائل التقنية (ص١٤٥-١٤٦).

«جهاز المعالجة» «جهاز معقد يسمح بالتعامل عن بعد مع المواد المشعة التي تكون عادة محاطة بغلاف واقٍ لتأمين الحماية البيولوجية» (ص١٤٧).

«راسم طيوف الكتل» يرتكز على خاصية الجسيمات في تغيير مسار (خط) حركتها تحت تأثير ساحة مغناطيسية قوية».

«كتلة الحركة» وهي معرّفة من وجهة نظر الميكانيك التقليدي ومن وجهة نظر النظرية النسبية. . (ص١٤٨)

وثمة تعريفات لكتلة السكون (الكتلة الذاتية) وزد رقم «الكتلة» و«أثر ميسباور» و«الذرة الميزونية» و«ميرابيل» و«الدريئة» و«الأيونات كثيرة الشحنات» و«استطاعة المفاعل النووي» ثم «الوكالة الدولية للطاقة الذرية». وقبلها «الميزون ميو» (ص ص ١٤٩ إلى ١٥٧).

يبدأ حرف النون بعرض تاريخ اكتشاف النيترون . . إذ تبين أن «نوى جميع الذرات تتألف من بروتونات ونيترونات، وعدد البروتونات يساوي الرقم الذري للعنصر الدوري للعناصر، أما كتلة مجموع البروتونات والنيترونات فتساوي الكتلة الذرية للعنصر أو رقم كتلته» . (ص١٦٠) «وقد فسر اكتشاف النيترون بكل بساطة معضلة أخرى وهي وجود النظائر» . وفتحت طرق جديدة «للدخول إلى أعمق أعماق الذرة، إلى نواتها»، وقادتنا هذه الطرق «إلى أسرار أكثر عمقاً وإلى تناقضات وأمور مدهشة» (١٦١) .

ووجود الجسيمات يعني أن تكون «في حركة دائمة مرتبطة بدرجة الحرارة، أي بطاقة جسيمات المادة المشكلة من تلك الجسيمات الأولية» وإذا أضيفت إليها كمية من الحرارة زادت حركتها . ويقل المطلوب من الحرارة «كلما كانت نواة الذرة أثقل» وإذا كانت أثقل «كانت كمية الطاقة المنطلقة عند تحطمها» أكبر (ص١٦٢) . وأثقل الذرات «هي أقلها استقراراً» ويتمتع النيترون «بامكانات مدهشة فعلاً ومختلفة تماماً» (ص١٦٣) فمن أين له «كل هذه الصفات والامكانات الغريبة المختلفة تماماً عن باقي الجسيمات النووية على الرغم من أن هذه الأخيرة بدورها تمتلك مواصفات مدهشة كذلك؟»

يكمن الأمر «في ازدواجية مواصفات الضوء الذي يسلك سلوك الجسيمات وسلوك الموجات الكهرومغناطيسية معاً» . وقد اكتشفت مثل هذه «الصفات لدى الالكترون» فاشعاع الجسم يتم بشكل متقطع «على شكل دفعات منفصلة محددة- كوانتات، والموجة الضوئية التي لها امتداد محدد تماماً تظهر في بعض الأحيان خصائص الجسيمات» . وقوانين «الفيزياء لاتحتمل الاستثناءات» . (ص١٦٥) وكي تظهر خصائص النيترون التموجية يجب أن تكون سرعته «أقل ما يمكن» (ص١٦٦) والنيترون «كجسيم أثقل قليلاً من البروتون، وهو نشط إشعاعياً خارج نطاق النواة» .

وعلى الرغم من قدرة النيترونات «على اختراق صفيحة فولاذية سميكة فهي غير قادرة على عبور حتى صفيحة رقيقة من الكاديوم التي

تخترقها بسهولة أشعة غاما وحتى جسيمات بيتا (الالكترونات)» (ص١٦٨).

«النوترنيو» «هو من أصعب الجسيمات الحيادية اكتشافاً وخضوعاً للمراقبة» وهو حيادي «كهربائياً وكتلته ضئيلة للغاية» وقد اتجهت الأنظار مؤخراً نحو مجال هام «الأبحاث الجسيمات الأولية» وهو «فيزياء نوترينو الطاقات العالية» • (ص١٦٩ – ١٧٠).

وتدعى الجسيمات التي تتألف منها نوى جميع الذرات باسم «النوكلونات أي الجسيمات النووية» (ص١٧١).

«التصوير بالنترونات (النتروغرافي) إذ بدأ «في الطب والصناعة استخدام النظائر المشعة بدلاً من تجهيزات رونتجن، وذلك لبساطتها ورخص كلفتها»(ص١٧٢). ويسمح تيار النترونات بتصوير «أدق تفاصيل بنية أجسام الحشرات» (ص١٧٣).

أما «حلقة التجميع» فهي أحد أشكال مسرعات الجسيمات.. (ص١٧٤) تحت عنوان «الحرف و» يتكلم المؤلف على «التفاعل المتبادل» وعلى «تحلية الماء» إذ سيمكن القول إن «الصحارى ليست تلك المناطق حيث لاتسقط الأمطار بل تلك حيث ليست هناك طاقة»(ص١٧٧) كما يتكلم على «اغناء اليورانيوم» وعلى الالكترون المداري» وهو يدول حول نواة الذرة على المدار «ذي الشكل الاهليلجي»(ص١٧٨).

تحت عنوان «الحرف يي» كلام على «نظام مندليف الدوري للعناصر الكيميائية (جدول مندلييف» وهو ترتيب جيمع العناصر الكيميائية «وفق تسلسل محدد وحسب خصائصها الأساسية» (ص١٧٩) وقد أتاح استخدامه «إمكانية الحركة في أعمق أعماق (الفضاء) الذري» (ص١٨٠) وقد حطم هذا «القانون العظيم الجدار الذي فصل لفترة طويلة الفيزياء عن الكيمياء، وعبر هذه الفتحة العريضة في هذا الجدار تابعت العلوم تطورها عبر الباحثين في العالم الميكروي».

«فترة نصف التفكك»: «من الخصائص الهامة للمادة المشعة فترة نصف تفككها أي الزمن اللازم لتفكك نصف كمية المادة الابتدائية»(ص١٨١).

وكلما كان التفكك المشع أشهر» كانت فترة نصف التفكك أقصر. فالمواد المشعة القوية تعيش أقصر بكثير من المواد المشعة الضعيفة». ففي حين يكون نصف تفكك اليورانيوم قرابة ٤,٥ مليار سنة فإن فترة نصف تفكك بعض الجسيمات لاتزيد «أجزاء من المليون وحتى المليار من الثانية».

«البروتون» واحد من الجسيمات الأولية القليلة المستقرة ويدخل في «تركيب جميع نوى ذرات العناصر الكيميائية» (ص١٨٢). ولم يعد ثمة شك «في أن البروتون والنترون عبارة عن حالات فيزيائية مختلفة لجسيم أولي واحد». ولكل بروتون ونيترون نواته الصغيرة الخاصة وتسمى القلب. والقلب ليس «جسيماً متجانساً بل يتألف بدوره من دقائق مجهولة لم يتم التعرف عليها حتى الآن» (ص١٨٣).

وثمة كلام على «النشاط الإشعاعي البروتوني» وعلى «البوزيترون (الالكترون) الموجب» وهو جسيم أولي يشبه بخصائصه الالكترون لكن شحنته الكهربائية ليست سالبة بل موجبة، لذا فهو يعتبر جسيماً مضاداً للالكترون. وكان أول جسيم مضاد يكتشف ضمن سلسلة الجسيمات المضادة التي اكتشفت من بعده» (ص١٨٤).

«البلازما- الحالة الرابعة للمادة»- الحالات الثلاث هي: الصلبة، والسائلة، والغازية.. «وإذا زادت درجة الحرارة إلى أربعة أو خمسة آلاف درجة مئوية تنقطع جميع الروابط داخل الجزيئات وتتفكك المادة نهائياً متحولة إلى الذرات المشكلة لعناصرها». وتتوقف «التفاعلات الكيميائية العادية».

وإذا سخّنا وعاء يحتوي على غاز «يظهر داخل الغاز ما يشبه غازاً آخر مكوناً» من الالكترونات التي «يتزايد عددها تدريجياً مع زيادة الانفصال عن نوى الذرات» (ص١٨٥).

«والغاز الغريب المتشكل يسمى البلازما» والبلازما تصل إلى حالتها «المثالية» و«عندما تنفصل الذرات بكاملها إلى جسيماتها الذرية، علماً أن ذلك يحتاج إلى حرارة تساوي عشرات الملايين من الدرجات المئوية». والبلازما ليست مجرد مادة مسخنة إلى درجة مرتفعة جداً «بل هي وضعية فيزيائية مختلفة تماماً لتلك المادة تظهر عديداً من الخصائص غير العادية الهامة جداً» (ص١٨٦) والبلازما تشبه الغاز من حيث هي «متخلخلة وجارية. أما على مستوى الذرات والجزيئات فإن طبيعة تركيبها مختلفة تماماً وهذا ما يفسر الاختلاف الكبير الواسع لخصائص البلازما وسلوكها الأمر الذي يميز بوضوح البلازما عن بقية حالات المادة». ومن السهل التحكم بها «بواسطة الساحات الكهربائية والمغناطيسية».

ويتكلم المؤلف بإيجاز معرفاً «زوج الجسيمات» تشكل زوج الالكترون- البوزيترون و«الميزون بي» و«ثابت بلانك» و«كثافة التيار النيتروني» و«البوزيترونيوم» و«البلوتونيوم» و«مسار الجسيم» «و نواتج انشطار اليورانيوم» و«النيترونات الوسطية» و«الوقاية الذرية» «والبروتيوم» و«الحجرة الفقاعية» التي تتيح المراقبة لفترة أطول للآثار «التي تخلفها الجسيمات المشحونة في كل مرة تطير عبرها» (ص١٩٥) وتم بواسطتها «إكساب هذه الجسيمات سرعات وطاقات لم يكن بالإمكان مشاهدتها قبل ذلك لدى المواد المشعة الطبيعية أو الصنعية» (ص١٩٦).

يبدأ فصل «حرف الراء» بالكلام على «الراديوم» «أحد أول العناصر الطبيعية المشعة المكتشفة وقد استحصله بشكل نقي ماري وبيير كوري في نهاية القرن الماضي». وقد بدا «مدهشاً بالفعل» و«قد يصبح في العديد من الحالات خطراً على الصحة» (ص١٩٧). و«النشاط الإشعاعي» هو عبارة «عن تفكك تلقائي مستمر لبعض العناصر الطبيعية أو الصنعية لا يخضع لأي تأثير خارجي، تطلق خلاله هذه العناصر جسيمات ألفا وبيتا وكوانتات غاما» (ص١٩٨) و«الإشعاع الاصطناعي هو الاشعاع الناتج اصطناعياً من

العناصر الكيميائية المستقرة عن طريق تعريضها لتيارات من النيترونات في المفاعلات النووية أو قصف هذه العناصر بجسيمات ثقيلة كالبروتونات وجسيمات ألفا وغيرها» (ص١٩٩) وقد وصل عدد «هذه المشعات الاصطناعية إلى حوالي الألف وفي كل عام يتم اكتشاف عناصر جديدة وجديدة».

و«النظائر المشعة» كثيرة ومتنوعة.. و«السلاسل المشعة» هي «مجموعة العناصر التي ينشأ أحدها من الآخر نتيجة التفكك الاشعاعي» وهناك أربع من «السلاسل وهي تضم جميع العناصر المشعة المعروفة»(ص٢٠٠).

«الإشعاع القسري» «هو إشعاع الهواء والماء والتربة وغيرها من المواد والذي ينشأ تحت تأثير تعرضها لتيار من النترونات في المفاعلات النووية والمسرعات أو لدى انفجار القنابل الذرية».

والمفاعلات كثيرة منها «مفاعل الماء- المائي» و«المفاعلات ذات النيترونات السريعة» وهي «تسمية عامة تطلق على المفاعلات النووية التي يتم فيها انشطار الوقود النووي». و«المفاعل النبضي» و«المفاعل التكاثري الأنسال» و«المفاعل بالنيترونات الوسطية» و«المفاعل بالنيترونات البطيئة الحرارية» و«المفاعل باليورانيوم المركز». و«مفاعل الاستطاعة الصفرية» و«المفاعل ذو التبريد الغازي» و«المفاعل ذو المبطىء وناقل الحرارة العضويين» و«المفاعل ذو الماء الثقيل» و«المفاعل ذو الطراز الحوضي» و«المفاعل بالوقود السائل».

أما «الكيمياء الاشعاعية» فهي «فرع جديد في الكيمياء يدرس تأثير الاشعاعات على المواصفات الفيزيائية والكيميائية لمختلف العناصر والمواد».

و«الحزام الإشعاعي للأرض» قد اكتشف أنه أكثر من حزام فالكرة الأرضية «محاطة عند سطحها الاستوائي بحزامين- وحتى بثلاثة أحزمة حسب آخر المعطيات- مفصولة عن بعضها بعضاً بوضوح تشبه كعكات

هائلة مشحونة بكثافة بجسيمات ذات شحنات وطاقات وكتل مختلفة» (ص٢١٢) وخروج الإنسان إلى الفضاء «سوف يحرمه من الدرع الواقي» الذي هو غلاف الأرض الجوي والساحة المغناطيسية، «وسوف يعرضه مباشرة لتأثير كل أشكال الاشعاع».

أما «الرواسب المشعة (التلوث الاشعاعي للغلاف الجوي)» فهو «تلوث الغلاف الجوي والمناطق والتربة ومنابع المياه ومختلف المنشآت بالمواد المشعة الناتجة عن الانفجارات النووية أو تناثر الفضلات المشعة للصناعة الذرية في الهواء» (ص٢١٥).

«البيولوجيا الإشعاعية» فرع من علم «البيولوجيا يدرس التغيرات في الكائنات الحيوانية والنباتية الناجمة عن تأثير الإشعاعات المؤينة عليها».

«والتصوير الشعاعي (راديوغرافي)» «تسمية عامة لطريقة تسجيل ودراسة الاشعاعات المؤينة» بوساطة التصوير (ص٢١٦). وبطريقة الفحم المشع يتم تحديد تاريخ المستحاثات. و«الكيمياء الاشعاعية» علم «يدرس مسائل الحصول على المواد المشعة وطرق فصلها وتنقيتها وتحديدها وكذلك طرق قياس مواصفاتها الأساسية، بالإضافة إلى دراسة كيمياء التفاعلات النووية التي تنشأ خلالها العناصر المشعة التي تتفكك أثناء ذلك». ويتميز «التحليل الكيميائي الاشعاعي بدقته الكبيرة وحساسيته الفائقة» (ص٢٢٠).

و«طرق فصل النظائر» «عبارة عن أساليب الفصل الكلي أو الجزئي لخليط مختلف نظائر عنصر ما» (ص٢٢١).

و«فصل نظائر اليورانيوم» صعب جداً «والأصعب هو جمع كمية كافية منها لصنع قنبلة ذرية أو لاستخدامها في المفاعلات النووية». وثمة عدة طرق لفصل نظائر اليورانيوم، ولكل منها «مزاياها ومساوئها، إلا إنها جميعاً تشترك في أن استهلاكها للطاقة الكهربائية كبير بشكل خاص» (ص٢٢٥).

«قضبان التحكم» «صفائح مغطاة بمادة تمتص النيترونات بشدة». ويمكن «يدوياً أو أوتوماتيكياً إدخالها إلى داخل المنطقة الفعالة في المفاعل».

«الجسيمات الطنينية (الطنانات) جسيمات ذات عمر قصير للغاية» تعتبر «حالة لحظية مؤقتة وغير مستقرة لوجود الجسيمات الأولية (الطبيعية)» و«إعادة التركيب» هي إعادة تركيب جزيئات المادة «التي تفككت بتأثير قوى خارجية».

ثم يتكلم المؤلف على «الجسيمات النسبية» و«اشعاع رونتجن (أشعة رونتجن) وهو إشعاع كهرومغناطيسي طول موجته قصير جداً» (ص٢٢٦).

أما «رونتجن» فهي «وحدة هامة جداً في التقنية النووية تظهر تأين المادة بتأثير إشعاع رونتجن أو غاما أو بتعبير آخر كمية الإشعاع الذي امتصته».

ويتكلم على «فلزات اليورانيوم والثوريوم» (ص٢٢٨) وعلى «فلزات اليورانيوم» منفردة، وهي تلعب دوراً هاماً «في المستوى الحالي من تطور العلوم الذرية وتقنياتها». وأشكال «بنية هذه الفلزات متنوعة للغاية». ويوجد اليورانيوم «في فلزات العناصر النادرة».

«فلزات اليورانيوم، الثانوية» خاصتها الأساسية «لونها الأخضر الفاتح أو الأصفر وأحياناً لونها الأحمر». (ص٢٢٩) ويمكن «العثور عليها في العديد من الأماكن على شكل مكامن كبيرة صالحة للمعالجة».

«فلزات الثوريوم» هي «بشكل أساسي الثوريانيت- أوكسيد الثوريوم» والثوريوم «موجود في القشرة الأرضية بكميات أكبر بكثير من اليورانيوم» أما مياه البحار فتحتوي على «أربعة مليارات طن من اليورانيوم» وماءات أوكسيد التيتانيوم تستطيع «فصل اليورانيوم عن مياه البحر» (ص٢٣٠)

«حرف السين» يبدأ بالكلام على «التفاعل النووي التركيبي» الذي على حسابه «تطلق شمسنا منذ ملايين الأعوام تيارات هائلة جداً من الطاقة كما «تنير» النجوم الأخرى في السماء. والتفاعل النووي التركيبي تم تحقيقه من قبل البشرية لأول مرة لدى انفجار القنبلة الهيدروجينية». ثم على «اللف

الذاتي (للاكترون) و«التأثير المهيج للإشعاع» و«الجسيمات الغريبة» و«الناقلية الفائقة» و«المسار الحر للجسيم» و«الهيبرون سيكما» وهو «جسيم أولي سريع التفكك» و«طبقة نصف الأضعاف» و«الانشطار التلقائي لنوى اليورانيوم» و«تعقيم المنتجات الغذائية» و«محرض القلب (المنشط النووي لايقاع القلب) وهو جهاز يزرع في منطقة القلب للمحافظة على إيقاع عمله الصحيح وقوة انقباض عضلته لدى المرضى. و«السترونسيوم» وهو عنصر كيميائي «ينتسب إلى المعادن القلوية وله أربعة نظائر مستقرة» و«التصوير الباطني» للحصول «على صورة واضحة لباطن الجسم» و«التألق- عداد الايماض» (راجع الصفحات من ١٣٠ إلى ١٤١)

«حرف التاء» يبدأ بالكلام على «الحرارة» و«درجة الحرارة» التي «تحددها الطاقة الوسطية لمجموع الجسيمات لهذا الجسم أو المادة» (ص٢٤٤) و«التفاعل النووي الحراري» و«العناصر الواقعة بعد اليورانيوم» و«المبادل الحراري» و«العنصر المطلق للحرارة» وهو «القسم الأساسي والهام من المفاعل النووي، الذي يمكن بواسطته إدخال الوقود النووي إلى المنطقة الفعالة وسحب الحرارة من المادة المنشطرة إلى حامل الحرارة» (ص٢٥٧) و«النيترونات الحرارية (البطيئة)» و«حامل الحرارة» أما «التوكاماك فهي الأحرف الأولى من تعبير «الحجرة الحلقية وذات الساحة المغناطيسية المستقرة» (ص٢٥٩) والجهاز «عبارة عن محولة تمر عبر إحدى وشائعها نبضات قصيرة جداً، وإنما قوية للتيار الكهربائي من منبع خارجي. أما الوشيعة الثانوية فعبارة عن حلقة بلازمية متأينة» «وحول هذا الهيكل الأساسي توضع الكثير من التجهيزات المعقدة التي تهدف إلى وقف «النزوات» العديدة التي تودي إلى عدم استقرار الشريط البلازمي»(ص٢٦٠).

«الثوريوم» عنصر «كيميائي طبيعي ثقيل مشع» لايمكن تحريض «أي تفاعل متسلسل فيه نظراً لعدم احتوائه على نظير منشطر بتأثير النيترونات الحرارية» (ص٢٦١).

«الآثار» هي الآثار التي «تخلفها الجسيمات الأولية والمسجلة في مختلف حجرات التسجيل» و«التريتيوم» نظير للهيدروجين ثقيل جداً ومشع و«التريتون» «نواة ذرة التيرتيوم» و«المكافىء التروتيلي» هو كمية المادة المتفجرة التي ينبغي تفجيرها كي تطلق طاقة يمكن مقارنتها بطاقة القنبلة الذرية» (ص٢٦٢) و«الماء الثقيل» «هو الماء الذي يضم جزيؤه ذرتين من الهيدروجين الثقيل». و«العناصر الثقيلة» تسمية اصطلاحية للعناصر الكيميائية التي تضم العناصر من البولونيوم والعناصر الواقعة بعده حتى اليورانيوم» «وأجهزة الانبعاث الحراري الذري» يتألف الجهاز منها «من قطبين موضوعين في وعاء مفرغ من الهواء» يسخن القطب السالب منهما ويبرد القطب الموجب. (ص٢٦٣- ٢٦٤) والمردود الفعلي لعمل مثل هذه الأجهزة، يتعلق بشكل أساسي بدرجة حرارة القطب السالب.

«التفاعل المتسلسل للانشطار الخاضع للسيطرة» هو العنوان الأول في فصل «الحرف أو» وهو ينجم عن دخول نيترون إلى «نظير اليورانيوم المنشطر- ٢٣٥» فيشطر إحدى نوى ذراته إلى قسمين فتتحرر «كمية هائلة نسبياً من الطاقة «والأهم أنه ينطلق من الذرة المنشطرة نيترونان فيشطران نواتين جديدتين مع انطلاق أربعة نيترونات.. «بعدها يسير تفاعل الإنشطار وتحرير النيترونات كالشلال الهادر ويتضاعف مع كل جيل جديد: وباختصار يبدأ تفاعل انشطار نووي متسلسل متطور ذاتياً» (ص٢٦٥).

«التفاعل النووي الحراري الخاضع للسيطرة (التركيب النووي) تم عبر طريقة واحدة فقط «على شكل انفجار قنبلة هيدروجينية ذات قدرة تدميرية هائلة». وهو لايحمل أي خير للبشرية.

«اليوزانيوم» عنصر طبيعي مشع» (ص٢٦٩) و«مسرعات الجسيمات» و«المسرع الخطي» و«المسرعات الدورية» و«مسرع الأيونات ذو الشحنات الكثيرة (الدراجة السيكلوترونية)» يعرفها المؤلف بشيء من الإسهاب موضحاً تعريفه لها بالأمثلة.. ونتوقف عند «أمواج الصدام» فهنا كلام على

أمواج الصدم «في كتلة الغاز الكوني (الهيدروجين الشديد التخلخل) حيث تكون الحرارة والضغط فيها أعلى بملايين المرات على ما يبدو من درجة الحرارة والضغط الناجمين عن انفجار أقوى القنابل الهيدروجينية . وهذه الأمواج تنتشر بسرعة هائلة وتسبب تألق الغاز أي انطلاق الأمواج الراديوية والأمواج الكهرومغناطيسية للضوء المرئي» . وتمكن العلماء من ايجاد وسائل للحصول على «أمواج صدم في الغازات تسبب ارتفاعاً غير كبير في درجات الحرارة- بحدود عدة ملايين من الدرجات المئوية»(ص٢٧٧) .

ثم يعرف المؤلف «مستويات طاقة الذرة» «ومستويات الطاقة لنواة الذرة» .

في فصل «حرف الفاء» يعرف المؤلف «الفوتون» وهو «كوانت الطاقة للضوء المرئي وغير المرئي، وللإشعاعات رونتجن وغاما، ويتصف في آن واحد بخصائص الجسيم والموجة . ليس للفوتون كتلة سكون ويمكنه أن يتحرك بسرعة الضوء» .

«فيرمي» هو مايقاس به «نصف قطر الذرة» وهو يساوي اصطلاحاً «نصف قطر نواة ذرة الهيدروجين (البروتون)» .

ويتكلم المؤلف على «طريقة الطبقة الحساسة الفوتوغرافية لتسجيل الجسيمات» وعلى «الصاروخ الفوتوني» الذي يولي العلماء موضوع انشائه «أهمية كبيرة وإن بدا الآن وكأنه مجرد حلم من الأحلام الطوباوية»(ص٢٨٥) .

«الغازوترون (السينكروسيكلوترون)» هو مسرع للجسيمات يستخدم فيه ما يسمى مبدأ التشكل الذاتي للطور» و«التفاعل المتسلسل» من «أهم الانجازات العلمية في القرن العشرين» (ص٢٨٦) و«سيرن» هو «اختصار لاسم المركز الأوروبي للأبحاث النووية» و«المسرعات الدورية (الطنينية)» هي «مسرعات للجسيمات المشحونة المتحركة على مسارات مغلقة» و«السيكلوترون» مسرع للبروتونات وجسيمات ألفا وللديترونات»(ص٢٨٨) .

«حرف تش» يشمل «أثر تشرينكوف- فافيلوف» وهو التألق الذي يظهر في بعض المواد عندما يمر عبرها جسيم يتحرك بسرعة تزيد عن سرعة انتشار الضوء في هذه المادة» (ص٢٩١) و«عدادات تشيرينكوف» وهي «أجهزة لكشف الجسيمات المشحونة السريعة كالالكترونات والبروتونات الميزونات وكوانتات غاما ذات الطاقة العالية» (ص٢٩٢).

«حرف أيه» عنوان مواضيع كثيرة هي «الشحنة الكهربائية الأولية» وهي «أصغر شحنة كهربائية في الطبيعة، تلك التي لايمكن تقسيمها إلى أجزاء أصغر». و«الالكترون» الذي «هو أخف جسيم أولي في المادة يحمل شحنة كهربائية سالبة قيمتها أصغر ما يمكن» (ص٢٩٣) و«القوى الكهربائية الساكنة (القوى الكهربائية الراكدة)» وهي «قوى التجاذب والتدافع المتبادلة بين الشحنات الساكنة أو المتحركة بحركة منتظمة». و«الاشعاع الكهرومغناطيسي» الذي هو «عملية فيزيائية معقدة لانتقال الطاقة من المجال الداخل مباشرة في تكوين الذرة إلى مجال الفضاء المحيط بها». و«الجسيمات الأولية» هي الجسيمات التي لايمكن تقسيمها إلى جسيمات أصغر. . إنها تتحول إلى شيء ما. وقد أدى «إنشاء مسرعات طاقتها مليارات الالكترون فولت» إلى «اكتشاف الجسيمات المضادة، البروتون المضاد، والنيترون المضاد وغيرها من الجسيمات التي تعاكس تماماً بمواصفاتها الفيزيائية الجسيمات الأولية العادية» (ص٢٩٧). إن «عالم الجسيمات الأولية عالم غني جداً سواء بتنوع الجسيمات ذاتها أو بأشكال تفاعلاتها وتحولاتها المتبادلة» (ص٣٠٠).

«طاقة ارتباط نواة الذرة» هي طاقة متفاوتة فاخف العناصر وأثقلها تتميز «بتأرجح واسع في قيم طاقة الارتباط الوسطية» (ص٣٠١) «ولدى انشطار جميع النوى الموجودة في كيلوغرام واحد من اليورانيوم ٢٣٥ تنطلق طاقة لايمكن الحصول عليها إلاّ باحراق ١٨٠٠ طن من البنزين» أما في عملية «اندماج نوى العناصر الحقيقية لكل ١ كغ من المادة المتفاعلة» فتتحرر طاقة

أكبر «بحوالي ثماني مرات من الطاقة «المتحررة خلال تفاعل انشطار نوى العناصر الثقيلة».

«تكافؤ (ارتباط) الكتلة والطاقة» «إن مبدأ تكافؤ الكتلة والطاقة يعطي قيمة كمية دقيقة للطاقة الموافقة لكتلة محددة. ومن أجل حساب هذه الكمية يجب فقط إيجاد جداء كتلة الجسم في مربع سرعة الضوء» وتنتج حقيقة مدهشة: فالجسم الذي كتلته ١ كغ تتركز فيه طاقة تساوي «الطاقة المستحصلة من إحراق ثلاثة ملايين طن من الفحم تقريباً». «وكتلة الجسم المتحرك هي دوماً أكبر من كتلة الجسم ذاته وهو في حالة السكون» (ص٣٠٤) وقد حصلت «كتلة الجسم الساكن على تسمية خاصة هي كتلة السكون أو الكتلة الذاتية». والكتلة والطاقة ليستا سوى «خاصتين مختلفتين للمادة تصفان وضعية محددة لها» (ص ٣٠٥).

«الحماية من الإشعاع النفوذ» «للحماية من إشعاع رونتجن وغاما تستخدم المواد الثقيلة والكثيفة (كالرصاص والبيتون والقرميد وماشابه ذلك) وللحماية من النيترونات تستخدم «مواد غنية بنوى ذرات الهيدروجين والفحم (الماء، الغرافيت.. الخ)».

«المدفع الالكتروني»: تسمية اصطلاحية «للجهاز الذي يسمح بالحصول على تيار موجه من الالكترونات في الفراغ» والمفاعل النووي لانتاج الطاقة» هو مفاعل «نووي مخصص لاطلاق الحرارة من أجل توليد الطاقة الكهربائية». و«منابع الطاقة على الكرة الأرضية» تقسم إلى قسمين «منابع الوقود المحترق» والمنابع الأخرى (المياه والرياح) وهي إما مصادر متجددة أو غير متجددة. وثمة طاقة الانفجار الذري و«طاقة الارتباط» و«طاقة إشعاع النجوم» فالمصدر «الأساسي للطاقة الهائلة والأبدية الصادرة عن النجوم يعود إلى التفاعلات النووية الجارية في باطن هذه النجوم حيث يجري تحول متسلسل للعناصر الخفيفة إلى عناصر أثقل مع مايرافقه من انطلاق في الفضاء المحيط لتيار الجسيمات والأشعة الكهرومغناطيسية ضمن

مجال واسع جداً للترددات» . «وعند درجة حرارة حوالي ٤ مليارات درجة تتشكل نوى العناصر ذات الكتل الذرية من ٥٠ إلى ٦٠ (الكروم، الحديد، وغيرهما) (ص٣٠٨).

«الارستد»: يفترض العلماء «أنه في الفضاء حيث تظهر الخصائص الفيزيائية للقوى المغناطيسية» توجد ساحة مغناطيسية.. وتقاس شدتها بواحدة اسمها «الارستد» (ص٣٠٩).

في فصل «الحرف يا» وهو الأخير في اللغة الروسية يتكلم المؤلف على «الطاقة النووية» و«نواة الذرة» و«التفاعلات النووية» و«القوى النووية» و«المفاعل النووي» و«الوقود النووي» و«الهندسة النووية» وهي فرع «الهندسة الحديثة يتعلق باستعمالات الطاقة النووية» (ص٣١٧) و«الفيزياء النووية» وهي فرع «من الفيزياء الحديثة يهتم بدراسة النوى الذرية والتفاعلات النووية والجسيمات الأولية المشاركة في هذه التفاعلات» وهي «القاعدة العلمية والتجريبية للهندسة النووية وللصناعة النووية وللصناعة الذرية» (ص٣١٨).

ويختم المؤلف الفصل بالكلام على السلاح النووي. متمنياً أن يكون كتابه قد استطاع أن يثير الفضول لدى القارىء «والرغبة في التعرف إلى أحد أكثر المجالات العلمية الحديثة إثارة».

والكتاب في ٣٢٤ صفحة من القطع الكبير.